صورة البطل عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية

إعداد
خالد محمد راشد الصغير العجمي

المشرف
الدكتور حمدي محمود منصور

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في
اللغة العربية و آدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

نيسان ، ٢٠٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة (صورة البطل عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية) و أجيزت بتاريخ ٢٨/ ٤ / ٢٠٠٨ .

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
- الدكتور حمدي محمود منصور، مشرفا أستاذ مشارك في الأدب الجاهلي و الأندلسي الجامعة الأردنية.	.....
- الدكتور ياسين عايش خليل ، عضوا أستاذ الأدب العباسي ، الجامعة الأردنية.	.....
- الدكتور عبد الكريم احمد الحياري ، عضوا أستاذ الأدب القديم و البلاغة ، الجامعة الأردنية.	.....
- الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن ،عضوا أستاذ الأدب الجاهلي ، جامعة البلقاء التطبيقية .	.....

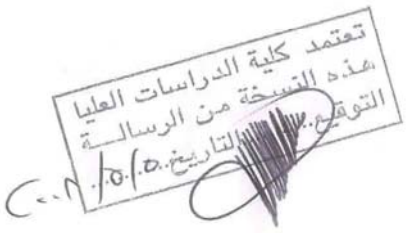

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى

والديّ

وإخوتي . . .

وشريكة عمري

وفلذة كبدي محمد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر و تقدير

أتقدم بعظيم الشكر والتقدير لأستاذي

الدكتور حمدي منصور

لتفضله بقبول الإشراف على هذه الرسالة ، و ما أغدقه علي من نصح و توجيه ، فكان خير من أشرف .. القوي .. الأمين

كما أتقدم بجزيل الشكر و التقدير لأساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور ياسين عايش

الدكتور عبد الكريم الحياري

الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن

على تفضلهم بمناقشة هذه الرسالة ، و رفدي بقيم الملاحظات و صادق التوجيهات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص	ح
المقدمة	١
التمهيد	٥
الفصل الأول : البطولة في العصر الجاهلي	
المبحث الأول : البطل والبطولة	١٩
المبحث الثاني : صور البطولة في العصر الجاهلي.....	٢٥
البطولة الحربية	٢٩
بطولة الكرم	٣٣
بطولة الإباء	٣٦
بطولة الحزم	٣٨
بطولة الحلم	٤٠
بطولة الصبر	٤٢
بطولة العفة	٤٥
بطولة الوفاء	٤٧
المبحث الثالث : موقف المجتمع الجاهلي من البطل	٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني: العناصر المساهمة في ترسيخ بطولة الصعاليك في الجاهلية

المبحث الأول : البيئة ٦٢
المبحث الثاني : الفقر ٧٢
المبحث الثالث : النسب ٨١
المبحث الرابع : المرأة ٨٩
المبحث الخامس الإيمان بالقدر ١٠٢
١- تقلب الدهر ١٠٣
٢- حتمية الموت ١٠٥

الفصل الثالث : البطولة الحربية وأدواتها عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية

المبحث الأول : صور البطولة الحربية ١١٢
المبحث الثاني : أدوات البطولة الحربية ١٣٤
السيف ١٣٦
القوس والسهم ١٣٧
الـرمح ١٣٩
الـدرع والترس ١٤١
الخـيل ١٤١
سرعة العـدو ١٤٣
المرقـبة ١٤٥
الرفـاق ١٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع : البطولة المُثلى عند الشعراء الصعاليك

في الجاهلية

المبحث الأول : صور البطولة المثلى في شعر الصعاليك ١٥٢
بطولة الكرم ١٥٣
بطولة الإباء ١٥٨
بطولة الحزم ١٦٢
بطولة الصبر ١٦٤
بطولة العفة ١٦٧
بطولة الوفاء ١٧٠
بطولة الحلم ١٧٤
المبحث الثاني : الخصائص الفنية لشعر البطولة عند الصعاليك في الجاهلية ١٧٨
اتجاه التصوير الواقعـي ١٧٨
التنويع في الصور الفنية ١٨٠
متانة التراكيب وقوة الألفاظ ١٨٢
الإكثار من صيغ الأفعال المضارع والأمر ١٨٤
تماسك المقطعات ١٨٥
بروز الأنا المتعالية ١٨٧
الغرابة في التصوير ١٩٠
الإكثار من صيغ المبالغة والتفضيل ١٩١
ظهور أسلوب الخطاب الحواري ١٩٢
الخاتمة ١٩٧
المصادر و المراجع ٢٠١
الملخص باللغة الإنجليزية ٢١٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة البطل عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية

إعداد
خالد محمد راشد الصغير العجمي

المشرف
الدكتور حمدي محمود منصور

الملخص

نظرت هذه الدراسة في تفاصيل صورة البطولة عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية، وقد شكلت هذه الصورة نموذجاً متميزاً، تنبع مكوناته من أعماقهم الإنسانية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمعنى وجودهم، بل كانت كذلك مكوناً هاماً من مكونات طباعهم الشخصية التي لا مجال للشك في صدقها، أو القول بأنها مفتعلة أو متكلفة.

وأظهر استقراء المقطعات والقصائد الشعرية التي وقفت الدراسة عليها، أن هذه البطولة قد استمدت وجودها وسماتها المميزة ومظاهرها المتعددة من الواقع الاجتماعي الذي عاشه الصعاليك في ذلك الزمن، وكذلك تأثرت في كثير من مظاهرها بالواقع البيئي الذي ظهرت فيه، عبر تأثيرات متعددة منها المادي ومنها المعنوي.

كما ظهر للدراسة أن الواقعية قد كانت أبرز السمات التي يمكن أن نسم بها البطولة عند الجاهليين بشكل عام، وعند الصعاليك بشكل خاص، وهذا يختلف كثيرا عن صورة البطولة التي ألفناها في الموروث الشعبي للحضارات الأخرى التي قامت البطولة فيها على الجانب الأسطوري والملحمي، والواقعية تعكس مقدار التفاعل الإنساني الذي كان قائما بين الصعاليك والحياة.

ظهرت البطولة الحربية مظهرا أساسيا من مظاهر البطولة عند الشعراء الصعاليك، وتعددت ملامحها، وأشكالها، ودوافعها، باختلاف الوقائع والأحداث والشخصيات، إلا أن هذا المظهر الحربي لم يكن وحده المكون الرئيس لصورة البطولة عند الصعاليك، بل لم تكتمل صورتها لديهم إلا بعد اقترانها بالصفات العليا، والأخلاق البطولية الفضلى، وهو ما بسطته الدراسة في مبحث البطولة المثلى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبرزت في صورة البطولة عند الصعاليك جوانب ومظاهر للعلاقة القوية التي كانت تربط بين الصعاليك وبين أسلحتهم، فلم تكن هذه الأسلحة وما شابهها من مطايا وأماكن مجرد أدوات جامدة تُستخدم للفتك والبطش، بل حاول الصعاليك أن يبثوا الحياة والإحساس فيها، فجاشت أنفسهم بالعواطف الحارة تجاه الفرس والسيف والرمح وغيرها، وكانوا يحاورونها ويستمعون إليها ويستجيبون لها، وتستجيب لهم، ويعطونها من العناية والاهتمام ما يوازي اهتمامهم بالحياة.

لقد كانت البطولة ومظاهرها وأدواتها في جوانب منها تشكل انعكاسا صادقا للتعبير عن الحالة النفسية التي عاشها الصعاليك، وكثيرا ما تأتي للتعويض عن الروابط الاجتماعية التي افتقدوها، وللتغلب علي مظاهر الوحدة والحياة الفردية التي عاشها كثير منهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

البطولة سمة عظيمة مطالبة بقيم نبيلة ومبادئ سامية، حرص كل إنسان شريف أن يتحلى بها، لتهذب خلقه، وترفع قدره، وتكسبه الاحترام والتقدير في التعامل مع الآخرين، وأشد من يحرص على هذه الظاهرة من كان يعاني بعض جوانب النقص التي تحول بينه وبين المجد في مجتمع قاس وبيئة صعبة، فيكرس كل إمكانياته المادية والمعنوية ليثبت ذاته ووجوده، وقد يعينه في ذلك جماعة من أمثاله ينصرونه ليحقق مطالبهم، وآمالهم وتطلعاتهم.

والمبرر من إجراء الدراسة على هذه الظاهرة، أنها جزء من تراثنا وعاداتنا وتربيتنا، فما البطولة إلا مكارم الأخلاق التي يدعونا إليها ديننا الحنيف، وتأمرنا بها عاداتنا وتقاليدنا، ويحرص آباؤنا على غرسها في نفوسنا.

ومن المبررات الأخرى ما تسعى الدراسة لتحقيقه، أقصد التعرف على طبيعة الصعلوك الحقيقية، وتغيير النظرة السلبية التي كونها عامة الناس عن الصعاليك، بأنهم جماعة جائرة من قطاع الطرق، همها الوحيد الغزو والسلب لإشباع غرائزها وشهواتها.

ولقد تكونت هذه النظرة عند الناس لغموض صورة الصعاليك، فمن يقرأ قصائدهم ومقطعاتهم يجد تارة العنف، والسلب، والقتل، وضرباً من الشراسة، وتارة أخرى يلاحظ القيم الإنسانية، والعطف، والشعور بالآخرين، ولعل هذا التباين يرجع للحالة النفسية التي سيطرت على بعضهم.

لذا فإن من يمعن النظر في هذه القصائد والمقطعات؛ يدرك حقيقة هذه الحالة النفسية وأسباب تكونها، ويدرك أن الصعاليك بشر نبلاء بطبعهم، وأن الواقع المرير قد أسهم في دفعهم للعنف والشدة في بعض الأحيان؛ لكي يحفظوا حقوقهم، ووجودهم، ويدفعوا عن أنفسهم الذل والهوان.

إن أهداف هذه الدراسة مقاربة ومكملة لمبرراتها، فمن أبرز أهدافها تسليط الضوء على البطولة الجاهلية بشكل عام، ومعرفة مظاهرها كلها، ورصد المكانة التي كان البطل يحتلها بين أبناء عصره، وتهدف أيضا إلى الخوض في أعماق شخصية الصعلوك لمعرفة حقيقتها وطبيعتها، ومدى تحقيقه لمظاهر البطولة الحربية والمثلى في حياته، ومعرفة الأدوات –المادية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمعنوية- التي استخدمها في ترسيخ بطولاته، وأخيرا النظر في الخصائص الفنية في شعر البطولة عند الصعاليك الجاهليين.

هناك كثير من الدراسات السابقة التي لها صلة بهذه الدراسة، ولكنها كانت صلة جزئية، تختلف عنها في الأهداف، والزمان، والمكان، والعينات، والأدوات، ومن هذه الدراسات:

البطولة في الشعر الجاهلي لمنذر محمد الزعبي (١٩٩٧)، وتتصف هذه الدراسة بالشمولية والعموم في تناولها صورة البطل، واحتوت على إشارات سريعة عن صورة البطل عند الشعراء الصعاليك لا تكفي لإعطاء تصور عام لبطولتهم وما كانوا يتسمون به.

صورة البطل في شعر عنترة بن شداد العبسي لنايف حمدان عويضات (٢٠٠٠)، ويبدو واضحا من عنوان الدراسة اختصاصها بالشاعر الجاهلي عنترة، والعلاقة بينها وبين هذه الدراسة فقط في صورة البطل.

صورة البطل في كتب الحماسة لصادق الشيخ (١٩٩٠)، وهذه الدراسة اقتصرت على الشعر الوارد في كتب الحماسة، والعلاقة بينها وبين هذه الدراسة أيضا قاصرة على صورة البطل.

بعض الدراسات والمقالات التي تناولت صورة البطل في التراث العربي، دون أن تقف وقفة تحليلية على شعر الصعاليك الجاهليين.

وتختلف هذه الدراسة عن الدراسات السابقة، في أنها تناولت بالتحديد فئة الصعاليك الجاهليين، وتطرقت بالتفصيل إلى صورة البطل في أشعارهم، وصفاته، وأخلاقه، فكانت مكملة للدراسات السابقة، ولتحقيق أهداف هذه الدراسة تم تقسيمها إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، تضمنت ما يلي:

المقدمة وفيها تعليل لمبررات هذه الدراسة، وتوضيح لأهميتها، والأهداف التي يرتجى تحقيقها منها، وتحديد الدراسات السابقة التي لها صلة بها، ومدى اختلافها عنها، وأخيرا توضيح مكوناتها وتسلسلها، و عرض المنهجية المتبعة في مباحثها وموضوعاتها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتمهيد تناول فئة الصعاليك الجاهليين، وفيه تعريف هذه الفئة من كتب اللغة والأدب، ووصف حالهم، وتعليل تمردهم على المجتمع والهدف منه، وتفسير سلوكهم وكيفية ترابطهم، وتمييز أنواعهم، وتحديد الأماكن التي يرتادونها باستمرار، والنظر في واقعية قصائدهم وتميزها.

والفصل الأول من الدراسة وفيه ثلاثة مباحث، وهو بعنوان (البطولة في العصر الجاهلي) المبحث الأول تناولت فيه تعريف البطل والبطولة لغة واصطلاحا، وتوضيح سمات الشخصية البطولية، والعناصر الأساسية فيها، ووصف هدفها ومكانتها بين معاصريها، والمبحث الثاني تناول صور البطولة ومظاهرها في العصر الجاهلي كالبطولة الحربية، وبطولة الكرم، وبطولة الإباء، وبطولة الحزم، وبطولة الحلم، وبطولة الصبر، وبطولة العفة، وبطولة الوفاء، أما المبحث الثالث فقد جعلته للحديث عن موقف المجتمع الجاهلي من البطل وبيان منزلة البطل وما يحوز عليه من إجلال وتقدير في حياته وبعد مماته.

والفصل الثاني فيه خمسة مباحث وعنوانه (العناصر المساهمة في ترسيخ بطولة الصعاليك في الجاهلية)، خصصتُ كل مبحث فيه بعنصرٍ من هذه العناصر الخمسة، فالمبحث الأول اهتممت فيه بالبيئة موضحا مدى قساوتها واستئناس الصعاليك بها، ودورها في ترسيخ بطولتهم، والمبحث الثاني درستُ فيه الفقر، مبيناً أسبابه وآثاره على الصعاليك، ودوره في بطولتهم، والمبحث الثالث اقتصرت فيه على عنصر النسب، معددا أنساب العبيد والهجناء منهم، وما خلفه النسب من نقص في نفوسهم دفعهم للتمسك بالبطولة وإثبات الذات والوجود، والمبحث الرابع جعلت الحديث فيه عن المرأة وعلاقتهم بها، وتأثيرها عليهم بتعلم البطولة والتمسك بها، أما المبحث الخامس فتناولت فيه اعتقادهم وإيمانهم بالقدر وكيفية تفسيرهم له، وتوضيح دور هذا الاعتقاد في حياتهم البطولية.

والفصل الثالث جعلته في مبحثين، وعنوانه (البطولة الحربية وأدواتها عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية)، وكان بمثابة الإحصاء، فمبحثه الأول أحصى مظاهر البطولة الحربية المتنوعة عند الشعراء الصعاليك، ومبحثه الثاني أحصى أدوات البطولة عند الصعاليك، وعدتهم الحربية المعنوية والمادية كالسيف والسهم والقوس والرمح والدرع والترس والخيل والعدو والمراقب والرفاق، ووضح علاقة كل من هذه الأدوات بالشاعر الصعلوك الجاهلي.

أما الفصل الرابع فقد جاء في مبحثين، وعنوانه (البطولة المثلى عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية) وجاء استكمالا للفصل السابق، فعقد في مبحثه الأول إحصاء للصور البطولية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المثلى ومظاهرها عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية، في حين اختص مبحثه الثاني بجانب فني من قصائدهم ومقطعاتهم، فوضح بعض خصائصها الفنية وما تميزت به من واقعية الأحداث، وغرابة التصوير، وتماسك الموضوعات، ومتانة التراكيب، وقوة الألفاظ، وتنويع الصور، وبروز الأنا، واستعمال الخطاب الحواري، وهي خصائص سهلت توضيح الصور البطولة في شعر الصعاليك الجاهليين.

وأخيرا خُتمت هذه الدراسة **بخاتمة** لُخّص فيها البحث وسردت فيها النتائج الهامة التي توصل إليها الباحث.

إن المنهجية المتبعة في هذه الدراسة تتعدد حسب مقتضيات الموضوعات التي تعرض لها الفصول، والمباحث التي تتكون منها الدراسة، وقد حرص الباحث في هذه الدراسة على استخدام أساليب البحث العلمي في كافة مجرياتها لتحقيق أهدافها المرجوة.

فاستُخدم كل من: المنهج التاريخي في معالجة مادة شعر الصعاليك الجاهليين، ورصد قضايا الدراسة المتصلة به، ورصد النظرة التاريخية لمفهوم البطولة في شعر الصعاليك، والمنهج الاستقصائي لاستخراج صورة البطل في شعر الصعاليك الجاهليين من خلال مسح دقيق لقصائدهم ومقطعاتهم الشعرية، واستخدم المنهج الإحصائي بشكل مبسط في بعض المواضع التي تتطلب ذلك من مباحث الدراسة.

وأخيرا بعد توضيح أهمية الدراسة ومبرراتها وأهدافها ومنهجيتها، وما اعتمدت عليه من دراسات سابقة، أسأل الله العلي القدير أن يسهل سيرها، وأن تحقق أهدافها المنشودة، وتسهم في خدمة العلم، وتوضيح الصورة الحقيقية للصعاليك، وتكشف جانباً من حياة أجدادنا في العصر الجاهلي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيد

مدخل إلى صعاليك الجاهلية

إن الدخول إلى عالم الصعاليك لإجراء دراسة معينة، يتطلب أولا معرفة هذه الظاهرة معرفة جيدة، تشمل معناها، والأسباب التي أدت إلى نشوئها، وأهدافها العامة، وأماكن تواجد أفرادها، بالإضافة إلى النظر في شعر هؤلاء الصعاليك، ومعرفة خصائصه ومميزاته، ونحن في هذا التمهيد سنسلّط الضوء على هذه الأمور، لتتسانَد رسالتنا مع غيرها من الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة وأفرادها كل حسب هدفه والغاية من دراسته.

إن معرفة المعنى اللغوي والأدبي لهذه الظاهرة تتطلب تتبع ما جاء عنها في كتب اللغة والأدب، فقد قال ابن دريد في الاشتقاق: " الصعَالِيك، هم الفُقَرَاء "[١]. وقال الجَوهَري صاحب معجم الصحاح: "الصعلوك: الفقير، والتصعلك: الفقر، وتصعلكت الإبل إذا طرحت أوبارها"[٢]. والزمَخْشَري صاحب أساس البلاغة يقول: "تصعلك، وصعلكه: أضمره وأدقه"[٣]. وقد اتفق معهم في ذلك صاحب القاموس المحيط[٤]. أما ابن مَنْظُور صاحب اللسان فقد شمل تعريفه الكثير من التعاريف السابقة، فقال: "الصعلُوك: الفقير الذي لا مال له، وزاد الأزهَري : ولا اعتماد. وقد تَصَعلَكَ الرجل إذا كان كذلك؛ قال حَاتِم الطائِي :

عَنينَـا زمانـاً بِالتصعـلُكِ والغِنَـى ... فَكُـلا سقَانَـاه بِكأسيهمـا الدهـر

فَما زادنَـا بغْيـا علـى ذِي قَرابـةٍ ... غِنَانَا ولا أزرى بِأحسابِنَـا الفَقْـر

أي عِشنا زماناً. وتَصَعلكت الإبل: خرجت أوبارها وانجردت وطَرحتها. ورجل مصَعلَك الرأس: مدوره. ورجل مصَعلَك الرأس: صغيره. وقال شمر: المصَعلَك من الأسنِمة، الذي كأنما حَدرَجتَ أعلاه حَدرجةً، كأنما صَعلَكْتَ أسفله بيدك ثم مَطَلْتَه صعداً أي رفعته على تلك الدملكة

---

[1] ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، (ت٣٢١هـ). كتاب الاشتقاق، ط٢، ج٢، (تحقيق عبدالسلام هارون)، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٩، ص٢٧٩.

[2] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، (ت٣٩٣هـ). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط١، ج٤، (تحقيق: إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩، مادة (صعلك).

[3] الزمخشري، أبوالقاسم محمد بن عمر، (ت٥٣٨هـ). أساس البلاغة، ط١، (تحقيق عبد الرحيم محمود)، مطبعة أولاد أورفاند، القاهرة، ١٩٥٣، مادة (صعلك).

[4] الفيروزابادي، مجد الدين ابو الطاهر محمد بن يعقوب، (ت٨٢٣هـ). القاموس المحيط ،ج٣، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (د.ت)، مادة (صعلك).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتلك الاستدارة؛ .... وقال أيضا: تَصَعلُكتِ الإبل إذا دَقّت قوائمها من السمَن. وصَعلَكها البقلُ وصَعلَك الثريدةَ: جعل لها رأساً، وقيل: رفع رأسها. والتصَعلُك: الفقر.... وكان عروَة بن الوَرد يسمى: عروة الصعاليك لأنه يجمع الفقراء في حظيرة فيَرزقُهم مما يَغْنَمه" [١]. إلا أن الزبيدي أضاف إليه موضحاً السبيل الذي اتخذوه وسيلة للقضاء على فقرهم واستكمال حياتهم كغيرهم من البشر، فقال: "الصعاليك ذؤبان العرب، ولصوصهم وشطّارهم" [٢].

إذن معنى هذه الظاهرة في كتب اللغة يدور حول الفقر، والضمور، والصغر، والتجرد، تجرد من المال ومن الشحم واللحم، وفيها أيضا تكوير الشيء وتدقيقه، إضافة إلى تحمل المتاعب ليرتفع الشخص عن فقره بالتلصص، وطلب الغنى، فيتجرد من المهانة والصغر بين من هم يعيشون في غنى وترف [٣].

وللتوسع في هذا المعنى نرجع إلى كتب الأدب القديمة فقد كانوا يسمون أصحاب هذه الظاهرة تسميات مختلفة، ويطلقون عليهم صفات متفاوتة في المعنى، كالذؤبان، والفتاك واللصوص، والشّطار، والشياطين، والرجيلاء ،والشذاذ، ولعلهم سموا بهذه الأسماء لأنها تدل على صفات فيهم، فقد كانت تسميتهم بالذؤبان والشياطين لشراستهم وقسوتهم وميلهم الشديد إلى العنف، واجتراح الموبقات في تحقيق غاياتهم، وسموا باللصوص لاعتماد الكثير منهم في معيشته على السلب والنهب والإغارة، ورفضهم اللجوء إلى التسول والاستجداء، وسموا بالشطار لأن بعضهم اشتهر بالخبث والمكر والخداع والمخاتلة وسعة الحيلة، وسموا أيضا بالعدائين أو الرجيلاء ؛ لأن عددا منهم كان يعتمد على العدو السريع، وعلى الكر والفر في غارات النهب والسلب والثأر والانتقام، أما مَن وصفهم بالشذّاذ فقد يكون تعليله أنهم خليط متنافر من أبناء القبائل العربية ومن شرائح المجتمع الجاهلي الناقمة على وضعها [٤].

لذا نجد الكثير من الباحثين المحدثين اتفقوا في تعريفهم الاصطلاحي العام لهذه الفئة عبر هذه الصفات والتسميات التي جاءت في الكتب القديمة، فيعرفهم أحمد الشايب بأنهم "جماعة فقيرة

---

[1] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ). لسان العرب، ط١، ج١٠، (تحقيق عامر أحمد حيدر)، دارالكتب العلميـة، بيروت، ٢٠٠٣، مادة (صعلك).

[2] الزبيدي ، محمد مرتضى، (ت١٢٠٥هـ). تاج العروس من جواهر القاموس ، ج٧، دار ليبيا، بنغازي، ١٩٦٦، مادة(صعلك).

[3] سلامة، محمد أحمد، (١٩٨٥). موضوعات ونصوص وقضايا حول الشعر الجاهلي، (ط١)، القـاهرة، دار الطباعـة المحمديـة، ص١٩٣-١٩٤.

[4] سليمان، علي، (٢٠٠٠). الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع، دمشق، وزارة الثقافة، ص٢٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من قبائل شتى، جمعت بين أفرادها الخصاصة والحاجة، وأن فقرهم هو الذي دفعهم للخروج على قبائلهم والتحال من نُظمها، وهو الذي دفعهم إلى الإغارة والنهب وسلب القبائل والأفراد وتوزيع ما يسلبونه فيما بينهم" [١]. ويعرفهم يوسف شكري فرحات أنهم: "جماعة من محترفي السلوك العدواني، عاشوا في القفار ومجاهل الأرض، يرافقهم الفقر والتشرد والتمرد، وقصدهم من سلوكهم الحصول على المال والمغنم" [٢]. ويربط بين هذين التعريفين الدكتور يوسف خليف في تعريف أشمل، قائلا: "الصعلوك هو فقير يحاول التغلب على فقره الذي فُرض عليه بسبب أوضاعه الاجتماعية أو ظروفه الاقتصادية، لكي يخرج من نطاقه ويتساوى مع سائر أفراد مجتمعه، ولكنه لا يسلك السبيل التعاوني، وإنما يدفعه (لا توافقه الاجتماعي) إلى السبيل الصراعي، فيتخذ من الغزو والإغارة للسلب والنهب وسيلة يشقّ بها طريقه في الحياة، فيصطدم بمجتمعه الذي يرى في هذه الفوضوية مظهرا من مظاهر التمرد" [٣].

ويبدو "أن كلمة الصعلوك لم تكن تدل على معنى سيئ" [٤] في بداية الأمر، فكل لفظة كانت تتطور معانيها بتطور الزمان والمكان وكأن لها تاريخا خاصا بها، فقد تنتقل من معنى سيئ إلى حسن أو من معنى عزيز إلى ذليل والعكس صحيح، وهذا التطور شمل لفظة الصعلوك، فبعد أن كانت تقتصر على الفقير كما جاء في المعاجم، أصبحت تطلق أيضا على بعض السلوكيات التي يقوم بها هذا الفقير للتغلب على فقره.

إن مجمل التعريفات السابقة فيها تلميح لبعض العوامل التي سببت نشوء هذه الظاهرة في الحياة الجاهلية، وأهمها عاملان، أحدهما اجتماعي، والآخر اقتصادي، فهي ظاهرة "لم تكن حدثا من الأحداث الطارئة أو العارضة في حياة المجتمع العربي قبل الإسلام، وإنما كانت ظاهرة نبعت من ظروف المجتمع ولازمته كجزء منه" [٥] .

---

[1] الشايب، أحمد، (١٩٧٦). تاريخ الشعر السياسي ، (ط٥)، بيروت، دار القلم، ص٤٩.

[2] فرحات، يوسف شكري، (٢٠٠٤). ديوان الصعاليك، بيروت، دار الجيل، ص٥.

[3] خليف، يوسف، (١٩٨٦). الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، (ط٤)، القاهرة، دار المعارف، ص٦٠.

[4] أمين، أحمد، (١٩٥٢). الصعلكة والفتوة في الإسلام. سلسلة اقرأ. (١١١)، ص١٩.

[5] حفني، عبدالحليم، (١٩٨٧). شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا العامل الاقتصادي يتمثل في الفقر الذي كان يعيشه الصعاليك، فقد كان ملازما حياتهم كما هو واضح من التعريف، وهذا الفقر "يعود لضعف موارد البيئة" [١]، فبيئتهم الصحراوية تقتصر مواردها على التجارة والرعي، لأن العرب "لا يفضلون الزراعة والصناعة، بل يحتقرونها ويزدرونها" [٢]. لكن الصعاليك لم يعتمدوا على التجارة أو الرعي، فهم يرفضون الرعي، لأنهم يرون فيه عملا من أعمال العبيد الأذلاء، أما التجارة فلم يكن لهم مجال فيها، لأنها تعتمد قبل كل شيء على رأس مال يستغل فيها، وهم يفتقدون هذا المال، لذلك لم يبق أمامهم من المصادر سوى الصيد والنهب يعتمدون عليهما [٣] ، فالحياة الجاهلية كانت قائمة عليهما، لكن شجاعتهم وعزة أنفسهم جعلتهم يميلون كل الميل إلى النهب، فالصيد رزق الضعفاء العاجزين، بينما النهب رزق الأقوياء الشجعان. لذا كان الفقر أول الأسباب في الصعلكة، ويخاطب عروَةُ ابن الوَرد زوجته العاذلة موضحا ذلك، يقول:

دعينـي للغِنَـى أسعـى فإنّـــي رأيـتُ النـاس شَـرهـم الفقيـر [٤]

ويوضح السلّيك بن السلّكة أيضا أن الفقر هو أهم أسباب الصعلكة، يقول :

وعـاشيـةٍ رج بِطـانٍ ذَعرتُـها بِصـوتٍ قتيـلٍ وسطـها يتَسيفُ

....

وما نِلتُها حتّى تَصعلكْـتُ حِقْبـةً وكِدتُ لأسبـابِ المنِيـَةِ أعـرِفُ

وحتّى رأيتُ الجوع بالصيفِ ضرني إذا قُمتُ تَغْشاني ظِـلالٌ فأُسـدِفُ [٥]

أما العامل الاجتماعي فيتمثل في القبيلة وتشريعاتها، حيث كانت القبيلة اللبنة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الجاهلي، وقد التزمت هذه القبيلة بوحدتها، فسنت منظومة من التقاليد الاجتماعية كي تحفظ وحدتها ونظامها، سميت هذه المنظومة بالعصبية القبلية، التي كانت تحتّم على الفرد تأييد القبيلة ومصالحها، والعمل لها بكل ما يملك من قوة؛ لينجدها وينجد أبناءها،

---

[1] الضناوي، محمد أمين، (١٩٩٧). الصعاليك في الجاهلية لصوص أم رواد ثورة اجتماعية، (ط١)، بيروت، دار الشرق الأوسط، ص٦٤.

[2] ضيف، شوقي، (١٩٧٧). تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، (ط٨)، القاهرة، دار المعارف، ص٧٧.

[3] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٧٦.

[4] العبسي، عروة بن الورد، (ت٣٠ق.هـ). ديوان عروة بن الورد، ط١، (شرحه: سعدي ضناوي)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦، ص١٧٤.

[5] السعدي، السليك بن عمرو، (ت١٧ق.هـ). ديوان السليك بن السلكة، ط١، (قدم له وشرحه :سعدي الضناوي)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٨٢. (أسدف: أنام).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجبره أيضا على احترام رأيها الجماعي فلا يخرج عليه أو يتجاهله، إضافة إلى تجنب ما يمزق وحدتها أو يسيء إليها فلا يحملها ما لا طاقة لها به بين القبائل، فإن خالف شيئاً من هذه القوانين كان مصيره الخلع والطرد حيث تتبرأ منه، ولا تطالب بحقوقه إن تعرض لمكروه بين القبائل، ولا يكون أمامه إلا أن يستجير بإحدى القبائل القوية كي تحميه، أو يلجأ إلى التصعلك في الصحراء الواسعة التي يمارس فيها جرائره دون قيود أو تزمت، وفي الغالب يختار الصعلكة لأن بعض القبائل كانت ترفض إجارته كي لا يجلب لها المصائب [١] .

إضافة للتقسيم غير العادل الذي قسمته القبيلة للمجتمع، فقد قسمت المجتمع إلى ثلاث طبقات متفاوتة تقسيما قائما على أساس رابطة الدم، وهذه الطبقات هي: (الصرحاء، والموالي والعبيد)[٢]، مما أدى إلى وضوح التمايز الطبقي في كل قبيلة، وهو تمايز فيه ظلم وعدم مساواة، حيث تحددت معاملة كل فرد في القبيلة حسب الطبقة التي ينتمي لها، فأفضل معاملة كانت للصرحاء، وأدنى معاملة للعبيد، أما الموالي فقد كانت معاملتهم ما بين الصرحاء والعبيد، لذلك استنفر بعض أفراد المجتمع على هذا الوضع المقيت ،ولم يتحملوا هذه التفرقة، فتصعلكوا في الصحراء مفضلين الحياة الحرة على حياة التفرقة. وقد ازداد هذا الوضع سوءا حين تكبرت طبقة الصرحاء على باقي الطبقات فاحتكرت حق التشريع في القبيلة، فأصبحت تضع القوانين التي تخدم مصالحها [٣].

وعلى إثر هذه العوامل ميز الدكتور شوقي ضيف الصعاليك فصنفهم ثلاث مجموعات: "مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حَاجِز بن عَوف الأزدِي، وقَيس بن الحِدَادِية، وأَبِي الطمَحَان القَينِي، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السلَيك بن السلَكة، وتَأبطَ شَراً، والشنْفَرَى، وكانوا يشاركون أمهاتهم في سوادهم، فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافا، وحينئذ قد تكون أفرادا مثل عروَة بن الوَرد العَبسِي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذَيل وقَهم اللتين كانتا

---

[1] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٩١-٩٢.

[2] طبقة الصرحاء تتكون من أبناء القبيلة أصحاب الدم النقي الذي لا تشوبه شائبة ،فهم الطبقة الأرستقراطية في القبيلة، مـنهم يتـألف السادة والأشراف، وطبقة العبيد تشمل أسرى الحروب أو الأفراد الذين اشتروا من البلاد المجاورة بثمن ليقوموا علـى خدمـة أسـياد القبيلة، أما طبقة الموالي فتشمل الأحرار الذين جاوروا القبيلة ليتمتعوا بحمايتها أو العبيد الذين أعتقهم أسيادهم فبقوا في القبيلة مـوالين لها.

[3] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي" [١]، أضف إليهم الأُحَيمِر السعدِي، ومن همدان مَالِك بن حَريم، وعَمرو بن بَراقة، ولا يعني هذا أن الصعاليك في العصر الجاهلي يقتصرون على هذه الأسماء، بل هناك الكثير من الصعاليك الذين لم تصل إلينا أخبارهم ولا أشعارهم وأسماؤهم في كتب التراث، واقتصرنا على هذه الأسماء والأشعار لأننا قرأناها في الكتب التراثية.

إن أحد الباحثين يضيف عاملا ثالثا لنشوء هذه الظاهرة، هو حب المغامرة؛ لإثبات الوجود والشخصية في المجتمع، عن طريق العبث بالعرف والعادات، وبعدم المبالاة لأوامر العائلة والمجتمع، مما يجعلهم يسيرون سيرة الصعاليك، معلّلين ذلك بأن الصعاليك فيهم من ينتمي لأسر متمكنة، أو لأسر لا بأس بأحوالها المالية، ومع ذلك عاش عيشة الصعاليك لما فيها من مغامرات ومجازفات ومطاردة وهجوم ودفاع[٢].

لقد استمر الصعاليك في السلب والنهب دون أن يخافوا أو يحسبوا حسابا لأحد، ساعدهم على ذلك عدم وجود دولة منظمة ذات سيادة واحدة، فلم يكن في جزيرة العرب دولة موحدة يشعرون معها بالخضوع والانقياد، وإنما كان هناك ممالك متفرقة نظامها أشبه بالنظام القبلي، وبعضها كان إمارات محلية لم يستقر فيها الملك بالمعنى الحقيقي الكامل، لذا ازداد الصعاليك في تمردهم، حيث لا يوجد فوقهم سلطة رسمية سوى سلطة المجتمع التي عجزت عن السيطرة عليهم [٣].

كما أنهم لم يجدوا حرجا في استمرارهم بالنهب، لأن النهب كان مهنة رائجة بين القبائل العربية في عصرهم، فكانت القبيلة إذا افتقدت ثروتها بسبب تعرضها لعملية سلب، أو تفشي مرض بين أنعامها، أو لإصابة مراعيها بالقحط والجدب، فإنها سرعان ما تعوض هذه الخسارة بغارة على إحدى القبائل التي تعيش في الأراضي الخصبة وتمتلك الأنعام الكثيرة، لتسلب أنعامها معوضة خسارتها، حيث كان البقاء للأقوى، وهذا سلوك أشبه بسلوك الصعاليك مع وجود فارق بسيط، أن "عمل القبائل جماعي منظم، وعمل الصعاليك فردي لا نظام له" [٤]، بالإضافة إلى أنهم

---

[1] ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، ص٣٧٥.

[2] علي، جواد، (د.ت). المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ساعدت على نشره جامعة بغداد، ص٦٠٢.

[3] الضناوي، الصعاليك في الجاهلية لصوص أو رواد ثورة اجتماعية، ص٦١.

[4] الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانوا "يزعمون أن المال مال الله، فليأخذوا منه ما يشاءون" [١]، لذلك يظنون "أن أخذ المال بالقوة لا يورث إحساسا بالذنب عند الغاصب، أو بإتيان جريمة بحق الآخرين والمجتمع، وكأنهم يسترجعون ما كان يجب أن يكون لهم، فسلب منهم حين ذهب إلى غيرهم" [٢]، ويعبر الأُحَيمِر السعدِي عن هذا الاعتقاد، فيقول:

وإنّي لأستَحِـي لِنَفْسِـي أن أُرى ... أمـر بحبـُلِ ليـس فيـهِ بعيـر

وأن أسـألَ العبـد اللئيـم بعيـره ... وبعران ربّـي في البـلادِ كثيـر [٣]

وهذا لا يعني أن كل صعلوك كان يمارس السلب والنهب، فقد انقسم الصعاليك إلى نوعين: نوع خامل، ونوع عامل يطلق عليهم الشرفاء ، فالنوع الأول :"لا يكلفون أنفسهم مشقة الجهاد في سبيل توفير لقمة العيش، فهم عالة على المجتمع" [٤]، وقد ذكرهم عروَة بن الوَرد آنفا بعضا منهم، فهم كسالى، يرتادون المجازر ليلا بحثاً عن بقايا الطعام من العظام، وينتظرون إحسان الأغنياء عليهم، أو يعملون عندهم في خدمة نسائهم، كي يؤمنوا الزاد لأنفسهم فقط، يقول:

لحـا اللّه صعلوكاً إذا جـن ليلُـه ... مصافي المشاش آلفاً كل مجـزر

يعد الغِنى مِـن نَفسِهِ كـل ليلـةٍ ... أصاب قِراها مِن صديـق ميسـر

ينَـام عِشـاء ثم يصبـح ناعِسـاً ... يحث الحصى عن جنْبِهِ المتَعفـر

قليلُ التِماس الزادِ إلا لِنَفْسِـهِ ... إذا هو أمسى كالعريش المجـور

يعين نِسـاء الحي مـا يستَعِنـه ... ويمسِي طليحا كالبعير المحسـر [٥]

وقد ذكرهم السلّيك منادياً بمقاطعتهم، يقول:

فَـلا تَصِلِـي بِصعلـوكٍ نَـؤُومٍ ... إذا أمسـى يعـد مِـن العِيـال [٦]

أما النوع الثاني فهو أبي لا يرضى بالذل والهوان، فلا يسأل أحدا رزقه، بل يغزو ويغير باذلا جهده للحصول على رزقه، ولو تطلب ذلك منه التضحية بحياته، فشعاره إما أن يعيش عزيزا أو يموت شريفا، يقول عروَة بن الوَرد في هذا الصنف:

---

[1] الحوفي، أحمد محمد، (١٩٥٢). الحياة العربية من الشعر الجاهلي، (ط٣)، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ص٢٢٩.

[2] السليك بن السلكة، الديوان، ص١٩.

[3] ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، (ت٢٧٦هـ). الشعر والشعراء، ٢م، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤، ص٦٧٢.

[4] العماري، فضل بن عمار، (١٩٩٦). الصعلكة لدى الشنفرى ودلالتها الاجتماعية والنفسية، مجلة جامعة الملك سعود، ٨ (٢)، ص٢٤٤.

[5] عروة بن الورد، الديوان، ص١٤٩-١٥١.(جن ليله: ستره، المجور: المتهدم، الطليح: المصاب بالكلال، المحسر: المتعب).

[6] السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكِن صعلـوكاً صفِيحةُ وجهـــهِ كَضوءِ شِهابِ القابِـسِ المتَنَـــورِ
مطِلا على أعـدائِهِ يزجـرونَـــه بساحتِهم زجـر المنيحِ المشَهـــرِ
إذا بعـدوا لا يأمنون اقترابـــــه تَشَوفَ أهـل الغائـبِ المتَنَظـــرِ
فذلك إن يلْـــقَ المنِيةَ يلْقَـــــها حمِيداً وإن يستَغْـن يومـاً فَأجـدِرِ [١]

ويقول السلَيك أيضا:

ولكـن كُـلّ صعلـوكٍ ضـــروبٍ بِنَصـل السيـفِ هامـاتِ الرجـال [٢]

لقد كان الصعاليك ينتشرون في مختلف أنحاء الجزيرة العربية، لكن أكثرهم تمركزوا حول مكة بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية؛ لانتشار المناطق الخصبة فيها، ولكثرة الطرق التجارية حولهم[٣]، وهي الأماكن التي كان الصعاليك يبتغونها لغاراتهم، فإذا ما تعبوا من التصعلك وأرادوا الراحة فترة من الزمن، لجأوا إلى مكة لتؤويهم، حيث وجدوا فيها الحماية والمعونة والحرمة المقدسة، فكان أحدهم إذا جاءها نادى قريشا نداء النخوة لتؤويه وتجيره، فيقوم أشرافها بحمايته وتقديم الجوار له، لأن الصعاليك أصبحوا "قوة مرعبة لشدة بأسهم في القتال ولمعرفتهم بالمسالك ومنافذ الطرق" [٤]، ولعل قريشاً كانت تقوم بهذا العمل لمصالح اقتصادية، كتأمين تجارتها بالإحسان إلى هؤلاء الصعاليك الذين كان باستطاعتهم مهاجمة القوافل ونهب ما معها من أموال، واستخدامهم كحراس يخرجون مع قوافلها لحراستها من بقية الصعاليك[٥].

لم تكن هذه الفئة ضالة متخبطة في حياتها، وإنما كانت منظّمة تسير وفق أهداف تسعى لتحقيقها، أول هذه الأهداف القضاء على ظاهرة البخل التي اتسم بها بعض الأغنياء وذلك لتحقيق فكرة العدالة والمساواة، فالغني إذا لم يعطف على الفقير ويجعل له قسما من ثروته، كان مصيره أن تُشن عليه غارة تُنهب فيها كل ثرواته لكي يعيش حياة الفقير ويحس معاناته. أما ثاني الأهداف فهو النجدة والعطف على الفقراء العاجزين عن الكسب أو الغارة، لذلك كانوا يعطونهم

---

(1) عروة بن الورد، الديوان، ص١٥٢-١٥٣.

(2) السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٩.

(3) ضيف، تاريخ الأدب العربي:العصر الجاهلي، ص٣٧٦.

(4) سركيس، إحسان، (١٩٧٩). مدخل إلى الأدب الجاهلي، (ط١)، بيروت، دار الطليعة، ص١٩٩.

(5) علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٩م، ص ٦١٨-٦١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الأسلاب أنصبة مثل أنصبتهم[١] وقد تحدث عروَة بن الوَرد عن هؤلاء الفقراء مذكرا رفاقه بهدفهم من تصعلكهم وغزوهم كي يثبتهم سائلا:

فَهلْ يطْرين فِي إثركُم من تَركتُم إذا قَام يعـلُوه حِـ ـلالٌ فَيفْعـد؟ [٢]

لقد اتسمت هذه الأهداف بالنبل، لذلك أطلق عليهم اللصوص النبلاء، فقد كانوا لا يهجمون إلا على الأشحاء البخلاء من الأغنياء، "فما يحوونه من النعم بالغارة، وينالونه بالسرق والسلب، إنما ذلك مال منعت منه الحقوق، ودفع عنه بالبخل والعقوق، فأرسلهم الله إليه" [٣]، لذا كانوا دائما يتحسسون أخبار الأغنياء، فإذا وجدوا غنيا كريما تركوه، وإن وجدوا غنيا شحيحا هاجموه، وفرقوا ما سلبوه منه على زملائهم بالعدالة، لذلك وصفهم بعض الباحثين بالاشتراكيين[٤].يقول عروَة بن الوَرد:

لعل انطلافي في البلادِ وبغْيتـي وشَدي حيازيم المطيـةِ بِالرحـل

سيدفَعني يوماً، الى رب هجمـةٍ يدافع عنهـا بالعقـوق وبالبخْـل [٥]

لذلك تجد المتأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم ينتابه التعجب لما يرى من تناقض في بعض السلوك، ففي الوقت الذي نجد فيه أنهم يعتمدون في حياتهم على الغزو والعنف لكي ينهبوا، تجدهم أيضا يتحلون ببعض الصفات الإنسانية كعطفهم على الفقراء العاجزين، وهذا ما جعلهم "يمثلون ظاهرة عجيبة في المجتمع الجاهلي"[٦]، وقد فسر أحد الباحثين هذه الروح الإنسانية المقابلة للعنف: "أنهم في ثورات نفسية، يعيشون عيشة قلقة مضطربة، فإذا كانوا في ثورة جامحة من جوع وحاجة وتألم بما حلّ بهم وبما هم فيه من سوء حال، هاجموا، فكفروا بكل شيء وثاروا على كل شيء وكل أحد،...، فإذا وجد الصعلوك غنيمة، وعاد إلى مقره سالما ارتخت أعصابه، وهدأت سورته، وتذكر نفسه وما يعانيه من ألم وجوع، فيعود إنسانا آخر، بارا

---

(1) الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٢٣٤.

(2) عروة بن الورد، الديوان، ص١١٨. (المقصود من الاستفهام في البيت هو التأكيد).

(3) علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦٠٣.

(4) أمين، الصعلكة والفتوة في الإسلام، ص١٩-٢١.

(5) عروة بن الورد، الديوان، ص٢٠٣.(الحيزوم: الصدر، الهجمة: قطعة الإبل، العقوق: التنكر لصلة الرحم).

(6) خلف، عبدالله، (د.ت). الشعر ديوان العرب: الشعراء الصعاليك دراسة تحليلية نقدية، (ط١)، الإسكندرية، المكتب العربي للطباعة، ص٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأصحابه حنونا عليهم، كريما يعطي مما ناله بقوته وسلاحه وذكائه" [١]، وهذه الروح الإنسانية بمثابة البطولة المثال التي سنسلط الضوء عليها في الفصول اللاحقة.

هذا التناقض السلوكي الذي كان في حياة الصعاليك، قسم المجتمع الجاهلي إلى قسمين من حيث نظرتهم لهؤلاء الصعاليك، فأعمال العنف التي كانوا يمارسونها، جعلت بعض أفراد المجتمع يرون أنهم جماعة ضالة قاسية، لا تستحق إلا القتل لذلك أهدروا دماءهم، فكل من أمسك بصعلوك مطالب بقتله، كما فعل الغُلام الهذَلي بتَأبطَ شَراً [٢]، وكما فعل أَنَس الخَثْعَمِي بالسلَيك [٣]، وكما فعلت بَنُو سَلامَان بالشنْفَرَى [٤]، وكما فعلت قَهم بعَمرو ذي الكلْب [٥]، أما الأعمال الإنسانية التي كانوا يمارسونها فجعلت بعضاً من مجتمعهم يرى أنهم محسنون مظلومون، ظلمهم الواقع المرير المحيط بهم، فهم يسعَون وراء أهداف إنسانية نبيلة، لذلك تجدهم يتعاطفون معهم، ويتفهمون دوافعهم فيؤوونهم ويدافعون عنهم، كما فعلت فَكيهةُ مع السلَيك حين أجارته وحمته من قبيلتها [٦]، وكما أجارت مَخْزوم حَاجِز بن عَوف الأزدِي [٧]، وكما أجار الزبَير أبَا الطمَحَان القَينِي [٨]، وما يدل على رقة هؤلاء الصعاليك وإنسانيتهم، أنهم لم ينكروا الجميل لمن تفهمهم وآواهم ، فقد مدحوهم في أشعارهم مدحا يليق بمقامهم، وكأن هذا المدح رد للجميل.

إن مجتمع الصعاليك اختلف عن المجتمع الجاهلي بنوعية الرابطة التي تجمعه، فالمجتمع الجاهلي كان يقوم على أساس واحد هو القبيلة، يربط أفرادها رابط قوي هو رابط الدم والقرابة، فتشكل بينهم ما يسمى (بالعصبية القبلية)، والتي كانت تحكم على الفرد تقديم الولاء والطاعة للقبيلة وساداتها واحترام قوانينها وتشريعاتها، في حين تلتزم هي بحمايته والدفاع عنه ما لم يخالفها، أما الصعاليك فتكتلوا في جماعات وعصابات جمعهم وربط بينهم الاتفاق في الهدف

---

[1] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦١٣.

[2] نوادر المخطوطات، ط٢، ٢م، (تحقيق عبدالسلام هارون)، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣، ص٢١٥.

[3] المصدر نفسه، ٢م، ص٢٢٧.

[4] المصدر نفسه، ٢م، ص٢٣٢.

[5] المصدر نفسه، ٢م، ص٢٤١.

[6] الألوسي، محمود شكري، (ت١٣٤٣هـ). بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب،١م، (شرحه وصححه محمد بهجة الأثري)، دارالكتب العلمية، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، (د.ت)، ص١٣٩.

[7] الأصفهاني، أبو الفرج، (ت٣٥٦هـ). الأغاني، ط٤، ج١٣، (شرحه :يوسف علي طويل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢، ص٢٣٣.

[8] البغدادي، عبدالقادر بن عمر، (ت١٠٩٣هـ). خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ط٢، ٨م، (تحقيق:عبد السلام هارون)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩، ص٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحال، وهو رابط قوي اكتسب قوته من الأوضاع السيئة التي كانوا يعيشونها، فتشكلت عندهم ما يسمى (بالعصبية المذهبية)، لذلك كان الصعلوك "يتخذ من أصحابه أهلا غير أهله، ويتخذهم موضع سره ونجواه، وإيلام الحوادث من فقر وجوع وتشرد يؤلف بينهم، ويجعلهم رابطة واحدة"[١] فتميزت شخصيتهم بهذه العصبية وظهر ولاؤهم لها وللجماعة على لسان شعرائهم الذين غالبا ما تحدثوا بلسانها في فخرهم[٢].

لذلك أصبحت الصعلكة مع تقدم الزمن مفخرة لمنتميها وأعضائها، فهي مجتمع مصغّر لا يختلف عن المجتمع الجاهلي إلا بالأهداف، فالصعاليك "لا يقلّون فخراً واعتداداً بالنفس عن السادات والأشراف، يغزون على الخيول وعلى الأقدام، ويهاجمون القوافل السائرة في بطن القفار، فيفتكون ويغنمون، مباهين بشجاعتهم وكرمهم؛ لأنهم يبذلون ما بأيديهم من الغنائم للفقراء والجائعين" [٣]، "وكأنما تحولت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية" [٤]، والدليل شهادة عَمرو بن مَعدِي كَرب للسلّيك بالشجاعة والفروسية، وشهادة عَبدالمَلِك بن مَروَان لعروَة بن الوَرد بالكرم، وكلاهما من صفات الفروسية، فقد قال عَمرو بن مَعدِي كَرب وهو فارس اليَمَن: "ما أبالي أي ظعينة لقيت على ماء من أمواه معد ما لم يلقني دونها عبداها أو حراها. ويعني بالحرين عَامِر بن الطفَيل وعتَيبَة بن الحَارث بن شِهَاب اليَربوعِي، وعنى بالعبدين عَنْتَرَة العَبسِي والسلّيك بن السلَكة" [٥]، وقال عَبدالمَلِك بن مَروَان : "من زعم أن حَاتِما أسمح الناس فقد ظلم عروَة بن الوَرد" [٦].

أما إذا تطرقنا لشعر الصعاليك فسنرى أن له الفضل الكبير في تخليد مآثرهم وذكر شؤون حياتهم، ولولا هذا الفن لما وصلت إلينا أخبارهم. فكتب التاريخ لم تهتم بالتاريخ الاجتماعي الذي يحكي عن طبقات المجتمع[٧]. فالشعر ديوان العرب ينقل لنا أخبارهم وأحوالهم، يقول الجَاحِظ: " كل أمة تعتمد في استياق مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال

---

(1) سلامة، موضوعات ونصوص وقضايا حول الشعر الجاهلي، ص٢٠٠.

(2) شلبي، سعد اسماعيل، (١٩٧٧). الأصول الفنية للشعر الجاهلي، الفجالة، مكتبة غريب، ص٣٩٣-٣٩٤.

(3) الصائغ، عبدالإله، (١٩٩٩). الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، (ط١)، صنعاء، دار الفكر المعاصر، ص٣٨٠.

(4) ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، ص٣٧٦.

(5) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢م، ص١٢٩.

(6) الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص ٧٣.

(7) خلف، الشعر ديوان العرب: الشعراء الصعاليك دراسة تحليلية نقدية، ص٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت العرب تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والمقفى والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها..." [١].

لقد تميز شعر الصعاليك عن بقية الأشعار في كونه أكثر واقعية من غيره، فهو "مثال قوي لشخصياتهم وسلوكهم لا يكتمون منه شيئا، ولا يقصرون في التعبير عنه، فامتازوا بالصدق والصراحة والقوة، وظهرت هذه الصفات في فنهم فكان طريفا مقبولا " [٢].

إن واقعية هذا الشعر أكسبته اهتماما كبيرا من قبل الناس في العصور المختلفة، بل أصبح راسخا في أذهان كثير منهم، يرددونه ويستشهدون به في مواقفهم، لأنه يمثل مأساة عصرية لجماعة ظلت طوال حياتها تكابد بعض مساوئ العصر بكل نضال واجتهاد، وتهتف في شعرها بأعلى صوتها مخلدة مبادئها على مر العصور، فكان شعرهم "متنفسا لشجنهم، وراحة لقلوبهم المضناة بالغربة وتعبيرا عن وجدان مثقل بالهموم" [٣].

ولا بد أن الصعاليك تمكنوا من تخليد مبادئهم، فقد أعجب الناس على مر العصور بشعرهم، فورد في كتب الأدب القديمة ترديد بعض أشعارهم في مواضع كثيرة، فقد قال عَبدالمَلِك بن مَروَان: "ما يسرني أن أحدا من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروَة بن الوَرد لقوله:

إنّي امرؤٌ عافي إنائي شِركِـ ـةٌ وأنتَ آمرؤٌ عافي إنائِك واحِـ ـ ـد
أَتَهزأُ مِنّي أَن سمِنْتَ وَأَن ثَـ ـرى يوجهي شُحوب الحق والحق جاهِد؟
أُقَسم جِسمي في جسـ ـومٍ كثيـ ـرةٍ وأَحسو قَراح الماءِ والماء بـ ـ ـارد [٤]

ومن شدة إعجابهم بشعرهم كانوا يستشهدون به، فقد خطب الحَجاج بأهل العراق قائلا: "إني سمعت تكبيرا لا يراد به الله، وإنما يراد به الشيطان. وإنما مَثَلي ومثَلكم ما قال عَمرو بن بَراقة الهَمدانِي:

وكُنتُ إذا قَوم غَزوني غَزوتُهـ ـم فَهل أَنا في ذا يـ ـالَ همدان ظالِم
متى تَجمع القَلب الذَكي وصارماً وأَنفـ ـاً حميا تَجتنِبـ ـك المظالـ ـم

---

[1] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت٢٥٥هـ). الحيوان، ط٢، ١م، (تحقيق عبدالسلام هارون)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥، ص٧١-٧٢.

[2] الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص٥٠-٥١.

[3] بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، (١٩٧٠). قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، القاهرة، دار المعارف، ص٤٥.

[4] الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما والله لا تقرع عصاً عَصاً إلا جعلتها كأمس الدابر" [١].

ولكن على شدة إعجاب الناس بهذا الشعر إلا أنهم كانوا لا يحبون أن يسمعه أبناؤهم، لأنه قد يؤثّر في نفوسهم فيدفعهم للاغتراب عن الأوطان، فقد " قال عَبدالله بن جَعفَر لمعلم ولده: لا تروهم قصيدة عروَة بن الوَرد التي يقول فيها:

دعيني للغِنَى أسعى فإنّي رأيتُ الناس شَرهم الفقير

ويقول: إنها تدعوهم للاغتراب عن أوطانهم" [٢].

ومع واقعية هذا الشعر وصدقه إلا أنه يعَد شعراً متميزاً في عصره، لأنه خرج على نظام القصيدة الجاهلية، فموضوعه ومنحاه يخالفان منحى القصيدة الجاهلية، "ولا عجب من ذلك، فكل خروج على تقاليد أو أعراف أو أوضاع قائمة يستدعي في الأدب خروجا على المدرسة الأدبية التي تُعَد من متممات البنى المعنوية التي تناظر تلك التقاليد أو الأعراف أو الأوضاع"[٣]، وقد كمن اختلاف شعر الصعاليك عن الشعر الجاهلي بكثرة المقطوعات، والوحدة الموضوعية التي لم تعرفها معظم القصائد الجاهلية، وانتشار القصصية لأنه كان يسجل كل ما يدور في حياة الصعاليك من أحداث، وكذلك اختفاء الشخصية القبلية وذيوع النرجسية؛ لأن حياتهم كانت مستقلة عن القبيلة فكانوا يمارسون كل شئ بمفردهم، وستوضح الدراسة لاحقا أبرز الخصائص الفنية لشعر الصعاليك.

---

[1] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت٢٥٥هـ). البيان والتبيين، ٢م، (تحقيق عبدالسلام هارون)، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص١٣٨.

[2] الأندلسي، ابن سعيد، (ت ١٨٥هـ). نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ط١، ٢م، (تحقيق نصرت عبدالرحمن)، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢، ص٥٣٥-٥٣٦.

[3] سركيس، مدخل إلى الأدب الجاهلي، ص٢١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البطولة في العصر الجاهلي

تهتم هذه الدراسة بظاهرة محددة (البطولة)، عند فئة معينة (الصعاليك)، في فترة زمنية معينة (العصر الجاهلي)، عبر سعي أولي إلى تسليط الضوء على تعريف هذه الظاهرة ومبادئها وسمات شخوصها، ثم تحديد المعايير التي يحدد في إثرها البطل في العصر الجاهلي لكي يسهل توضيح ملامح البطولة عند الصعاليك، ومن ثم نوضح منزلة هذا البطل في العصر الجاهلي لنتأكد من مدى تحقق هدف الصعاليك باتجاههم للبطولة، وقد حدد هذا الفصل في ثلاثة مباحث يبحث أولها في تعريف البطولة والبطل، وينظر ثانيها في صور البطولة في العصر الجاهلي، والثالث في منزلة البطل عند المجتمع الجاهلي وكيفية تخليدهم لذكراه.

المبحث الأول: البطل والبطولة

حين يسمع الإنسان كلمة (البطولة) يتداعى إلى ذهنه مدلولها العام الذي درج بين عامة الناس على مر العصور وهو الشجاعة، "شجاعة القلب والجسد في القتال، وقوة البدن وسلامته وطواعيته، وهذا معناها الشامل القديم، ومازال باقيا في أذهان العامة وخيالهم"[(١)]، وقد يكون هذا التفسير ناتجا عن تميز كثير من الأبطال بالشجاعة، فأدى ذلك إلى اقتران البطولة بالشجاعة.

وإن كنا سنعتمد هذا التعريف القديم نكون قد حصرنا البطولة في مجال واحد، هو مجال الحرب والقتال، ولكن البطولة لا تقتصر على هذا فحسب، "فهي تمتد لتشمل كافة مناحي الحياة حربا وسلماً" [(٢)]، لذلك لا بد من تتبع هذه اللفظة في المصادر لمعرفة معناها الصحيح، ففي لسان العرب عرف ابن مَنْظُور الإنسان الذي يمارس البطولة قائلاً: "البَطَل: الشجاع. وفي الحديث: شاكي السلاح بَطَل مجَرب. ورجل بَطَل بين البَطالة والبطولة: شُجَاع تَبطُل جِراحَتُه فلا يكتَرِثُ لها ولا تَبطُل نَجَادته، وقيل: إنما سمي بَطَلاً لأنه يبطِل العظائم بسَيفه فيبَهرجها، وقيل سميَ بَطَلاً لأن الأشداء يَبطُلُون عنده، وقيل: هو الذي تبطل عنده دماء الأقران فلا يدرَك عنده ثأر من قوم

---

(١) المجذوب، محمد مهدي، (١٩٥٨). البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي، مؤتمر الأدباء العرب، الدورة الرابعة، الكويت ٢٠-٢٨ ديسمبر، ص ٨٩.

(٢) الشلبي، حسن مرعي حسن، (٢٠٠٠). البطولة في الشعر العربي الإسلامي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، أطروحة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، الأردن، ص٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبطال، وبَطالٌ بَين البَطالة والبِطالة. وقد بَطُل، بالضم، يَبطُل بطولة وبَطالة أي صار شجاعاً وتبطل" [١]. وفي تاج العروس أضاف الزبيدي قائلاً: "البطل: الشجاع المتَعَرض لِلمَوتِ." [٢]

والواضح من التعاريف اللغوية السابقة أن المعاجم العربية تتفق مع المعنى الشامل القديم وترى أن البطولة "شجاعة متفوقة على الشجاعات، والبطل شجاع ممتاز عن الشجعان الأشداء، لأنهم إذا ما التقوا به يضعفون، وتتصاغر شجاعتهم، أو لأنه يقتل الأقران فلا يجرؤ أحد على أن يثأر منه" [٣] بل وتتفق أيضاً على أن الشجاعة الفائقة عدت بطولة لأنه "لا يتصف بها إلا قليل من الناس" [٤].

أما بالنسبة للمعاجم الأجنبية فهي تتفق مع المعاجم العربية في تعريفها للبطولة، فمعجم أكسفورد يرى أن البطل (Hero) هو المحارب العظيم والمجاهد الشجاع، ويكاد معجم لاروس يتفق معه في الوصف. [٥]

ولكن هذه التعريفات اللغوية يجب عدم الاعتماد عليها وحدها في توضيح معنى البطولة لأن البطولة لفظ متجدد مع تطور الزمن والمجتمع، بينما كثير من معاجم اللغة كتبت في عصور قديمة، فلا تتناسب مع تطور الزمن، فاللغوي في تعريفه لأي لفظة يقتصر على التعريف السائد لها في عصره الذي دونها فيه، بينما لكل لفظة تاريخ كتاريخ الأشخاص والأمم. فقد توضع الكلمة لمعنى ثم يتطور المعنى بتطور العصور، فيضيف إليها كل عصر معنى جديداً، فيبقى اللفظ على حاله ويتغير المعنى تغييراً قريبا أو بعيداً [٦]. وهذا ينطبق على كلمة (البطولة) فمعناها يتطور بتطور المجتمعات، واختلاف نظرتها إلى السلوك الإنساني.

لذلك يجب الرجوع إلى الكتب الأدبية الحديثة في تعريفنا لأي كلمة وذلك لمواكبة أي تطور في معنى اللفظة، فالدكتور شوقي ضيف يعرف البطولة بأنها "الغلبة على الأقران، وهي غلبة يرتفع بها البطل عمن حوله من الناس العاديين ارتفاعا يملأ نفوسهم له إجلالاً وإكباراً" [٧]،

---

[١] ابن منظور، لسان العرب، مادة (بطل).

[٢] الزبيدي، تاج العروس، مادة (بطل).

[٣] الحوفي، أحمد محمد، (١٩٦٧). البطولة والأبطال، القاهرة، يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص٩.

[٤] المصدر نفسه، ص٩.

[٥] المصدر نفسه، ص٩.

[٦] أمين، أحمد، (د.ت). فيض الخاطر، (ط١)، ج٨، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص١٧.

[٧] ضيف، شوقي، (١٩٧٠). البطولة في الشعر العربي، سلسلة اقرأ، (٣٣١)، ص٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعرفها أحد الباحثين أنها: "مجموعة من الممارسات أو الأفعال الإنسانية العظيمة، التي يقوم بها فرد أو مجموعة من الأفراد، توصلهم إلى منزلة رفيعة في نفوس الناس كافة أو أقوامهم، مما يجعل هؤلاء الناس يصفونهم بالأبطال" [١]، ويعرفها آخر أنها: "قوى محركة للإنسان في اتجاهاته نحو الأمثل بتخطي الواقع وتجاوز جغرافياته المادية إلى أرض بكر ومفاوز يتعانق في متاهاتها جنون المغامرة مع أحلام النصر وفرادة الموقف" [٢].

من هذه التعريفات الأدبية يتبين مفهوم البطولة بوضوح، فلم تعد تقتصر على الشجاعة فحسب، كما عرفتها كتب اللغة، وإنما تعددت لتشمل كثيراً من ميادين الحياة "فالبطولة ظاهرة لا تختص بجانب معين دون غيره من جوانب الحياة على امتداد الزمن" [٣].

لكن هذا لا ينفي أن تمثل الشجاعة الجزء الأكبر في البطولة، فهي جوهر البطولة كما يقول الدكتور محمد المجذوب[٤]، إذ لا بطولة "إلا إذا كان البطل متفوقا في شجاعته ممتازا على الأنداد بجراءته" [٥]، ولعل الشجاعة المقصودة هي الشجاعة العامة وليست المقصورة على ميادين الحروب، "فهناك شجاعة الجهاد السلمي لتحرير الوطن، وشجاعة الثبات على العقيدة مهما نزل بصاحبها من عسف وإعنات، وعرض على موارد الهلاك، وشجاعة الرأي الصراح حيث يؤثر الناس التقية والكتمان، أو الممالأة والنفاق، وشجاعة الدفاع عن حق مهضوم، أو عن ضعيف مستذل مظلوم، وشجاعة الدعوة إلى الإصلاح في مجتمع مستكين إلى ما يعاني من سوء الحال،.....، وشجاعة الأوفياء الذين كانت سلامتهم محققة في تحللهم من الوفاء، ولكنهم آثروا الوفاء بالعهد على السلامة. فهؤلاء كلهم شجعان، بل هم أبطال، لأنهم أقدموا على ما لم يقدم عليه النظراء والأقران" [٦].

إن البطولة في جميع المجتمعات تمثل منزلة عالية رفيعة لا تستوجب سوى الاحترام والتقدير من قبل أفرادها، لذا كان الناس أكثر شغفاً بالإقبال عليها، يحبون التباهي والتمادح بها

---

[١] خريوش، صادق الشيخ صالح، (١٩٩١). صورة البطل في كتب الحماسة، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمـان، الأردن، ص٣٧.

[٢] الزعبي، منذر محمد إبراهيم، (١٩٩٧). البطولة في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ص٢.

[٣] فالح، جليل، (١٩٨٠). البطل في شعر الحماسة، مجلة آداب الرافدين، (١٤)، ص٢٤٣.

[٤] المجذوب، البطولة في الأدب العربي، ص٩٠.

[٥] الحوفي، البطولة والأبطال، ص٢٤.

[٦] المصدر نفسه، ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيما بينهم، فهي "صورة واضحة الملامح من المروءة والفتوة والفصاحة، وأنها ذات أهداف إنسانية، وأنها تقف دائماً في جانب الحق" [١]، لذلك صورت البطولة بأنها "سمو وتشوفٌ للكمال، ورياضة للروح والجسم معاً، وتعبير مكتمل على طاقة قوية متفردة،.....، فهي صفة إنسانية بارزة " [٢]، لا يتصنعها البطل أو يدعيها "وإنما تترجمها جملة من الفضائل التي يقوم بها فيستحق الإكبار والإجلال" [٣].

إن البطل يعد الشخص الكامل في مجتمعه، لأن صفة الكمال لا يكتسبها إلا من تفوق وتميز في كل قيمة أو صفة يحبها مجتمعه، "فالبطولة تعني في كل الثقافات التفوق" [٤] لذا يمكن لنا أن نطلق عليه "الإنسان الأنموذج الذي يتحرك ضمن إطار الواقع، بخصائص فكرية ونفسية متميزة، يتمخض عنها سلوك متميز" [٥]، أي أنه شخص "يمتاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية، يظهر بها بينهم" [٦]، بل تعدى كل ذلك ليصبح "فردا فائقا يتجاوز الناس في صفاته، ويسلك في مواجهة الأحداث مسلكا مثاليا ويأتي من الأعمال ما يعجز عنه سائر البشر، ويتنزه عن كثير مما يميز الناس من نقص إنساني، أو من ضعف بشري" [٧].

وهناك بعض العناصر اللازم توافرها في شخصية البطل حتى تكتمل بطولته على أكمل وجه، أولها: أن يكون مصدر خير كبير لقومه، وأن يتسم بقوة الشخصية، لكي يجبر الناس على إجلاله وإعظامه والاقتداء به، وألا يأتي من الأعمال في حياته ما يفسد عظمته وهيبته لأنه إن فقد منزلة القدوة فقد الاحترام والتقدير[٨]، بالأضافة إلى العزيمة القوية التي لا تضعفها المغريات ولا تنال من صلابتها الملابسات والعقبات لكي يسيطر على رغباته ويضبط أعماله ويسيرها،

---

[١] المجذوب، البطولة في الأدب العربي، ص٨٩.

[٢] المصدر نفسه، ص٩٠.

[٣] دراوشة، صلاح الدين أحمد، (٢٠٠١). القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات، (ط١)، إربد ، مكتبة الفجر، ص٩٥.

[٤] خليل، أحمد محمود، (١٩٩٦). في النقد الجمالي: رؤية في الشعر الجاهلي، دمشق، دار الفكر، ص١١٢.

[٥] فالح، البطل في شعر الحماسة، ص٢٤٣.

[٦] أبو السعود، فخري، (١٩٣٧). البطولة بين الأدبين العربي والإنجليزي، مجلة الرسالة، السنة الخامسة، ١ (١٨٩)، ص٢٥١.

[٧] إدريس، سهيل، (١٩٥٩). البطولة في الرواية العربية الحديثة، مجلة الآداب، (١)، ص٢.

[٨] أمين، فيض الخاطر، ج٨، ص١٩-٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخيرا الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالبطولة، وهي ضرورة في تقوية ثقة البطل بنفسه لكي يذلّل ما يعترضه من عقبات ويرهب الخصوم ويحطم قواهم المادية والمعنوية [١].

ولا بد للبطل أن يكون مؤمنا بعقيدة من العقائد يضحي من أجلها ويدافع عنها، "فالعقيدة أساس البطولة، لأنها القوة التي تهيمن على الفكر، وعلى العزيمة، وتتجه بهما إلى إذاعتها وحمايتها، فيرى البطل في عزة عقيدته عزته، وفي قوتها قوته، ولا يطيق أن يعيق عقيدته معوق ولا ينزل بها ضيم، لأن في المساس بها هدماً لإنسانيته، وتقويضا لبطولته" [٢].

وأن يكون له هدف سامٍ يسعى دائما لتحقيقه على أكمل وجه، فلا يتصرف في حياته تصرفا عشوائيا أو تصرفا متشنّجا، لذلك يدرك دائما أبعاد مهماته في الحياة، مستعينا بعبقريته الفردية وإبداعه الذاتي. ولعل العقيدة والهدف هما ما يدفعانه دائما للتضحية "فالبطل لا يكون جريء الجنان مستعدا للتضحية إلا إذا كان مؤمنا بعقيدة من العقائد أو هدف من الأهداف" [٣].

إن ما يؤكد سمو أهداف البطل "تضاؤل مصالحه الذاتية البحتة في حساب أهدافه، فلا هو سالك سبيل المنفعة الشخصية ولا هو دائر ضمن حلقات مفرغة من المتاهات لا يقدر عواقب الدوران فيها.... فطاقاته الذاتية مدخرة لنصرة المجموع أو لنصرة قضية من كبريات قضايا الحياة، حتى وإن كان شخص الشاعر أو البطل محور هذه القضية" [٤]. فقد يكون البطل في حاجة لإثبات ذاته وسط المحيط الذي يعيش فيه، فلا يتم هذا الإثبات إلا بواسطة تحقيق بعض المصالح الجماعية أو إعلاء قضية من قضايا الحياة التي تخص الجماعة، فالحاجة لإثبات الذات دائما تدفع الفرد للقيام بأعمال أو سلوكيات تخدم الجماعة وتحظى باحترامهم.

لذلك فإن هذا البطل لا ينزل من السماء ولا يخرج من باطن الأرض ولا يولد من بطن أمه على هذه الصورة، وإنما هو وليد عصره ومجتمعه، وثمرة بيئته وواقعه، فقد "ابتدعه وجدان الجماعة ليكون نموذجا لكل من أفرادها فهو جماع فضائلها، وهو المحقق لأحلامها ورغباتها" [٥] و"تكون بفعل أمته ومجتمعه، لذلك فهو يكون عاجزا عن ممارسة بطولته إذا انقطعت أسباب

---

[١] الحوفي، البطولة والأبطال، ص٣٧-٤٤.

[٢] المصدر نفسه، ص١٩.

[٣] البصير، عبدالرزاق، (١٩٥٩). البطولة في الشعر الحديث، مجلة الآداب، (١)، ص٢٦.

[٤] فالح، البطل في شعر الحماسة، ص٢٥٠.

[٥] يونس، عبدالحميد، (١٩٥٩). البطولة في الأدب الشعبي، مجلة الآداب، (١)، ص٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صلاته الحيوية بأمته ومجتمعه" [١]، فعلى سبيل المثال الأبطال في المجتمعات السابقة لا يستطيعون ممارسة بطولاتهم خارج مجتمعاتهم لأن معايير البطولة المثالية التي قُيموا بها في مجتمعاتهم تختلف عنها في مجتمع آخر، فأبطال الحرب في المجتمع الجاهلي إن وجدوا في وقتنا الحاضر لا يعدون من الأبطال لأن وقتنا الحاضر يختلف من حيث الأمان والاستقرار والنظام، فلا يوجد فيه الحروب القديمة التي تعتمد على السيوف والخيول والتي غرضها السلب والنهب، وإنما الاعتماد على الأسلحة الحديثة، وأغراضها أكبر من السلب والنهب الذي كان قائما في الجاهلية. لذلك فإن كل بطل له عصره الذي اكتُشف فيه فلا يستطيع ممارسة بطولاته إلا في عصره.

لذلك تجد كل أمة تقدر أبطالها وتعظمهم، لأن البطل يستمد بطولته من خلال تفوقه وتميزه في إحدى حاجات الأمة التي تراها مثالاً أعلى، فالبطل بمثابة المرآة التي تعكس سلوكيات المجتمع وقيمه، حيث "تتبلور فيه آمال الأمة، وتتحقق فيه مطامحها، وتتخلص به من آلامها"[٢]، فالأبطال تختلف أفعالهم وسلوكهم في كل مجتمع حسب حاجات الأمة في ذلك العصر، فبطل العهود الأولى مختلف عن بطل العهود المتلاحقة من بعده، مع وجود بعض التشابهات البسيطة فيما بينهم نتيجة خلود ذكرى بعض الأبطال التي تناقلتها الأبطال كقدوات يحتذى بها. فإذا أردنا أن نقيم أبطال عصر ما، لابد من دراسة تاريخ هذا العصر ومعرفة كل أوضاعه وسلوكياته المثالية، والقيم التي يفضلها.

[١] خوري، رئيف، (١٩٥٩). حول البطولة وأدب الأطفال، مجلة الآداب، (١)، ص٣٥

[٢] أمين، فيض الخاطر، ج٨، ص١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني: صور البطولة في العصر الجاهلي

إن البطولة ظاهرة تختلف من مجتمع لآخر، ومن زمان لآخر، ففي كل مجتمع أو زمان يكون هناك معايير يعتمدها المجتمع لكي يحدد أبطاله، فهي "تنبثق من الواقع الاجتماعي وتنشأ عنه، ثم تؤثر فيه بعد أن تصبح حقيقة مادية.... لها وجود محسوس وواقع ملموس" [١]، مما جعل البطل "نموذجا حيا يتفاعل مع الأحداث ويعبر عن طموح الأمة ويرسم آمال أبنائها بما يتفق مع ميولهم ويرضي قيمهم ويحقق أهدافهم" [٢]، فما دامت المجتمعات تختلف عن بعضها بعضاً، فأبطالها كذلك يختلفون.

ولمعرفة هؤلاء الأبطال في كل مجتمع لابد من "الوقوف على أحوال الشعوب، ومعرفة خصائصها، ودراسة أنماط سلوكها الاجتماعي، والتعرف على حياة إنسانها الذي استغرقته فطرتها البدائية، واستحوذت على حياته طقوسها التي مارسها" [٣]، ولا بد أيضا من معرفة القيم الإنسانية التي يقدسها المجتمع، والتي تمثل "جداول تصب في النهر الكبير وهو البطولة، أو تظهر كأنما تُستمد من الينبوع الكبير وهو البطولة" [٤]. وبما أننا نسلط الضوء على صور البطولة في العصر الجاهلي، لابد من تسليط الضوء على أبرز جوانب هذا العصر.

لقد كان المجتمع الجاهلي في غالبيته مجتمعا بدويا، يأنف من الزراعة والصناعة، ولا يقدر على تكاليف التجارة، لذا اعتمدوا في "حياتهم على حيواناتهم من الخيل والإبل والغنم... يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويتخذون من أشعارها، وأصوافها، وأوبارها ملابسهم، وخيامهم، وأثاث بيوتهم، ... وكانت وسيلة الانتقال لهم في الصحراء الواسعة" [٥]، لذلك كان همهم في حياتهم المحافظة على هذه الحيوانات لكي يحافظوا على استمرار حياتهم.

تمثلت هذه المحافظة في توفير الطعام لها من خلال التنقل والترحال في أنحاء الجزيرة العربية بحثا عن الأماكن التي يوجد فيها الماء والكلأ، وهذه الأماكن كانت قليلة بسبب فقر الصحراء وجدبها، مما دفع القبائل للتسابق على انتقاء هذه الأماكن واحتلالها.

---

[١] خالص، صلاح، (١٩٥٩). حول البطولة في الأدب العربي بعد ظهور الأسلام، مجلة الآداب، (١)، ص١٤.

[٢] أبو السعود، البطولة بين الأدبين العربي والإنجليزي، ص٨.

[٣] الفيسي، نوري حمودي، (١٩٨٢). البطل في التراث، بغداد، المجمع العلمي العراقي، ص٩.

[٤] الحوفي، البطولة والأبطال، ص٥٣.

[٥] الجندي، علي، (١٩٨٩). شعر الحرب في العصر الجاهلي، القاهرة، دار الفكر العربي، ص١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت القبائل تدافع عن هذه الحيوانات أيضا من الغزو المفاجيء، لأن القبائل الفقيرة التي لا تملك ثروة حيوانية تعتاش عليها، ولا تضمن مصدرا ثابتا لرزقها، سرعان ما يتحول أفرادها إلى أسود جائعة ترتكب أي جريرة لتسد جوعها وعطشها.

أما المجتمع الحضري فكان يعيش على ما تنتجه الأرض من زراعة، وما يشتغلون به من تجارة، فحياتهم أيسر من حياة البدو، لذلك كان "البدوي يرى في الحضري فريسة شرعية في سبيل الحياة، والحضري ينزل البدوي منزل الوحش غير المقدور عليه" [١]، مما جعل حياة الحضري دائما في خطر مستمر، يتوقع هجمات البدوي عليه في كل لحظة، فكان في تأهب وحذر دائم.

هذه الحياة المتقلبة حولت "الجزيرة العربية إلى ما يشبه ساحة حربية تقتتل فيها العشائر والقبائل، ففي كل جانب يتصارع الأبطال، وتُشهر السيوف، وتلمع الرماح، وتصوب النبال، وتدق الأعناق، وتسيل الدماء" [٢]، من أجل الحصول على الكلأ والمرعى أو للاستيلاء على أكبر قدر من الغنائم والأنعام، إلى أن "أصبح سفك الدماء سنة من سننهم، وغريزة من غرائزهم، فهم لا يصبرون عليه، وهم دائما عطّاش لرؤيته" [٣]. فالحرب بأشكالها "كانت محورا من محاور الحياة العربية قبل الإسلام لأن العرب كانوا من خلالها يحققون وجودهم ويحافظون على مواقعهم"[٤].ويعبر درَيد بن الصمة عن هذا الوضع السائد، قائلا:

يغار علينَا واترين فيشْتَفَى بِنَا إن أُصِبنا أو نُغِير على وتْر

فَسمنا بِذاك الدهر شَطْرين بينَنَا فما ينْقَضِي إلا ونَحن على شَطْر [٥]

لذلك فرضت البطولة الحربية نفسها على العربي في الجاهلية، لأن الحرب "أكبر ميدان لتدريب الفرسان، فيها يتقوم الضعيف، ويشتد ساعده، ويقوى عوده ليكون أهلا للنزال إذا التحمت المعارك، واشتدت المنازعات، وليذود عن حماه، ويدافع عن الحقيقة، ويصون العرض، ويرفع

---

[١] ماجد، عبدالمنعم، (١٩٨٢). التاريخ السياسي للدولة العربية، (ط٧)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص٤٦.

[٢] ضيف، البطولة في الشعر العربي، ص١٧.

[٣] المصدر نفسه، ص١٩.

[٤] الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص١١٠.

[٥] المرزوقي، أحمد بن محمد، (ت٤٢١هـ). شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ط١، ج٢، (تحقيق غريد الشيخ)، دار الكتب العلميـة، بيروت، ٢٠٠٣، ص٥٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسم القبيلة عاليا في مجالات المجد والرفعة والسؤدد" [١]، فكان لزاما عليه أن يتفوق فيها، كي يحافظ على حياته وبقائه.

فكانت البطولة الحربية أولى البطولات العربية في العصر الجاهلي، لكنها لم تكن الوحيدة، فهناك "بعض البطولات أحق بالتمجيد والإكبار من بطولة الحرب والقتال لأن بطولة الحرب قد تكون في العدوان الغادر، لا في الدفاع المشروع، وقد تكون وليدة الظروف والملابسات أو التكيف والاضطرار، أما البطولات الأخرى فهي وليدة الاختيار، أو هي استجابة للفطرة الخاصة، والأخلاق المتميزة، والتفوق على الناس" [٢]، ومن هذه البطولات البطولات النفسية والبطولات الخلقية.

فالبطولات النفسية ترتبط بالنفس والتغلب عليها، فقد نتج عن هذه البطولات كثير من الشمائل الرفيعة، منها الحلم وهو في واقعه تغلب على ثورة الغضب والنزق والطيش، ومن ذلك الصبر على الشدائد، وهو تغلب على الهلع والفزع إزاء المصاعب واقتحام المعاطب، وما قد ينزل من الخطوب والنوائب، لذلك البطل لا يشكو بل يتجرع الغصص في صمت واحتمال، ومن ذلك الحزم وهو تغلب على التردد في الرأي قبل أن تفلت فرصته من يد الشخص، فهو يسلك الوجه الذي يجب أن يسلك، ومن ذلك الكرامة والإباء، وهي تغلب على صغار النفس وشهواتها الوضيعة وانحراف عن الغايات الدنيا إلى الغايات السامية العليا في إباء وشمم وأنفة وعزة، وأي ضيم وأي هوان دونهما الموت [٣].

أما البطولات الخلقية فترتبط بالأخلاق، وما يمتلكه الفرد من قوة في التغلب على غرائزه، ومن ذلك العفة عن كل متاع مادي، حتى وإن كان في الحرب عند جمع المغانم والأسلاب، ومن ذلك الكرم حيث يؤثر الآخرين على نفسه وبذلك يتغلب على شح النفس، ومن ذلك الوفاء بالعهد وتوفير الحماية للمستجير [٤].

لكن البطولة الحربية تُعَد وسيلة لتحقيق باقي البطولات النفسية والخلقية، فالبطل الحربي يقاتل الأعداء ويقضي عليهم "يذب بذلك عن الحرمات، ويحمي الذمار، ويدرك الثأر، ويعف عند

---

[١] القيسي، نوري حمودي، (١٩٦٤). الفروسية في الشعر الجاهلي، (ط١)، بغداد، مكتبة النهضة، ص٧٦.

[٢] الحوفي، البطولة والأبطال، ص١٠.

[٣] ضيف، البطولة في الشعر العربي، ص١٤.

[٤] المصدر نفسه، ص١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغنم، أو يأخذ ممن يملك ليقسمه على من لا يملك، ويقري به الضيف الطارق حين لا يجد له قرى، أو ليدفع عن مستجير أذى، أو يفي بذمة ويحفظ عهدا" [١]، مما جعل "البطولة الحربية مظهرا يطوي في ثناياه دلالات، ووسيلة تتحقق بها معان، وهذه الدلالات والمعاني هي التي تكون المضمون الحقيقي للبطولة" [٢].

لذلك عدت البطولات في الجاهلية متلاحمة تلاحما قويا ويكمل بعضها بعضاً، فهي جسم واحد يمثل جانبين "جانب الحرب وجانب المثل العليا، فشخصية الفارس البطل تملي عليه أن يكون إنسانا ساميا في مثله إلى جانب بطولته" [٣].

ولعل هذا يثير الدهشة عند بعض الناس، فكيف لمن يقاتل بكل شراسة وفتك أن يكون في نفس الوقت حنونا عطوفا على الضعفاء ومساعدا للمحتاجين ؟

إن الإجابة على هذا السؤال قد تكون توضيحا لسبب إعجاب المجتمعات بأبطالها، فبما أن البطل "إنسان أقرب للكمال، فلا تناقض بين بطولته وبين أن يكون رحيم القلب عطوفا على الضعفاء، رقيقا في معاملة الناس، فهو يملك قلبا كبيرا وعظيما يتسع للشجاعة والبأس وللعزيمة والمضاء، ويتسع معها للرحمة والعطف والحنان والإشفاق وغيرها من عواطف البر والإخاء" [٤] لذلك كان البطل متفوقا دائما في الحرب والسلم.

إن ما نستنتجه مما سبق أن البطولة العربية في الجاهلية قامت على ثلاثة محاور، بطولة حربية تتمثل في المقدرة القتالية، وبطولة نفسية تتمثل في الحلم والصبر والحزم والإباء، وبطولة خلقية تتمثل في العفة والكرم والوفاء.

ونحن بدورنا سنتطرق لكل بطولة من هذه البطولات على حده، مستشهدين على ذلك ببعض أبيات الشعر الجاهلي، لأن الشعر هو مرآة كل أمة "يصور واقعها الذي تعيش، ويعكس آمالها وآلامها، ويبين طموحها وأحلامها خاصة إذا كانت هذه الأمة قد تميزت بالبيان والفصاحة" [٥] كالمجتمع الجاهلي. فقد قال الجَاحِظ: "كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها، وتحصين

---

[١] الأسد، ناصر الدين، (١٩٥٩). البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي، مجلة الآداب، (١)، ص١١٧.

[٢] المصدر نفسه، ص١١٧.

[٣] الفيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص٣٠.

[٤] الحوفي، البطولة والأبطال، ص٣٣.

[٥] الشلبي، البطولة في الشعر العربي الإسلامي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مناقبها على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها" [١]، ولكن لن يكون استشهادنا بالشعر في هذا العرض كثيرا لأن هدفنا هنا فقط تأكيد معايير الفعل البطولي التي اعتمدها المجتمع الجاهلي في تسمية أبطاله، لنطبقها فيما بعد على شعر الصعاليك.

البطولة الحربية

إن البطولة الحربية تعني تفوق البطل في حركاته وسلوكه عند الحرب، وهذا التفوق يتطلب منه مهارات عديدة كي يتحقق. يتطلب منه الشجاعة والجرأة والقوة الجسدية التي تساعده في الإقدام أو صد الهجمات، ويتطلب منه أيضا عقلا ذكيا يساعده في تدبير أموره، والبحث عن الطرق التي يخرج بها نفسه من المآزق، كما يتطلب منه الخبرة الحربية التي تمكنه من التعامل مع شؤون الحرب والتفنّن بها.

لقد كانت الشجاعة أهم مقومات البطولة الحربية، فقد سماها بعض الحكماء "جسم الحرب"[٢]، لأنها تمنح البطل ثقة في نفسه فتُرسخ الجرأة في حياته، وتجعل الإقدام منهجه في الحروب، و"الشجاع الجريء في حصن من شجاعته وفي حماية من جرأته، يستعذب الموت ويسترخص القتل، وكأنه يسرع الخطو إليه، يحدوه إقدام لا يعرف المبالاة ولا الإحجام، إنما يعرف شقّ الجباه وطعن النحور وإزهاق النفوس" [٣]، لذلك قالت العرب: "الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة" [٤] ، فمن كان شجاعا اتقى شر الحروب ، ومن كان جبانا التهمته نار الحروب. لذا يتفاخر الفرسان دائما بإقدامهم وجرأتهم في القتال، كما يقول عَامِر بن الطفَيل:

لقد عَلِمتْ علْـيا هـوازن أنني	**أنَا الفارس الحامِي حقِيقةَ جعفَـر**
وقد علِـم المزنـُوقُ أني أكُـره	**على جمعِهم كـرَّ المنيح المشَهـر**
إذَا ازور من وقْع الرماح زجرتُه	**وقُلتُ له: ارجع مقْبِلاً غير مدبـِر**

---

[١] الجاحظ، الحيوان، ١م، ص٧١-٧٢.

[٢] النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، (ت٧٣٣هـ). نهاية الارب في فنون الادب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مـع استدراكات وفهارس جامعة، ٣م، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، (د.ت)، ص٢٢٠.

[٣] ضيف، البطولة في الشعر العربي، ص١٧-١٨.

[٤] النويري، نهاية الارب في فنون الادب، ٣م، ص٢٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنْـبأتُـه أن الفِـرار خَزايـةٌ على المرءِ ما لم يبل جهداً ويعذِر [١]

وهذه الشجاعة هي التي جعلت الأبطال يتمادحون بالموت قعصاً، ويتسابون بالموت على الفراش. يقول السمَوأل بن عَادِيَاء:

وما ماتَ منّا سيـد حتـْفَ أنفِـهِ ولا طُلّ منّا حيثُ كـان قتِـيلُ

تسيلُ على حد الظـباتِ نُفُوسـنَا وليستْ على غَير الظباتِ تَسِيلُ [٢]

ولعل ما يرسخ الشجاعة في قلب البطل القوة الجسدية والقوة النفسية التي يتمتع بهما، فهما ضروريتان له كي يتفوق على أقرانه، "فمهابة البطل مستمدة من تكوين جسده ومن قوة نفسه"[٣]، وقد استمد البطل الحربي في الجاهلية هذه القوى من بيئته الصحراوية، فقساوة البيئة وجدبها جعلت جسمه "حزمة من الأعصاب الحساسة والعظام الجبرة والعضلات القوية" [٤]، مما دفع الكثير من أبطال الحرب للتفاخر بهذه القوة لأنها "تبعث الهيبة والروعة في قلب من تقع عليه عينه لأول وهلة" [٥]. يقول طَرَفَة بن العَبد:

أنَا الرجلُ الضرب الذِي تَعرفُونَه خَشَـاشٌ كـَرأْس الحيةِ المتَوقـد [٦]

ما كان البطل الحربي ليتأخر عن نجدة أبناء قبيلته أو أصدقائه، فما إن يستصرخ أحد منهم حتى يطير إلى نجدته دون أن يعرف إن كان ظالما أو مظلوما، فالنجدة قانون فرضته العصبية القبلية على أبنائها سبيلاً لتماسك القبيلة وترابطها، مما جعل البطل دائما "شاكي السلاح، وحاضر العدة، معتصما بصهوة جواده" [٧]، لذلك كان الأبطال يتفاخرون بها فهي دليل على قوتهم وتماسكهم. وقد صور قُرَيطُ بن أُنَيف هذه النجدة خير تصوير، قائلا:

---

[١] الضبي، المفضل، (ت١٧٨هـ).المفضليات، ط٦، (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون)، دار المعارف، القـاهرة، ١٩٧٩، المفضلية ١٠٦، ص٣٦١-٣٦٢. (المزنوق: اسم فرسه، المنيح: قدح يستخدم في الميسر، الازورار: الميـل والانحـرف، الخزايـة: الاستحياء).

[٢] ابن عاديا، السموأل بن عريض، (ت٦٥ق.هـ). ديوان السموأل، (تحقيق عيسى سابا)، دار صـادر ، بيـروت، (د.ت)، ص٩١. (مات حتف أنفه: أي على فراشه، الضبة: حد السيف).

[٣] الحوفي، البطولة والأبطال، ص١٣.

[٤] ضناوي، سعدي، (١٩٩٣). أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، (ط١)، بيروت، دار الفكر اللبناني، ص٩٦.

[٥] القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص٩٢.

[٦] ابن العبد، طرفة، (ت٦٠ق.هـ). ديوان طرفة بن العبد، (تحقيق فوزي عطوي)، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠، ص٥٢.(الضرب: ما بين السمين والمهزول، الخشاش: الشجاع، المتوقد: الذكي).

[٧] الجبوري، يحيى وهيب، (١٩٦٨). الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي، (ط١)، بغـداد، مطبعـة المعـارف، ص٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوم إذا الشر أبدى نَاجِذَيهِ لهـم ... طَـاروا إليهِ زرافَـاتٍ ووحدانـَا
لا يسألون أخَاهم حِيـن ينْدبهـم ... فِي النّائِباتِ على ما قالَ برهانـَا [1]

لقد كان البطل الحربي ينكل بالأعداء أشد تنكيل، يتقدم إليهم دون أن يهابهم حتي يصلهم بسيفه، ويقبل عليهم والشر يتطاير من عينيه، فلا يدع لهم فرصة للراحة، ينقض عليهم بقوة وعنف، فيوجه الضربة القاصمة، ويسدد الطّعنة القاتلة، وقد كان دائم التفاخر بهذه الشراسة. يقول درَيد بن الصمة متفاخرا بقتاله قَزَارَة، واصفاً ما أصاب فرسانها مقبلين ومدبرين، مسهلين ومحزنين:

فالليوم سميتُم قَـزارةُ قَاصبِـروا ... لِوقْـعِ القَنَا تنْـزون نَزو الجنَـادِبِ
تَكُر عليهم رجلتِـي و فَوارسِـي ... وأُكْـره فيهـم صعدتِي غير نَاكِـبِ
فإن تُدبِروا يأْخُذْنَكُم فِي ظُهورِكُم ... وإن تُقْبِلُوا يأْخُذْنَـكُم فـي الترائِـبِ
وإن تُسهلُوا للخَيل تُسهلْ عليكُـم ... بِطَعنٍ كإيزاغِ المخَـاضِ الضـوارِبِ
إذَا أحزنُوا تَغْشَى الجِبالَ رجالُنـا ... كما استَوقَرتْ قُدر الوعول القَراهِـبِ [2]

لقد كان البطل يحرص على اختيار خصمه، فيفضل أن يكون من الملوك، والرؤساء، والسادة، والسراة، والأبطال، وكل من له مكانة سامية، فهم الأقوياء الذين يراهم كفوا لمبارزته، فهو لا يضيع وقته بمقارعة الضعفاء، بل يستغله في قهر الأقوياء لما تخلفه هذه المنازلات من ذكرى وسمعة طيبة عنه في أذهان الناس. لذلك كانوا يذكرون مبارزاتهم مع الأبطال في أشعارهم وينصفونهم في قوتهم لأنه كلما كان العدو قويا زاده ذلك فخرا وعزة، فظهر عند العرب فن شعري جديد يسمى المنصفات، وهي "القصائد التي أنصف قائلوها فيها أعداءهم، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء، وفيما وصفوه من أحوالهم من إمحاض الإخاء" [3]، وقد اشتهر بهذه القصائد الأبطال الفرسان. ويكثرون من الفخر بانتصارهم على الأبطال الأقوياء، يقول عَنْتَرَة بن شَداد:

ومدجـجٍ كـره الكُمـاةُ نِزالـه ... لا ممعِـنٍ هـربـاً ولا مسـتَسلِـمِ

---

[1] المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ١م، ص٢٣-٢٥.(زرافات: جماعات، وحدان: أي أفراد، ناجذيه: يقصد كـشر عـن وجهه، البرهان: الدليل).

[2] الأصمعي، عبدالملك بن قريب، (ت٢١٦هـ). الأصمعيات، ط٥، (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون)، بيروت، (د.ت)، الأصمعية ٢٩، ص١١٢.(النزو: الوثبان، الجنادب: صغار الجراد، الصعدة: يعني الرمح، ناكب: عادل، الترائـب: عظـام الـصدر، الإيزاغ: رشيش البول، القدر: المسن).

[3] الصفدي، مطاع و حاوي، ايليا، (١٩٧٤). موسوعة الشعر العربي، (ط١)، ٣م، بيروت، شركة خياط للكتاب والنشر، ص٤٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جادتْ يـداي لـه بِعاجِل طَعنـَةٍ بِمثَقـفٍ صـدق الكُـعـوبِ مقَـومِ [١]

إن البطل الحربي في الجاهلية لا يتخاذل عن أخذ ثأره، لأنه لا يرضى بالذل والعار، فالعرب "يعابون أن ينام الواحد منهم عن إدراك ثأره أو أن يقبل بالدية عن الدم أو يلجأ إلى النحيب والعويل سلاحا في التحزن على قتيله" [٢]، ويعدون ذلك ضعفاً وهواناً، إلى أن أصبح "الأخذ بالثأر أمرا مقدسا وعقيدة راسخة في نفوس رعايا القبيلة، فكان على الثائر إدراك ثأره أو الموت دونه " [٣]، لذا كان البطل دائما يحرص على تحقيق الثأر فيحرم على نفسه كل الملذات والشهوات، فلا يشرب الخمر، ولا يلمس النساء، ولا يقول من الشعر إلا الرثاء أو الهجاء إلى أن يتحقق ثأره، لأن هذه الملذات تخفف الحزن فتلهيه عن أخذ ثأره، وكان أيضا يوفر كل السبل لإدراك هذا الثأر حتى وإن تطلب الأمر منه أن يجنّد الجيش بالمال إن خذله قومه، أو عجز عن مجابهة أعدائه، كما فعل امرؤ القَيس حين جند بعض الصعاليك لتحقيق ثأره، "فالثأر لايغسل عاره إلا بالدم" [٤]، ومن عزة البطل أنه لا يرضى بدية ولا بقتل رجل واحد مقابل ثأره، بل يعمل جاهدا على قتل أكبر عدد من الرجال بفقيده، كما فعل المهَلْهِل بنَبِني بَكْر، وامرؤ القَيس ببني أسَد، وبما أن إدراك الثأر كان دليلا على عز البطل وأنفته، أصبح الشعراء الأبطال يهددون في كثير من أشعارهم بإدراكه، يقول امرؤ القَيس:

يا لهفَ هِنْـدٍ إذْ خَطِئْـن كاهِـلا تـَاللهِ لا يذْهـب شَيخـي باطِـلا

حتـى تُبيـر مالِـكـاً و كاهِـلا القـاتِـلِيـن المـلِك الحـلاحِـلا [٥]

ويقول المهَلْهِل في مناجاة أخيه كُلَيب:

خُذِ العهد الأكِيـد علـى عمـري بِتَـركِـي كُـل ما حـوتِ الديـار

وهجري الغَانِياتِ وشرب كـأس ولبـسِـي جـبـةً لا تـُسـتَعـار

ولسـتُ بِخَالِـعٍ دِرعِي وسيفِـي إلـَى أن يخـلـع الليـلَ النّهار

---

[١] البطليوسي، عاصم بن أيوب، (ت٤٩٤هـ). شرح الأشعار الستة الجاهلية، ج٢، (تحقيق ناصيف سـليمان عـواد)، دار الـشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠، ص٣٨-٣٩.(المدجج: التام السلاح، الممعن: المتباعد في عدوه، مثقف صدق: رمح صلب).

[٢] العتوم، علي، (١٩٨٢). قضايا الشعر الجاهلي، (ط١)، عمان، مكتبة الرسالة الحديثة، ص٤٠٠.

[٣] عرفه، محمود، (١٩٩٥). العرب قبل الإسلام، (ط١)، الكويت، مكتبة ابن كثير، ص٥٨.

[٤] الجبوري، الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي، ص٤٧.

[٥] السندوبي، حسن، (١٩٨٢). شرح ديوان امرئ القيس، (ط٧)، بيروت، المكتبة الثقافية، ص١٧٥.(خطئن كـاهلا: يعنـي خيلـه أخطأت بني كاهل، أبير: أهلك، الحلاحل: السيد الشريف).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلا أن تَبِيـد سـراة بكْـر فَـلا يبـقَـى لهـا أبـداً أثَـار [١]

ومن مظاهر البطولة الحربية التي يشعر البطل معها بالانتصار وإذلال العدو احتجاز أكبر عدد من الأسرى والسبايا بعد نهاية كل حرب أو غزو، فالعرب كانت "أحرص على الأسر والسبي من حرصهم على الغنائم الأخرى، لأن في الأسر والسبي إذلالا للعدو وقهرا، ولأنهم ينتفعون بالأسارى والسبايا، فهم يبادلون بهم أساراهم تارة، ويأخذون فداءهم تارة، ويستخدمون الأسرى في العمل عبيدا، ويتزوجون السبايا بغير صداق، ويستولدونهن" [٢]، فقد كان البطل يفخر باحتجازهم معبرا عن انتقامه من العدو، الذي هزم شر هزيمة، فلا يجرؤ أحد بعد ذلك على التعرض، أو التحرش به، وكأن هذا الأسر كان بمثابة التهديد لمن يفكر بمهاجمته. يقول المهَلْهِل مفتخرا بأسره لأعدائه :

فَجاءوا يهرعون وهـم أُسـارى نَفُـودهم علـَى رغْـمِ الأُنُـوفِ [٣]

ويفتخر طُفَيل الغَنَوي بسبيه نساء أعدائه وإذلالهم :

وفَتـلْنـَا سـرانَهـم جِـهـاراً وجِئْنـَا بِـالسبـايـَا و النهـابِ
سبـَايـا طَيئٍ أُبـرزن قَسـراً وأُبرِدْن القُصور مِـن الشّعـابِ
سبـايـَا طَيئٍ مِن كُـل حـي نَمـا فِي الفَـرع مِنْـها والنصابِ [٤]

بطولة الكرم

يعد الكرم من البطولات الجاهلية؛ لأن الحياة الجاهلية القاسية جعلت الإنسان يتصارع معها باستمرار ليوفر لنفسه وعائلته أسباب البقاء والحياة، فيظهر الكريم بصورة المنقذ في هذه الحياة الذي يوفر لإنسانها ما يحتاجه من رزق للبقاء، وكان لزاما بعدها أن يصبح الكريم بطلا، ذلك أن الكرم فيه معنى الإيثار، ويقال: "مآثر العرب مكارمها" [٥]، فالكريم يفضل غيره على نفسه ويتصارع مع نفسه وشهواتها "فيقمع شره نفسه، ويتغلب على شحها، ليؤثر غيره على نفسه أو يشركه في خيره" [٦].

---

[١] السندوبي، حسن، (١٩٥٤). أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام، (ط٢)، بيروت، المكتبة الثقافية، ص٢٧٣.

[٢] الحوفي، أحمد، (١٩٨٠). المرأة في الشعر الجاهلي، (ط٣)، القاهرة، دار نهضة مصر، ص٤٦٤.

[٣] شيخو، لويس، (١٩٩١). شعراء النصرانية قبل الإسلام، (ط٤)، ٢م، بيروت، دار المشرق، ص١٨٠.

[٤] الأصفهاني، الأغاني، ج١٧، ص٢٥٩.(قسرا: كرها، النصاب: الأصل).

[٥] ابن منظور، لسان العرب، مادة (كرم).

[٦] الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٣٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن تسابق الأبطال بهذه القيمة جعل منها "راية خفاقة يتنافس العرب في جاهليتهم للانضمام تحت لوائها، ومزية هامت بها النفوس" [١]، إلى أن أصبحت "سجية متأصلة في نفوسهم، فهم يلقون الضيف بالبشر والترحاب ويبذلون له أجود ما لديهم من طعام، وخير طعامهم كان لحم الإبل"[٢]، فلا يذبحون الهزيل منها أو المكسور وإنما يختارون أفضلها وأسمنها كرامة للضيف، يقول جحدر بن خَالِد:

ويجأب ضِرس الضيفِ فينا إذا شَتَا سَدِيفُ السنَـامِ تَستَرِيـهِ أصابِعـه [٣]

ولم يكن كرمهم ضيق الحدود، بل كانوا "ينزلون عن مالهم ومتاعهم وطعامهم، لمن يعرفون ومن لا يعرفون، ينفقون ذلك وهم في أمس الحاجة إليه، نفوسهم راضية بذلك" [٤]، فالأبطال لا يشعرون بالسعادة والسرور إلا إذا أدوا واجبهم على أكمل وجه، لدرجة أن "عدوهم إذا نزل فيهم استبشروا بمقدمه وأكرموا وفادته" [٥]، وإذا غادرهم رجع عدوا كما كان.

وكان كرمهم في كل وقت من السنة، لكنهم "يشيدون بالكرم إذا أجدبت الأرض، وكفت السماء، لأنه كرم في وقت تحرص النفوس فيه على البقاء والاحتفاظ بالمال" [٦]، لذلك كان من عادة العرب "امتداح الكريم السخي عندما يشتد القحط ويقل الزاد وتضيق اليد" [٧] ، يقول عَامِر بن الطفَيل مفتخرا بكرم قومه في ليالي الشتاء الباردة التي قلّ مطرها واصفر عشبها:

إِذَا سنَةٌ عـزتْ وطَـالَ طِوالُهـَا وأَقْحطَ عنْها القَطْر واصفَر عودها

وجِدنَا كِرامـاً لا يحـولُ ضيفُنـَا إِذَا جف فَـوقَ المنزلاتِ جِلِيدهـا [٨]

ومن الأمور التي كانوا يعتمدون عليها في استجلاب الضيفان لبيوتهم عندما يظلم الليل، إشعال نار القرى "نار يوقدها الجواد الليل كله في ليالي الشتاء وغيرها ليستدل بها الأضياف" [٩]،

---

[١] الخولجا، زهدي صبري، (١٩٨٤). الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، (ط١)، الرياض، دار الناصر للنشر والتوزيع، ص٢٦٦.

[٢] الجبوري، الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي، ص٦٢.

[٣] المرزوقي، شرح حماسة أبي تمام، ١م، ص٣٦٦.(السديف: الشحم، تستريه: تختاره).

[٤] دراوشه، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات، ص١٢٩.

[٥] الجبوري، الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي، ص٦٢.

[٦] الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٣١٣

[٧] عبدالرحمن، عفيف، (١٩٨١). المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي، مجلة مجمـع اللغـة العربيـة الأردنـي، ٤(١١-١٢): ص١٢٩.

[٨] ابن الطفيل، عامر، (ت١١هـ). ديوان عامر بن الطفيل، ط١، (تحقيق هدى جنهويتشي)، دار البشير، عمان، ١٩٩٧، ص٨٤.

[٩] الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ٢م، ص٨٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكانوا يوقدونها في المرتفعات لتكون أوضح وأبين، وأحيانا كانوا يوقدونها بحطب المندل الرطب ذي الرائحة الجميلة ليهتدي إليها العميان، فكلما ارتفعت هذه النار وازداد حجمها وكانت أوضح للحاير كانت دليلا على قوة كرم صاحبها. ويعبر عَوفُ بن الأحوَص عن طريقته في استجلاب ضيفه، قائلا:

ومستَنْبِح يخْشَـى القَـواء ودونَـه ... مِن الليل بابـَا ظُلمةٍ وستُورهـَا

رفَعتُ له نـَاري فَلَـما اهتَدى بِهـا ... زجرتُ كِلابِي أَن يهر عقُورهـَا [1]

كما كانوا يستعينون بكلابهم أحيانا، فإذا نام الخادم الذي يشعل النار أو انشغل عنها، فانطفأت بفعل البرد أو المطر كان الكلب سبيلهم في استجلاب الضيفان، لأن الساري في الليالي الممطرة إذا ضلّ ولم يَرَ شيئا من النيران، نبح حتى تسمعه الكلاب، فترد عليه نابحة وكأنها تناديه، فيسمع صوتها ويقصدها إلى أن يدرك بيت الكريم. يقول أحد الكرماء في كلب له:

أوصِيـك خَيـراً بِـهِ فَـإن لَـه ... خـلائـقـاً لا أزال أحمـدهـَـا

يدل ضيفي علي في غَسـق اللّيـ ... ـل إذا النـار نـام مـوقِـدهـا [2]

وأبطال الكرم لم يقتصر كرمهم على قرى الضيف فقط، "فالعربي يعتبر بذل المال قرى الضيف، وإغاثة الملهوف، ودفع الديات" [3]، فإذا جاءهم المحتاج من فقير أو أرملة، قضوا حوائجه فأطعموه وأنفقوا عليه من المال، يقول عَمرو بن شأس مفتخرا بذلك:

وإن يأتِنـا ذو حاجةٍ يافِ وسطَنـا ... مجالِس ينفِي فَضلُ أحلامِها الجهلا [4]

وإذا استنجدهم العاني ليفكوا أسره، استجابوا له وافتدوه بمالهم، فحَاتِم الطائِي يفخر بماله الذي يسخره في فك الأسرى كرما منه، قائلا:

إذَا كان بعض المـال رباً لأهِلِـهِ ... فَـإنـي بِحمـدِ اللهِ مالـي معبـد

يقَـك بِهِ العانـي و يؤْكَـلُ طَيبـاً ... ويعطـَى إذَا من البخِيـلُ المطَـرد [5]

---

[1] الضبي، المفضليات، المفضلية (٣٦)، ص١٧٦.(الذي يضل الطريق فينبح، القواء: الخالي من الأرض).

[2] الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، ص٧٠.

[3] عبدالرحمن، المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي، ص١٣٣.

[4] ابن ميمون، محمد بن المبارك بن محمد، (ت٥٩٧هـ). منتهى الطلب من أشعار العرب، ط١، ٨م، (تحقيق محمد نبيل طريفـي)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩، ص٥٧.

[5] الطائي، أبو عدي حاتم بن عبدالله الفحطاني، (ت٤٦ق.هـ). شرح ديوان حاتم الطائي، ط١، (شرحه إبراهيم الجزيني)، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٨، ص٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل كان كرمهم يشمل كل ذلك، حيث سخروه للأعمال الإنسانية وحل الأزمات، وقد ضرب هَرِم بن سِنَان والحَارث بن عَوف أروع المثل في ذلك حين أصلحا بين عَبس وذُبيَان، وتحملا ديات القتلى لإيقاف الحرب، وقد امتدحهم كثير من الشعراء على هذا الفعل، منهم زهَير بن أبي سلُمَى في معلقته، إذ يقول:

سعى ساعِياً غَيظِ ابن مرةَ بعدمـا	تَبـزلّ ما بيـن العشِيـرةِ بِالـدمِ
فَأقْسمتُ بِالبيتِ الذِي طَافَ حولـه	رِجالٌ بنَـوه مِن قُرَيـش وجرهـمِ
يمِينـاً لِنعـم السيـدان وُجِدتُما	على كُل حـالٍ مِن سحِيلٍ ومبـرمِ
تَدارَكْتُما عبسـاً وذُبيـان بعدمـا	تَفَانَوا، ودقوا بينَهم عطـر منْشِـمِ [١]

بطولة الإباء

إن قيمة الإباء تعد من البطولات الجاهلية، فالحياة السائدة في هذا المجتمع كانت مبنية على الطبقية، وهي حياة تسهم بانتشار الذل والهوان في المجتمع، فمن استطاع رفض هذا الذل تمكن من إثبات ذاته وشخصه وسط هذا المجتمع الجائر، وأصبح من الطبقات المبجلة، أما من رضخ للضيم والذل، أصبح من الطبقات الوضيعة فيه، لذلك "بلغ حب العربي لحريته مبلغا كبيرا، حتى إذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص، وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حريته" [٢].

لقد كان العربي شديد الشعور بكرامته وحريته كما يرى أواري[٣]، ومما يؤكد هذا الرأي أن معظم الحروب في الجاهلية كان سببها رفض الضيم والدفاع عن الكرامة، فمن أسباب الحروب في الجاهلية الأخذ بالثأر، أو النجدة لمستغيث ومستجير، أو نقض لحلف دون سبب، أو الرد على أحد المعتدين، وكل هذه "الحروب والمشاجرات، والتخاصم والمنازعات، محاماة لشرفهم، وصيانة لعزهم ومنزلتهم، ومحافظة على مجدهم أن يستذل، وملاحظة على علو حسبهم أن يستذل" [٤]. لذا كنا نرى المحارب في هذه الحروب "يسترخص الحياة في سبيل دفع المهانة والذل، يحارب الخصم ويقاتله قتالا انتحاريا، وهو يعلم أحيانا تفوق خصمه عليه، وذلك لدفع

---

[١] بن أبي سلمى، زهير، (ت١٣ق.هـ). شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٦، ص١٠٢- ١٠٣.(تبزل: تشقق، السحيل: الطاقة، المبرم:المفتول، دقوا: أظهروا).

[٢] أمين، أحمد، (د.ت). فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ص٣٤.

[٣] ورد الرأي في: أمين، فجر الإسلام، ص٣٥.

[٤] الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، ص١٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذل الذي يحاول أن يجعله يعيش فيه" [١]. وما يصور حرص العربي على العزة ونبذ الذل قول عَنْتَرَة بن شَداد:

لا تَسقِني ماء الحياةِ بِذلّةٍ ... بل فاسقِني بالعِز كأس الحنظل [٢]

فالضيم لا يرضى به الحر ولا العَزيز، وإنّما يرضى به الحِمَار وَوَتِد الخيمة كما كانت تعتقد العرب، يقول المتَلّمس الضَبَعِي:

إن الهوان حِمار الأهل يعرفُه ... والحر ينكِره ، والرسلةُ الأجد
ولا يقيم على خَسفٍ يراد بِهِ ... إلا الأذلان: عير الأهل والوتَد
هذا على الخَسفِ معقُولٌ برمتِهِ ... وذا يشَج فلا يبكي له أحد [٣]

لذلك كان البطل العربي لا يرضى الهوان والذل من أي أحد سواء أكان قريباً أم بعيداً، فالملوك مهما كان ظلمهم فالبطل رافض له، حتى إن كان هذا الرفض سيدخله في مجابهة حربية مع الملوك، فجَابِر بن حنَى التغْلِبي يقول في قومه: أنهم يسالمون الملوك ما سالموهم وما عدلوا، ولكنهم يقتلونهم إن جاروا، وليس قتل الملوك عندهم حراما ولا محالا، وهم بهذه الصورة أنداد الملوك ونظراؤهم، وطالما أنزلوا الحتف بالملوك الذين احتقروا قوتهم، يقول:

ألا تَستَحِي مِنا ملُوك و تَتّقِي ... محارمنَا، لا يبوء الدم بِالدمِ
نُعاطِي الملُوك السلم ما قَصدوا بِنَا ... وليس علينَا قَتْلهم بِمحرمِ
وكائِن أزرنَا الموتَ مِن ذِي تَحِيةٍ ... إذَا ما ازدرانَا أو أسف لِمأثَمِ [٤]

وكان البطل أيضا لا يرضى بذل الأقارب، فلا يستجديهم في الشدائد لأن "الأصل في القريب أن يمد يد العون دون أن يطلب منه ذلك" [٥]، فنفسه الأبية تمنعه من أن يخضع لهم، يقول متَمم بن نُوَيرَة:

ولستُ إذا ما الدهر أحدثَ نَكْبةً ... ورزءا بِزوار القَرائِبِ أخْضعا [٦]

---

[١] عبدالرحمن، المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي، ص١٣٧.

[٢] ابن شداد، عنترة، (ت٢٢ق.هـ). ديوان عنترة بن شداد، ط٣، (تحقيق فوزي عطوي)، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠، ص١١٣.

[٣] البحتري، أبو عبادة، (ت٢٨٤هـ). الحماسة، ط١، (وضع حواشيه محمود رضوان ديوب)، دار الكتب العلمية، بيـروت، ١٩٩٩، ص٣٠.(الرسلة الأجد: الناقة القوية، الخسف: النقيصة، الشج: الكسر والدق).

[٤] شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، م٢، ص١٩٠.(يبوء: يرجع، ازدرى: احتقر، أسفّ: تلهف).

[٥] دراوشة، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات، ص١٢٣.

[٦] الضبي، المفضليات، القصيدة رقم ٦٧، ص٢٦٩.(القرائب: الأقرباء، الأخضع: الراضي بالذل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتجلى أنفة العربي ونبذه للهوان والضيم فيما عرف عندهم بالاعتضاد، وهو أن يغلق الرجل بابه على نفسه، فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعا، فكان يسترخص الحياة، ويقبل على الموت مترفّعاً عن الدنايا والخساسة في طلب الرزق، فإذا ضاق على أحدهم رزقه، حمل أهل بيته إلى موضع في الصحراء فضرب عليه وعلى عياله خباء حتى يلقوا جميعهم مصيرهم. [١]

بطولة الحزم

الحزم من البطولات العربية النفسية، فالبطل لابد له من "ضبط الأمر والأخذ فيه بثقة"[٢] حتى لا تكثر هفواته فيفقد احترامه، ولكي يستمر البطل في الحفاظ على هذا الاحترام يجب أن يتدبر كل الأمور التي تواجهه ليعرف صحيحها وفاسدها قبل الإقدام عليها، وأن يكون دائما ثابتا "يواجه حوادث الحياة، مهما كان نوعها بهدوء ورصانة، فلا يستخفه الفرح ولا يقتله الترح"[٣] أي أن تكون حالته المعنوية هادئة مستقرة في كل التصرفات، وهذه الصفات تعد صفات الشخص الحازم، يقول الطفَيل الغَنَوي في الحازم:

فَـلا فَـرح بِخَـيـرٍ أَن أَتَـاه ولا جـزع مِـن الحـدثـان لاع [٤]

إن الحزم بطولة يجمل اقترانها بالشخص القوي، لأن الحزم "يهذب القوة من الطيش والنزق"[٥]، ولعل هذه الصفة هي من جعلت المجتمع الجاهلي يفرض وجود الحزم في أبطاله، حتى يكونوا أبطالا مثاليين لا يستغلون بطولاتهم الحربية القتالية في ابتداع الحروب والمشاكل.

ويتجلى حزم البطل الجاهلي "باستعمال الشدة فيما يقتضي الشدة، واللين حين يحسن اللين"[٦] ، ففي الحروب يكون شديدا لا يصرعه أحد، وفي السلم يكون لينا بالتعامل، لطيفاً في التصرفات، فكان معتدلا في تعامله مع كل موقف، مقتديا بمقولة "لا تكن صلبا فتنكسر، ولا لينا فتهصر" [٧]، لأن كمال الحزم يتمثل في ذلك.

---

[١] ابن سعد، محمد، (ت٢٣٠هـ). كتاب الطبقات الكبير، ١م، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٨، ص٤٣-٤٦.

[٢] ابن منظور، لسان العرب، مادة (حزم).

[٣] اليازجي، كمال، (١٩٧٣). في الشعر العربي القديم، (ط١)، ٢م، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ص٥٢.

[٤] الغنوي، طفيل بن عوف، (ت١٣ق.هـ). ديوان الطفيل الغنوي، ط١، (تحقيق محمد عبدالقادر أحمد)، دار الكتاب الجديد، بيـروت، ١٩٦٨، ص١١٥.(اللوعة: الحرقة).

[٥] دراوشه، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات، ص١١٨.

[٦] اليازجي، في الشعر العربي القديم، ١م، ص٤٩.

[٧] المصدر نفسه،١م، ص٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتطلب الحزم من صاحبه "مضاء العزيمة وترك التردد، وعدم التأثر بالآراء المتعددة المتضاربة" [١]، فالتردد "مرض نفسي يدل على عدم استقرار في تفكير الإنسان" [٢]، والحزم في الرأي يعطي الفرد ثقة في النفس، وسمواً في الروح، وهيبة من قبل الآخرين، ويجعل آراءه وأوامره قوية، تستوجب على من يتلقاها تنفيذها دون مغالطة، ويقول المثَقب العَبدِي في التردد بالرأي:

لا تَـقُـولَـن إذا هـا لَـم تُـرد أن تُتِـم الوعـد فـي شَيءٍ نَعـم

حسـن قَـولٌ نَعـم مِـن بعـدِ لا وقَـبِـيـح قَـولُ لا بعـد نَعـم [٣]

فأصبح البطل العربي "إذا هم بأمر فعله فلا يتردد ولا يثنيه شيء، وله عزة ماضية، وحزم وثبات على الهدف، وتلك هي الشجاعة والرجولة" [٤]، ويوضح هذا زهَير بن أبِي سلْمَى في مدح حِصن بن حذَيفَة واصفاً إياه بالحزم، يقول:

فَأقْصرن مِنْه عـن كَرِيـمٍ مـرزءٍ عزومٍ على الأمر الذِي هو فَاعِلُـه [٥]

ومن مظاهر حزم الأبطال اليقظة والحذر، "فالحازم لا يأمن عدوه على حال: إن كان بعيداً لم يأمن مغاورته، وإن كان قريبا لم يأمن مواثبته، وإن كان منْكشفاً لم يأمن استطراده وكمينه، وإن رآه وحيداً لم يأمن مكْره" [٦]، لذلك أصبح "البطل لا يؤتى على حين غرة، بل يكون دوما يقظا واعيا، فإذا أحس بالخطر بات مستعدا متحفزا" [٧]، والحذر كان سائدا في حياة الأبطال خاصة في المغازي والحروب، فكانوا يرسلون العيون والدسائس قبل الهجوم لمعرفة أحوال العدو وخِطَطِه، "فيقدِمون على بصيرة أو يرجعون إن لم يكن لهم بملاقاة خُصومهم طاقة" [٨]، وقد ذكر الشعراء ذلك كثيرا في أشعارهم، فرَبِيعَة بن مَقْروم الضبي يفتخر بعمل في طلائع جيشه، يقول:

ومربـأةٍ أوقَـدتُ جنْـح أصِيلَـةٍ عليها كما أوقَـى القَطَامِي مرقبـا

---

[١] اليازجي، في الشعر العربي القديم، ١م، ص٥٣.

[٢] الخولجا، الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، ص٢٥٢.

[٣] الضبي، المفضليات، القصيدة رقم ٧٧، ص٢٩٣.

[٤] الخولجا، الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، ص٢٥٥.

[٥] البطليوسي، شرح الأشعار الستة الجاهلية، ٢م، ص٧١.(الذي يصاب في ماله فينقص الهبات والعطايا).

[٦] ابن المقفع، عبدالله، (ت١٤٢هـ). الأدب الصغير والأدب الكبير، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص٥٢ .

[٧] الخولجا، الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، ص٢٣٠.

[٨] الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رِيشَـةَ جيـش أو رِيشَـةَ مِفْنَـبِ إذا لم يقُـد وغْلٌ مِن القَومِ مِفْنَبـَا [١]

مما جعل البطل الحازم يستخدم الدهاء والحيلة في حياته، "فالشخص الحازم هو الذي يستعين بالحيلة في مواطن الخطر" [٢]، بغرض تخليص نفسه من المآزق أو الإطاحة بأعدائه، لذلك أكثروا من فخرهم باصطناع الحيل والمكايد التي تدل على حزمهم وذكائهم.

بطولة الحلم

الحلم: "الأناة والتثبت في الأمور" [٣]، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بالعقل، ومناقض للسفه والحمق والجهل، فالحليم يحكّم عليه العقل "تملّك النّفس، وضبط الأهواء، والتّحكم بالشوارد والحركات، وهذه قوة لا تتيسر لأي إنسان" [٤]، لذلك أصبح الحلم مرتبطا بالبطل الحربي، فالقوة التي يتميز بها البطل في مواجهة الأعداء وهزمهم، كفيلة بأن تساعده في التغلب على النفس.

ولعل ما جعل الحلم بطولة جاهلية ومدعاة للفخر والإعجاب، أن العربي في ذلك العصر كان "عصبي المزاج، سريع الغضب، يهيج للشيء التافه، ثم لا يقف في هياجه عند حد معين، وهو أشد هياجا إذا جرحت كرامته أو انتهكت حرمة قبيلته، وكان إذا اهتاج أسرَعَ إلى السيف واحتكم إليه" [٥]، فمن استطاع أن يتناقض مع هذا الوضع السائد ويمسك نفسه عن هيجانها وغضبها، فهو إنسان يمتلك قوة معنوية فريدة، يمتاز ويتفوق بها عن باقي أفراد عصره، وبذلك يصبح محط إعجاب الآخرين وتقديرهم.

وما يثبت أن الحمق والغضب كان سائدا في الجاهلية، وأن أصحاب الحلم كانوا قلّة، تسمية العصر فقد أطلق عليه "العصر الجاهلي" وهذه التسمية "مشتقة من الجهل الذي هو ضد الحلم، لا الجهل الذي هو ضد العلم" [٦]. فالتفوق في القليل دائما يمنح التميز والإعجاب إن كان محمودا.

---

[١] الضبي، المفضليات، القصيدة رقم ١١٣، ص٣٧٧.(المرِبأة: الجبل الذي يربأ عليه، القطامي: الصغر، المقنب: أقل مـن الجـيش، الوغل: الذي لا خير فيه).

[٢] الخولجا، الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي، ص٢٥٢.

[٣] ابن منظور، لسان العرب، مادة (حلم).

[٤] الضناوي، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، ص١١٠.

[٥] أمين، فجر الإسلام، ص٣٧.

[٦] فروخ، عمر، (١٩٨١). العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي، (ط٢)، بيروت، دار العلم للملايين، ص٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذلك أصبح الحلم بطولة افتخار، يرى صاحبها أنها طريقه للبطولة والحمد والمجد، فقد كانت العرب تقول في الحلم: "الحلم مطية وطيئة تبلّغ راكبها قاصية المجد، وتملكه ناصية الحمد"[١]، وتعد أيضا من أشرف القيم، فقد قال أبو هلال: "ومن أشرف نعوت الإنسان أن يدعى حليماً، لأنه لا يدعاه حتى يكون عاقلاً وعالماً ومصطبِراً محتسِباً وعَفواً وصافِحاً ومحتمِلاً وكاظِماً، وهذه شرائِف الأخلاق وكرائم السجايا والخِصَال" [٢]، لذلك كان الأبطال يتفاخرون ويتمادحون ويحرصون على التّحلّي بها، يقول خَلَفُ بن خَلِيفَة مولى قَيس بن ثَعلَبة يمدح قوما بالحلم:

عِذاب على الأفْـواهِ ما لم يذُقْهـم ... عدو و بِالأفْـواهِ أسماؤُهـم تَحلـو

عليهم وقَـار الحلـمِ حتّى كأنّمـا ... وليدهـم مِن أجـل هيبتِـهِ كهـلُ

إن استَجهلوا لم يعزب الحلم عنْهم ... وإن آثَروا أن يجهلوا عظُم الجهـلُ [٣]

ويفخر متَمم بن نُوَيرَة بحلمه عند اشتداد الأمور وضياع السلم، قائلا:

حليم إذا القَـوم الكِـرام تَنَازعـوا ... فَحلّتْ حباهم واستُخِفوا مِن الجهـل [٤]

ومن أهم مظاهر الحلم العفو عند المقدرة، فهو من زكاة النفس وكرمها، وله "لذة أطيب من لذة التشفي، لأن لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي يلحقها ذم الندم" [٥]، فقد قال أحد الشعراء:

لذةُ العفْو إن نَظَـرتَ بِعين العـد ... ـل أشْفَـى مِـن لَـذّةِ الإنْتِـقَـامِ

هـذِهِ تُكْسِـب المحامِـد والأجـ ... ـر وهـذي تَـجـيء بِالآثَـامِ [٦]

وأروع مثال يضرب في الجاهلية للعفو ما جرى لقَيس بن عَاصِم المِنْقَري، "فبينما هو قاعد بفنائه محتَبٍ بكسائه، أتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف، وقيل له: هذا ابنك قتله ابن أخيك

---

[١] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٦م، ص٥٠.

[٢] المصدر نفسه، ٦م، ص٥٠.

[٣] الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ١م، ص١٠٠.(عذابهم على الأفواه: يعني طعمهم حلو في الأفواه، الكهل: كبير السن، يعزب: يبعد، آثروا: فضلوا).

[٤] هارون، عبدالسلام، (١٩٩٢). مجموعة المعاني، (ط١)، ١م، بيروت، دار الجيل، ص٢٠٤.(الاحتباء: أن يضم رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره).

[٥] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٦م، ص٥٨.

[٦] المصدر نفسه،٦م، ص٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فوالله ما حلّ حبوته حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابنٍ له في المجلس، فقال له: قم فأطلق عن ابن عمك ووَار أخاك واحمل إلى أمه مائةً من الإبل فإنها غريبة" [١].

ولعل هذا المثال يبين قيمة الحلم والعفو للمجتمعات، فهو يسهم في تماسكها، ويولد التآلف بين قلوب أبنائها، ويبعد المشاكل والأزمات، وينشر المحبة والمودة، "فهو كفيل بتصفية ذات البين واقتلاع الأحقاد والتئام الشمل" [٢] خاصة بين الأقارب لأنه يشتمل على معاني الرفق والعطف فيما بينهم، يقول حَاتِم الطائِي في الصفح عن الأقارب:

وعوراء جاءتْ مِن أخٍ فَرددتُهـا ... بسالمـةِ العينَيـن طَالِبـةً عـذْرا
ولو أنّني إذْ قَالهـا قُلْـتُ مِثْلَهـا ... ولم أعفُ عنْها أورثَتْ بينَنا غِمـرا
فَأعرضتُ عنْه وانتَظَرتُ بِهِ غَـداً ... لعلّ غَـداً يبـدِي لِمنْتَظِـرٍ أمـرا
وقُلْـتُ له عـد للأَخُـوةِ بيننـا ... ولم أنّخِذْ ما كان مِن جهلِـهِ قمـرا
لأنزع ضبـاً كامِنـاً في قُـؤادِهِ ... وأقْلِـم أظْفـاراً أطَـالَ بِها الحفْـرا [٣]

ولكن الحلم يشترط فيه شرطان ضروريان، "الأول أن يكون مصحوبا بالقدرة على البطش، والثاني أن ينتهي عند حد لا يتجاوزه، وكل حلم فسد فيه الشرطان أو أحدهما انقلب من فضيلة إلى رذيلة" [٤]، فالحليم إذا لم يظهر بعض بوادر الغضب عند صفحه، ظن الناس أن هذا الصفح بادر عن جبن وبلادة من صاحبه، وإذا رأى المعفَى عنه أن الحليم لا حد لصفحه وتسامحه تمادى في خطئه دون مبالاة لتيقنه من الصفح.

بطولة الصبر

تتمثل بطولة الصبر في "التّجلّد وعدم الجزع، يقال: صَبَرَ على الأمر: احتمله ولم يجزع، ويفيد حبس النفس وضَبْطَها عند الجزع" [٥]، ومادام الصبر فيه تحكّم في النفس وسيطرةٌ عليها،

---

[١] الدينوري، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، (ت٢٧٦هـ). عيون الأخبار، نسخة مصورة بالأوفست عن دار الكتب المصرية، ١م، الهيئـة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص٢٨٦.

[٢] العتوم، قضايا الشعر الجاهلي، ص٣٨٢.

[٣] القالي، أبو علي اسماعيل القاسم، (ت٣٥٦هـ). ذيل الأمالي والنوادر، (مراجعة لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص٦٢-٦٣.(العوراء: الكلمة أو الفعلة القبيحة، الغمر: الحقد، القمر: الحيرة، الضب: الغيظ والحقد).

[٤] البازجي، في الشعر العربي القديم، ٢م، ص١٤٢.

[5] أنيس، ابراهيم ومنتصر، عبدالحليم والصوالحي، عطية وخلف الله، محمد، (١٩٧٢). المعجم الوسيط، (ط٢)، ج١، القاهرة، مجمـع اللغة العربية، مادة (صبر)، ص٥٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن فمعناه "قريب من معنى الحلم، والفرق بينهما أن المذنب لا يَأمن العقوبة في صفة الصبور كما يَأمنها في صفة الحليم"[١]، فالبطل الحليم لابد أن يكون صبوراً، لأنهما بطولتان متلازمتان.

لقد دخل الصبر في معايير البطولة الجاهلية، "لأنه كريه الطعم مر المذاق، فالاعتصام به ليس من الهينات" [٢]، وهو كنز ثمين يصعب على الإنسان العادي أن يتحلّى به، إلا إذا كان له قوة كقوة البطل، فيتميز به ليكون إحدى سبله التي تساعده في إثبات الذات، فتجعله "للنفس غلوباً، وللأمور محتملاً، وفي الضراء متجملاً، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتَبطاً، وللحزم مؤثرا، وللهوى تاركاً، وللمشقّة التي يرجو حسن عاقبتها مستخَفّاً، وعلى مجاهَدَة الأهواء والشّهواء مواظِباً، ولبصيرته بعزمه منفذاً " [٣]، فأصبح قيمة يحرصون عليها ويتفاخرون بها، يقول لُبيد بن رَبيعَة مفتخرا بصبره:

إنّي أُقاسِي خُطُوباً ما يقُـوم لهـا ... إلا الكِـرام على أمثالِهـا الصبـر

ولا أَقُـولُ إذا ما أَزمَـةٌ أَزمَـتْ ... يا ويْـح نَفْسِـي مِما أَحدثَ القَـدر [٤]

ولا يكون صبر الأبطال فقط في حياتهم الحربية، بل يشمل كل نواحي حياتهم، فقد قالت الحكماء: "الصبر صبران: صبر على ما يكره، وصبر على ما يحب، والصبر على المكروه أكبرها وأشبهها أي يكون صاحبه مضطرا" [٥]، وكان البطل مجبراً على التّحلي بالنّوعين من الصبر لما يعودان عليه بالمنفعة والفرج، فالصبر مفتاح الفرج و"مهرب أمين من مكاره الدهر، ومنجى من شماتة الأعداء، ودواء شافي لداء الحزن" [٦]، لذا كانت العرب تقول في الصبر: "شَرَيَةٌ تُثْمِر أرَيَة" [٧].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (صبر).

(2) اليازجي، في الشعر العربي القديم، ٢م، ص١١٢

(3) ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، ص١١٠-١١١.

(4) العامري، لبيد بن ربيعة، (ت٦٦١م). شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، (تحقيق إبراهيم جزيني)، مكتبة النهضة، بغداد، (د.ت)، ص٤٧-٤٨.(الخطب: الأمر أو الشأن يسيره أو عظيمه).

(5) ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، ص١١٠.

(6) اليازجي، في الشعر العربي القديم، ٢م، ص١١١.

(7) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣م، ص٢٢٤. ومعنى المثل: أن الصبر كشجرة الحنظل التي تثمر عسلا حلواً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الصبر على ما يكره يشمل أموراً كثيرة، منها الصبر في الحرب أمام الأعداء حتى تظفر بهم، "والصبر أنجى للمحارب من الفشل" [(١)]، فالعدو إن رأى البطل صامدا لا يتزعزع مهما كان هجومه وقوته لابد أن يخضع ويتهاون، والأعشَى يرى ذلك، فقد عقد النية على الصمود أمام الأعداء واحتمال هجومهم مادام معافى، لإيمانه بأن الصبر لابد أن يقود صاحبه للظفر والفرج، يقول:

كُنْتُم تَمنون حربي غَير ظالِمكُـم ... فَالآن شَبَتْ بِجـزلٍ فَهـي تَستَعِـر

لا صلح بينَكُم ما دمتُ ذا قَـرس ... يعدو ولم يلْهِنـي سقْـم ولا كِبـر

صبراً على مضض بيني وبينَكُـم ... فَإن بالصبر يرجى الفَوز والظَّفَـر [(٢)]

ومنها الصبر على الأحزان، فالأحزان تدخل الجزع في قلب المفجوع حتى تقضي عليه، فمن لم يصبر على أحزانه تمكنت منه وأهلكته، فقد أظهر أعشَى باهِلَة في رثائه لأخيه من أمه المنْتَشِر بن وَهب حزنه ومدى جزعه لفقده، ولكنه مع ذلك يصبر ويتجلّد حتى لا تقضي عليه أحزانه، يقول:

فَإن جزعنَا فَقَد هـدتْ مصِيبتُنَـا ... وإن صبرنَـا فَإنَّا معشَـر صبـر [(٣)]

وكذلك الصبر على مصائب الدهر، ففي الجاهلية كانوا ينسبون كل خطبٍ أو مصيبةٍ تصيب الإنسان إلى الدهر، لذلك كانوا ينصحون بالصبر أمامها لعل الفرج يأتيهم بعد صبرهم فيتخلصون من هذه المصائب، والنابِغَة الجَعدِي يأمر صديقيه بالصبر أمام أحداث الدهر، قائلا:

خليلي عوجـا ساعـةً وتَهجـرا ... وأوما على ما أحدثَ الدهر أو ذَرا

ولا تَجزعـا إن الحيـاةَ ذَمِيمـةُ ... فَخِفّا لِروعاتِ الحـوادِثِ أو قَـرا

وإن جاء أمر لا تُطِيقَـان دفْعـه ... فَلا تَجزعا مِما قَضى اللهُ واصِبـرا [(٤)]

أما الصبر عما يحب فهو صبر جميل، يتقبل بسعة صدر ورحابة، وقد ضرب عَنْتَرَة بن شَداد أروع مثال لهذا الصبر، حين تذرع بالصبر واتخذه درعا ليحارب به شوق الحبيبة الذي اعتبره جيشا كبيرا يعاني في قتاله، يقول:

---

(1) البستاني، بطرس، (٢٠٠٠). الشعراء الفرسان، (ط٣)، بيروت، دار نظير عبود، ص٢٤٠.

(2) البحتري، الحماسة، ص٤٤.(جزل: موضع قرب مكة، المضض: الحرقة ووجع المصيبة، السقم: المرض).

(3) الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (٢٤)، ص٩١.

(٤) القرشي، محمد بن أبي الخطاب، (ت١٧٠هـ). جمهرة أشعار العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص٢٧٥.(تهجرا: سيرا فـي الهاجرة، ذرا، أتركا، خفّا: أسرعا، قرا: أثبتا).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لبستُ لها دِرعاً مِن الصبرِ مانِعاً ولاقَيتُ جيشَ الشوق منْفَرداً وحدِي [١]

بل كان يرى أنه ميت من هذا الحب لا محالة، إن لم يعِنْه الصبر على تحمله، فيقول:

وها أنـا ميـتٌ إن لـم يعِنـي على أسرِ الهوى الصبـر الجمِيـلُ [٢]

بطولة العفة

تتفرع العفة من البطولات الخلقية، وهي تعني "الكفّ عما لا يحل ويجمل، والكفّ عن المحارم والأطماع الدنية" [٣]، أي أنها تمثل ضبط النفس وتوجيهها والتحكم فيها بكبتها عن الأهواء والرغبات، وهذا أمر عسير بالنسبة للإنسان لأن طبيعته في الغالب تسيطر عليها "النفس البهيمية التي هم صاحبها انهماك النفس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح" [٤]، والعلّة في سيطرة هذه النفس على طبيعة الإنسان "أخذها بمجامع هواه، وإيثار الراحة له وقلة العمل" [٥]، لذلك قالت العرب: "الهوى إله معبود" [٦].

إن انتشار اللذات والمجون واللهو في العصر الجاهلي، وعدم وجود الدين أو العرف الاجتماعي الذي يحرمها، وطبيعة هذه الحياة الصحراوية الواسعة المظلمة التي تسهل على الفرد ممارسة شهواته متخفياً، جعلت العفّة من القيم البطولية التي يتفاخر بها الإنسان الجاهلي، فأول ما افتخر به الأسوَد بن يَعفُر أمام محبوبته التي قاطعته عفة نفسه عندما يشتد القحط، يقول:

قَد أصبح الحبلُ مِن أسماء مصروما بعد ائتِلافٍ و حب كـان مكْنُومـا
واستَبدلتْ خُلّـةً مِنّي وقَـد عَلِمـتْ أن لن أبيتَ بِوادِي الخَسفِ مذْمومـا
عف صليـب إذا ما جلبـةٌ أزمـتْ مِن خَير قَومِك موجوداً ومعدومـا [٧]

---

[1] عنترة، الديوان، ص٦٤.

[2] المصدر نفسه، ص٦٩.

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (عفف).

[4] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢م، ص١٣.

[5] المصدر نفسه، ٢م، ص١٤.

[6] ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ١م، ص٣٧.

[7] الضبي، المفضليات، المفضلية رقم (١٢٥)، ص٤١٨.(الحبل: الوصل، مصروم: مقطوع، الخلة: الخليل، الخسف: الذل، الصليب: الجلد على المصائب والصبور على النوائب، الجلبة: القحط، أزمت: اشتدت).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مظاهر عفة البطل الجاهلي حفظ اللسان من النميمة والغيبة، فاللسان أداة الإنسان المجردة، إن وجهها في الخير كانت نعمة له، وإن وجهها في الشر كانت نقمة عليه، وقد أوصى المهَلهِل بنيه بصون ألسنتهم، قائلا: "اتقوا زلّة اللسان، فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته، ويزلّ لسانه فيكون فيه هلاكه"[(١)]، لذا حرص البطل دائما على صون لسانه من الدنايا، يقول المثَقِّب العَبدِي:

لا تَـرانِـي رائِعـاً فِي مجالِـس ... فِي لُحومِ الناس كالسبـعِ الضـرم

إن شَر الناس مـن يكْشِـر لِي ... حِيـن يلْقَـانِي وإن غِبـتُ شَتَـم [(٢)]

ويعف البطل أيضا بحماية حليفه فلا يغدر أو يشك به، وبالقضاء على شح نفسه وطمعها، وكثيرا ما فخر الأبطال بذلك، يقول الحَادِرَة بلسان قومه:

إنا نَعِـف فَـلا نُرِيـب حلِيفَنَـا ... ونكُف شُـح نُفُوسِنَـا فِي المطْمـعِ [(٣)]

ويكون القضاء على شح النفس بأمور عديدة، منها ترك الغنائم والأسلاب عند اقتسامها بعد الحرب لمن ينتفع بها من أبناء العشيرة، يقول عَنْتَرَة لعَبلة:

هلاّ سألْتِ الخَيلَ يا ابنَـةَ مالِـكٍ ... إن كُنْتِ جاهِلَـةً بِما لَـم تَعلَمِـي

يخْبِرك من شَهِد الوقِيعـةَ أنّنِـي ... أغْشَى الوغَى وأعِف عِنْد المغْنَـمِ [(٤)]

ومنها الإعراض عن الطعام والنفس جائعة كي يهذبها فيقضي على شُحها وطمعها، ويقول أحد الشعراء في هذا:

وأعرض عن مطاعِم قَد أراهـا ... فأتْرُكهـا وفِـي البطْـن انطِـواء

فَلا وأبِيك ما فِي العيـش خَيـر ... وفِـي الدنْيـا إذَا ذَهـب الحيـاء [(٥)]

ومن أهم مظاهر العفة عند البطل الجاهلي أيضا، عفة النفس عن الشّهوة الجنسية، فالبطل يحرص على سيرته بين نساء القبيلة خاصة عند جارته، لأنه يرى أن "حرم الجوار مقدس لا

---

(1) الجاحظ، أبو عثوان عمرو بن بحر، (ت٢٥٥هـ). المحاسن والأضداد، ط١، (شرح يوسف فرحات)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧، ص٢٧.

(2) الضبي، المفضليات، المفضلية رقم (٧٧)، ص٢٩٤.(راتعا: آكلا بشره، الضرم: الشديد النهم، يكشر: يضحك ويبدي أسنانه).

(3) المصدر نفسه، المفضلية رقم ٨، ص٤٥.(نريب: يعني نغدر).

(4) عنترة، الديوان، ص١٥-١٦.(الوقيعة: الحادثة، الوغى: الحرب).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣م، ص٣٤٢.(انطواء: يقصد الجوع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يجوز خرقه وتدنيسه" [١]، فعليه أن يحميه ويدافع عنه فيتعفف عن جارته فلا يزورها في غياب زوجها، ولا يرفع نظره إليها إذا مرت أمامه حتّي تدخل بيتها، ولا يختلس النظر إليها إذا انكشف سترها، يقول عَنْتَرَة بن شَدَاد:

أَغْشَى فَتَـاةَ الحـي عِنْد حلِيلِهـا وإذا عَزا فِي الجيش لا أَغْشَاهـا

وَأَغُض طَرفِي ما بدتْ لِي جارتِي حتى يـُواري جارتِـي مأْواهـا [٢]

ولا يعني هذا أن ينقطع عنها نهائيا، بل كان يسعى جاهدا لتلبية كل احتياجاتها في غياب زوجها دون أن تُرخي عليه ستور بيتها، يقول حَاتِم الطائِي:

وما تَشْتَكِينِي جارتِـي غَير أَنهـا إِذَا غَاب عنْها بعلُها لا أَزورهـا

سيبلغُهـا خَيري ويرجِـع بعلُهـا إليهـا ولم يقْصر علي ستُورهـا [٣]

بطولة الوفاء

إن الوفاء من البطولات الخلقية ويعني "الإتمام" [٤]، ويعد من الفضائل التي يقدسها الإنسان لما له من آثار حميدة في حياة المجتمعات "ينمي الفضيلة بين أبنائها، فهو انتصار للإنسان على نفسه بعد صراع مرير يتجاذب طرفيه عاملان هما الخير في الإنجاز والشر في الخلف والغدر، فمن استطاع أن يغلب الجانب الأول فهو البطل الحري بالإكبار" [٥]، ويساعد المجتمعات أيضا في القضاء على أعدائها ويعمل على توحيدها، فيجعلها قوية متماسكة، تشيع بين أفرادها المحبة والمودة. لأن قوة المجتمعات تعتمد على نبذ الرذائل والتمسك بالقيم الإنسانية، فتقوى داخليا وتكون أكثر استعدادا لمجابهة الأعداء، بخلاف الغدر الذي ينشر الكراهية والبغضاء، فيفكك المجتمعات قاطعا أواصر المودة والمحبة بين أفرادها، فلا تستطيع الصمود أمام أعدائها. [٦]

لذلك اهتم العرب في الجاهلية بالوفاء وتقديره، "فإذا وعد أحدهم وعدا أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهدا أن ينصروه.

---

[١] البستاني، الشعراء الفرسان، ص١٠٣.

[٢] عنترة، الديوان، ص١٠٢. (أغشى: أزور، أغض طرفي: أكسر عيني، المأوى: المنزل).

[٣] الطائي، حاتم بن عبدالله. ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره، (تحقيق عادل سليمان جمـال)، مطبعـة المـدني، القـاهرة، ١٩٧٥، ص٢٤٤.(البعل: الزوج، قصر الستر: إرساله).

[٤] ابن منظور، لسان العرب، مادة (وفي).

[٥] زلط، عبدالرحيم محمود، (١٩٨٤).البطولة النفسية والشمائل الإنسانية في الشعر الجاهلي، الدارة، (٣): ص١٥٣.

[٦] دراوشة، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات، ص١٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم، حتى يلحقوا به عار الأبد"[١]. لدرجة أنهم ربطوا الحرية بالوفاء وإتمام الوعود، فالعرب تقول: "أنجز حر ما وعد"[٢].

مما جعل أبطال الجاهلية يعتدون به اعتدادا عظيما لأنه من القيم المثالية في عصرهم، حتى وإن كلفهم ذلك مسؤوليات جسيمة ومشاكل عديدة، فالبطل يحرص على إتمام وعوده لأنها دليل على قدرته واستطاعته فلا يخالف أو يبدل قوله، يقول الأعشَى مفتخرا:

وإنّـي إذَا ما قُلـتُ قَـولاً فَعلتُـه ... ولسـتُ بِمِخْلافٍ لِقَولـي مبـدل [٣]

وحماية المستجير من الوفاء لأن المجير يقطع على نفسه وعدا بتوفير الحماية، فلكي يكون وفيا لابد أن يتم وعده، "فكان العرب يحرصون على جارهم حرصهم على شرفهم"[٤] مما جعل الأبطال "يجيرون من يأوي إليهم من الضعفاء والفقراء، حتى ولو كانوا غرباء خلعتهم عشائرهم لخلاف نشأ بينها وبينهم أو مظلومين أكلت حقوقهم، أو رجالا من العشيرة أصيبوا في أموالهم أو نساء ذوات أطفال لا راعي لهم"[٥] فيكرمونهم ويعزونهم ويقدمون لهم كل سبل الراحة والعون، بل يساوونهم في كل الحقوق التي لهم والواجبات التي تجب عليهم، ويوضح يَزيد بن حِمَار السكُونِي هذه البطولة مادحا بني شَيبَان بحمايتهم للجار ومساواتهم له بأبناء القبيلة حتى إنه لينسى أنه جار لهم، قائلا:

ومِن تَكرِمِهـم في المحـل أنّهـم ... لا يعلم الجـار فيهم أنـه الجـار
حتّى يكُون عزيـزاً فِي نُفوسِهـم ... أو أن يبِيـن جميعـًا وهو مخْتَـار
كأنه صـدع فـي رأس شاهِقَـةٍ ... من دونِـه لِعتَـاق الطير أوكـار [٦]

إلى أن أصبحت حماية الجار والمحافظة علية جبلّة وقانونا يلتزمون به، يقول عَوف بن عَطِية:

---

[١] ضيف، تاريخ الأدب العربي:العصر الجاهلي، ص٦٩.

[٢] ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ٣م، ص١٤٩.

[٣] الأعشى، أبو بصير ميمون بن قيس، (ت٧هـ). ديوان الاعشى، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص١٤١.

[٤] الجبوري، الجاهلية مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي، ص٦٧.

[٥] العتوم، قضايا الشعر الجاهلي، ص٣٨٠.

[٦] المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ١م، ص٢٢١.(يبين: يفارق، الصدع: ولد الوعل، الشاهقة: قمة الجبل، الوكر: عـش الطير في الجبل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَأمنَـع جـَارِي مِـن المجحِفـَا تِ، والجار ممتَنِـع حيثُ صـارا [١]

ومن الوفاء بالوعد أيضا الأحلاف والمحافظة عليها، فكان "للحليف في المجتمع الجاهلي حقوق وعليه واجبات، ولا يجوز فض الحلف أو الغدر بالحليف مادام الحلف معقودا، وحرص المجتمع حينذاك على المحافظة على قداسة الحلف، واعتبر المساس به عارا يلحق القوم" [٢]، لذا كان الأبطال يفخرون بحماية الحليف والمحافظة عليه، يقول عَبِيد بن الأبرَص:

إِنـا لَـعمـــرك لا يـُضـَـا م حـلِـيفُنـَا أَبـَـداً لَـدينـَـا [٣]

ولا تقتصر بطولة الوفاء على إتمام الوعود، بل لها مظهر آخر يتمثل في حفظ الأمانة وصونها، فالبطل يتحمل الكثير من أجل الحفاظ عليها وإيصالها لصاحبها، ولصعوبة ما يواجه البطل من متاعب ومقاومة في صون هذه الأمانة كان يتفاخر ويتباهى بحفظها، وكان السمَوَأل بن عَادِيَاء أروع مثال ضرب في الجاهلية للوفاء بحفظ الأمانة، "وكان من وفائه أن امرأَ القَيس بن حجر الكِنْدِي لما أراد الخروج إلى قيصر ملك الروم استودع السموأل دروعاً له، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموأل، فأخذ الملك ابناً له ذكروا أنه كان متصيداً، فصاح به: يا سموأل هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي وأنا أحق بميراثه فإن دفعت إلي الدروع وإلا ذبحت ابنك. فقال: أجلني، فجمع أهل بيته وشاورهم، فكلّ أشار عليه أن يدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه، فلما أصبح أشرف فقال: ليس إلى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع! فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه، وكان يهوديا، فانصرف الملك، ووافى السمَوَأل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرئ القَيس وقال في ذلك:

وفَيـتُ بِـأَدرعِ الكِنْـدِي، إِنّـي إِذَا مـــا خَان أَقْـــوام وفَـيـتُ

وقَـالُـوا عِنْـــده كَنْـز رغِيـب فَـلا وَأَبِيـك أَغْـدر ما مشَيـتُ

بنَى لِي عادِيـَا حِصنـاً حصِينـاً وبِـئْراً كُلمـا شِئْـتُ استَقَيـتُ "[٤]

وفي نهاية هذا المبحث يتضح من الصور البطولية السابقة أن البطولة في الجاهلية كانت بطولة واقعية مرتبطة ارتباطا وطيدا بطبيعة المجتمع، ونابعة "من أعماق الإنسان ومن أغوار

---

[١] الضبي، المفضليات، المفضلية رقم(١٢٤)، ص٤١٣. (المجحفات: الخلال التي تذهب بالمال).

[٢] عبدالرحمن، المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي، ص١٤٣.

[٣] ابن الأبرص، عبيد، (ت٢٥ق.هـ). ديوان عبيد بن الأبرص، ط١، (تحقيق حسين نصار)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القـاهرة، ١٩٥٧، ص١٣٨.(يضام: يظلم).

[4] البيهيقي، ابراهيم بن محمد. المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص١٠٨.(الكنز الرغيب: الكثير).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجوده البشري، وتسعى معه على الأرض، وتدرج في المجتمع من حوله، وتستمد وجودها وحياتها ومظاهرها من واقع الناس يرونها ويسمعون عنها فيعرفونها ولا ينكرون منها شيئا"[١].

كما أنها دليلٌ كافٍ على أن البطل الجاهلي إنسان سوي، لا يعلو على الحدود البشرية كالبطل في العهود الأولى، والذي أشبه ما كان بالأسطورة لما له من قوة خارقة، حيث اعتقد معاصروه أنه يستمد قوته من ينابيع إلهية، فنظروا إليه على أنه رمز لقوى غيبية مجهولة مقدسة، فاندفعوا لعبادته خوفا من غضبه.[٢]

ولابد من الأخذ بعين الاعتبار أن المظاهر التي عرضت في كل بطولة من البطولات السابقة لا تعتبر شاملة لكل مظاهرها، فهناك بعض المظاهر التي لم نتطرق إليها حتى لا يكون الحديث مكررا عندما نبحث عنها في شعر الصعاليك في الفصول اللاحقة.

---

[1] الأسد، البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي، ص١١٧.

[2] ضيف، البطولة في الشعر العربي، ص٩-١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثالث: موقف المجتمع الجاهلي من البطل

لقد كان المجتمع في الجاهلية يكن كل الاحترام والتقدير لأبطاله، فمنزلة البطل لا يصل إليها الفرد إلا بعد معاناة و"جهاد ومغالبة للهلاك، وتحد للأخطار، وإقدام يبعث الدهش والإعجاب" [١]، والبطل يتحمل الصعاب المحيطة به من أجل تحقيق أهدافه التي تخدم المجتمع من حوله، ويتغلب على غرائزه لكي يؤثر غيره على نفسه، وبهذه التضحيات استطاع البطل أن يفرض احترامه وتقديره على الآخرين، لدرجة أن المجتمع أصبح ينظر إليه على أنه "الرجل الكامل المثالي الذي يمكن أن يستغل كذخيرة في وقت الخطر" [٢] .

وقبل توضيح موقف المجتمع من البطل لابد من معرفة النظرة التي كان المجتمع ينظر بها إلى الأبطال، وهي النظرة التي رسمت وشكّلت موقف المجتمع تجاه البطل، فقد كان المجتمع ينظر إلى البطل على أنه "الشخص المخلّص والمنقذ" [٣] من كل الأزمات والمشاكل، وكتب الأدب زاخرة بمواقف توضح هذه النظرة، منها ما يوضح موقف القبيلة، والمرأة، والضعيف من البطل، فموقف القبيلة برز في إحدى غارات زَيد الخَيل (بطل الحرب والنجدة)، حيث "أغار زَيد على بني فَزَارَة وَبَني عبدِاللهِ بن غَطَفَان ورئيسهم يومئذ أبو ضَب، ومع زَيد الخَيل من بني نَبهَان بطنان يقال لهما: بَنُو نَصر وبَنو مَالِك، فأصاب وغنم، وساقوا الغنيمة، وانتهى إلى العلم، فاقتسموا النّهاب، فقال لهم زَيد: أعطوني حق الرياسة، فأعطاه بنو نَصر، وأبى بنو مَالك، فغضب زَيد، وانحدر إلى بني نَصر، فبينما بنو مَالِك يقتسمون إذ غشيتهم فَزَارَة وغَطَفَان، وهم حلفاء، فاستنقذوا ما بأيديهم. فلما رأى زَيد ذلك شد على القوم فقتل رئيسهم أبا ضَب، وأخذ ما في أيديهم، فدفعه إلى بني مَالِك، وكانوا نادوه يومئذ: يا زَيدَاه أغثنا ! فكر على القوم حتى استنقذ ما في أيديهم، ورده" [٤].

أما موقف المرأة فقد اتضح بدفاع عَمرو بن كُلْثُوم (بطل الإباء والنجدة) عن كرامة أمه هِنْد بنت المهَلهِل بن رَبِيعَة، التي لم ترض بالذل من الملوك، فقد قال عَمرو بن هنْد ذات يوم لندمائه: "هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم ! أم عَمرو بن كُلثُوم.

---

[١] الحوفي، البطولة والأبطال، ص١١.

[٢] عويضات، نايف حمدان أحمد، (٢٠٠٠). صورة البطل في شعر عنترة بن شداد العبسي، رسالة ماجستير غير منـشورة، جامعـة القدس، القدس، فلسطين، ص٤.

[٣] هوك، سيدني، (١٩٥٩).البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابري، بيروت، المؤسسة الأهلية، ص٢٢.

[٤] الأصفهاني، الأغاني، ج١٧، ص٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال: ولِمَ؟ قالوا: لأن أباها مهَلهل بن رَبِيعَة، وعمها كُليب بن وَائِل أعز العرب، وبَعلها كُلثُوم بن مَالِك أفرس العرب، وابنها عَمرو وهو سيد قومه. فأرسل عَمرو بن هِنْد إلى عَمرو بن كُلثُوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه أمه. فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة بني تَغْلِب، وأقبلت لَيلَى بنت مهَلهل في ظُعن من بني تَغْلِب. وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عَمرو بن كُلثُوم على عَمرو بن هِنْد في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق. وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تُنحي الخدم إذا دعى بالطرف وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف. فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لِتَقُم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها وألحت . فصاحت ليلى: وَاذلاه ! يا لتغلب ! فسمعها عَمرو بن كُلثُوم فثار الدم في وجهه؛ ونظر إليه عَمرو بن هند فعرف الشّر في وجهه؛ فوثب عمرو بن كُلثوم إلى سيفٍ لعمرو بن هند معَلقٌ بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عَمرو بن هِنْد، ونادى في بني تَغْلب، فانتهبوا ما في الرواق وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة" [١].

وموقف الضعيف مطابق للموقفين السابقين، وسنقتصر بالضعيف هنا على الأسير، الذي تكبله قيود الأسر، فقد "خرج حَاتِم الطائِي (بطل الكرم) في الشهر الحرام يطلب حاجة فلما كان بأرض عَنَزَة ناداه أسير لهم يا أبا سفانة أكلني الإسار والقمل. فقال: ويحك ما أنا في بلاد قومي وما معي شيء وقد أسأت بي إذ نوهت باسمي وما لك مَتْرَك. ثم ساوم به العَنَزيين واشتراه منهم فخلاه وأقام مكانه في قيده حتى أتى بفدائه فأداه إليهم" [٢].

وبعد التأكد من نظرة المجتمع الجاهلي إلى أبطاله وكيف يلجأ إليهم في وقت الحاجة دون اللجوء إلى غيرهم، يمكن إدراك مدى الاحترام والتقدير والتمجيد الذي كان يقدمه المجتمع الجاهلي لهؤلاء الأبطال وهم على قيد الحياة، فقد تنوع هذا الاحترام في صور متنوعة شتى.

فقد كانت القبيلة تختار الأشخاص المناسبين لسيادتها من هؤلاء الأبطال، فمن توافرت فيه البطولات الجاهلية كان أهلا لسيادة قومه، وقد وضح البَغْدَادِي في خزانته شروط السيادة في الجاهلية وما ينبغي أن يتحلّى به الفرد من بطولات كي يحوز عليها، قائلا: " كانت العرب تسود على أشياء، أما مضَر فتسود ذا رأيها، وأما رَبِيعَة فمن أطعم الطعام، وأما اليَمَن فعلى النسب،

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١١، ص٥٦.

[٢] الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج١، ص٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ستّ خصال: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم والتواضع، والبيان....، فقد قيل لقَيس بن عَاصِم بِمَ سدت قومك؟ قال: ببذل الندى، وكفّ الأذى، ونصرة المولى، وتعجيل القرى. وقد يسود الرجل بالعقل، والعفّة، والأدب، والعلم.. "[١]، ولعل اختيار القبائل في الجاهلية الأبطال لسيادتها، لأنها "تجد فيهم الصورة الفذة، والقدرة الغريبة والإرادة الصلبة في حسم الأمور لصالحها" [٢]، فهم القادرون على "النهوض بقيادتها وتوجيهها في حروبها، وإكرام ضيفها وإعانة الضعيف والمعوز من أبنائها، والفصل في الخصومات بين أفرادها، واتّساع صدرهم لرأي كل فرد في القبيلة" [٣]، ولقد ذكر حَاتِم الطائِي في شعر له أن بطولته في الحلم والجود والنجدة هي التي مكنته من سيادة قومه، قائلا:

فَأصبحتُ فِي أمر العشِيرةِ كُلهـا ... كَذِي الحِلمِ يرضِي ما يقُولُ ويعرفُ
وذَاك أنّـي لا أُعـَادِي سراتَهـم ... ولا عن أخِـي حرلتهـم أتَنَكّـفُ
وأنّـي لأعطِي سائِلِـي وأربـمـا ... أُكلّـفُ ما لا أستَـطِيـع فأكلـفُ
وأنّي لمذمـوم إذا فِيـل حلتِـم ... نَبـا نبـوةً إن الـكَّريـم يعنـّفُ [٤]

ويوضح عَامِر بن الطفَيل أنه لم يَسد في قومه بالوراثة وإنما ساد لبطولته وفروسيته، قائلا:

إنّي وإن كُنْتُ ابن سيـدِ عامِـرٍ ... وفَارسهـا المشْهود فِي كُل موكِبِ
فَما سودتْنِي عامِر عـن وراثَـةٍ ... أَبـى اللهُ أن أسمـو بِـأُم ولا أبِ
ولكِننـِي أَحمِي حِمـاها وأتّقِـي ... أَذَاها وأرمِي من رمـاها بِمنكِـبِ [٥]

لقد كانت القبيلة أيضا تحكّم هؤلاء الأبطال في خصوماتها لما لهم من قدرات بطولية جعلتهم يتّسمون "بأصالة الرأي، وبعد الغور، ودقّة التفكير، والنّظر الصائب، والفهم الصحيح للحياة وأحداثها وتجاربها" [٦]، بل كانوا يمتلكون أيضا الشجاعة والقوة التي تساعدهم على إنصاف الحق ونشر العدالة دون الخوف من أحد، من هؤلاء الأبطال الذين احتكموا في الجاهلية،

---

[١] البغدادي، خزانة الأدب واب لباب لسان العرب، ٣م، ص٩٠.

[٢] القيسي، البطل في التراث العربي، ص١٧.

[٣] فالح، البطل في شعر الحماسة، ص٢٤٥.

[٤] حاتم الطائي، شرح الديوان، ص٧١-٧٢.(السراة: الأسياد، النبوة: المرة الواحدة).

[٥] عامر بن الطفيل، الديوان، ص٦٠-٦١.(أسمو: أرتفع في الشرف، المنكب من القوم: عريفهم أو عونهم).

[٦] خفاجي، عبدالمنعم، (١٩٨٦). الشعر الجاهلي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ص١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"عَامِر بن الظرب العَدوَاني" [١] فكانت تقرع له العصا، وكذلك "الأقْرَع بن حَابِس" [٢]، أما بعض الأبطال فاقتصر احتكامهم في خصومات أقوامهم، فقد احتكمت "رَبِيعَة لعبدِالله بن عَمرو بن الحَارث بن هَمام ، واليَمَن لرَبِيعَة بن مخَاشِن، وهو ذو الأعواد" [٣]، وغيرهم الكثير.

وكانوا أيضا يطلقون على الأبطال بعض الألقاب التي تدل على أفعالهم البطولية، ولعل قصدهم من هذه الألقاب ذيوع صيت الأبطال وإشهار بطولاتهم، أو التسهيل على المحتاجين في استدلالهم على الأبطال مباشرة كل حسب حاجته، فالجائع والعاني يقصدان البطل الكريم، والخليع والمشرد يقصدان البطل المجير الوفي، والمطارد الخائف يقصد الشجاع....، ومن هذه الألقاب المجِير على الملوك، ومجِير الجَرَاد، ومجِير الذباب، ومجِير الذئْب، ومجِير الطير، وشَارب الدمَاء، وحَامِي الحِمَى، وحَامِي الظعِينَة، وغَيث الضريك، وذو الحِلم وذو الرمحَين، إلى غير ذلك من الألقاب، وقد توحي هذه الألقاب إلى أن بعض الأبطال كان لهم خصوصية في بعض البطولات، أو أنهم قد أكثروا من المبالغة في الأفعال البطولية فلحقت بأسمائهم.

إن احترام هؤلاء الأبطال وتقديرهم يزداد وينبع من قلوب أبناء القبيلة كلما زادت أفعالهم البطولية، لذلك خصت القبيلة الأبطال بالمدح على لسان شعرائها ، لأنه "صادر عن عاطفة صادقة وإكبار لما يتحلى به الممدوح من خلال حميدة ومزايا رفيعة تدفع الشاعر إلى تقديرها وإذاعتها" [٤]، فالمدح "فن الثناء والإكبار والاحترام" [٥]، استخدمته القبيلة لتعظيم وإكبار أبطالها الذين أسدوا لها خدمات جليلة ببطولاتهم، إلى أن أصبح الشعر الجاهلي زاخرا بمدح الأبطال، من هذه المدائح قول زهَير بن أبِي سلْمَى في بطل الكرم هَرم بن سِنَان:

بل اذْكُرن خَير قَيس كُلها حسـباً ... وخَيرها نَائِـلاً، وخَيرهـَا خُلُقَـا
الفائِـد الخَيلَ منْكُـوباً دوابِرهـا ... قَد أُحكِمتْ حكَمـاتِ القِد والأبقَـا
وذَاك أحـزمهـم رأيـاً إذَا نَبـأ ... مِن الحوادِثِ عادى الناس أو طَرقَا
قَد جعلَ المبتَغُون الخَير فِي هرِمٍ ... والسائِلُـون إلـَى أبوابِهِ طُرقَـا
هذَا، وليس كمن يعيـا بِخُطتِـهِ ... وسطَ النـدِي: إذَا ما نَاطِقٌ نَطقَـا

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص٨٧.

[٢] التيمي، أبو عبيدة معمر بن المثنى، (ت٢٠٩هـ). كتاب الديباج، ط١، (تحقيق عبدالله بن سليمان الجربوع وعبدالرحمن بن سليمان العثيمين)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩١، ص١١٥-١١٦.

[٣] الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص٨٧.

[٤] بو ملحم، علي، (١٩٧٠). في الأدب وفنونه، صيدا، المطبعة العصرية، ص١٠٦.

[٥] الدهان، سامي، (١٩٦٨). المديح(سلسلة فنون الأدب العربي)، (ط٢)، القاهرة، دار المعارف، ص٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لو نَـالَ حـي مِن الدنْيا بِمنْزلَـةٍ أَفْـقَ السماءِ لنَالَـت كَفه الأُفُقَـا [١]

وقول المسَيب بن عَلَس يمدح مَالِك بن سَلْمَة الخَير على بطولته:

كَـفـاه مخْـلِقَـةٌ و متْـلِقَـةٌ وعَـطَـاؤُه مـتَخَـرقٌ جـزلُ
يهـب الجِيـاد كَـأنهـا عسـب جـرد، أَطـَار نَسِيـلهـا البُـلُ
للضيفِ والجـَار الغَرِيبِ وللطـ ـفْـل التـريـكِ ، كَـأنـه رألُ
ولقـد تَنَـاولـَنِي بنـائِـلِه فَـأصابنِـي مِـن مالِـهِ سجـلُ [٢]

وقد تتطور هذه المدائح لتتحول إلى فخر قبلي، فكل فرد ينتمي لقبيلة قوية مليئة بالأبطال يحقّ له أن يفخر بنفسه وقبيلته لأنه يستمد العزة والقوة من قوة قبيلته، فالقبيلة التي يكثر أبطالها تقوى بين القبائل وتزداد هيبتها فلا يجرؤ أحد على التعرض لها أو لأفرادها ومصالحها، لذا تحرص القبيلة دائما على زيادة عدد أبطالها بتربية أبنائها على البطولات لأنها تعتز بالبطل "وتتخذه عدة لها في الشدائد، وعمادا تبني عليه صرح مجدها وعظمتها" [٣]، ومن مفاخر الشعراء بقبائلهم ما قاله المرَقش الأكْبَر:

إنا لنُرخِص يوم الـروع أَنْفُسنَـا ولو نُسام بِها فِي الأمـن أُغْلِينَـا
بِيض مفَارِقُنـَا تَغْلِـي مراجِلُنَـا نُأسـو بِأَمـوالِنـَا آثـَار أَيدِينـَا
إنّي لِمـن معشَرٍ أَفْنَـى أَوائِلهـم قِيلُ الكُمـَاةِ: أَلا أَين المحامونـَا
لو كَان فِي الألْفِ مِنا واحِد فَدعوا من فَارس ؟ خَالهم إيـاه يعنُونَـا
إِذَا الكُمـاةُ تَنَحـوا أَن يصِيبهـم حـد الظبـاةِ وصلنَاهـا بِأيدِينـَا
ولا تَراهم وإن جلّـَتْ مصِيبتُهـم مع البكَاةِ على من ماتَ يبكُونـَـا
ونَركَب الكُـره أحيانـاً فَيفْرجـه عنـا الحِفـَاظُ وأَسيـافٌ تُولِتِينَـا [٤]

ويقول عَمرو بن الإطْنَابَة مفتخرا بقومه الأبطال:

إني مِن القَـومِ الذين إذَا انْتَـدوا بـدأُوا بِحـَق الله ثُـم النـاِئـل

---

[١] زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص٥٤-٥٧.(الدوابر: مآخير الحوافر، القد: الجلد، الأبق: شبه الكتان، المبتغون: الطالبون).

[٢] ابن علس، المسيب بن مالك بن عمرو. شعر المسيب بن علس، ط١، (تحقيق أنور أبوسويلم)، منشورات جامعـة مؤتـه، الكـرك، ١٩٩٤، ص١٢٣-١٢٥.(العسب: الفحل، النسيل: الوبر، الطفل التريك: الذي تركاه والداه، رأل: واد النعام، النائل: العطاء، الـسجل: النصيب).

[٣] الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص٩٠.

[٤] شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ٣م، ص(٢٨٧-٢٨٩).(المراجل: الحروب، الضبة: حد السيف).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المانِعيـن مِن الخَنَـا جاراتِهـم والحامِدين على طَعـامِ النّـازل
والخَالِطـين فَقِيرهـم بِغَنِيـهـم والبـاذِلـين عطـاءهـم لِلسائِـل
والضاربين الكبشَ يبرق بيضـه ضرب المهجهج عن حياض الناهِل [1]

إن هذه المواقف السابقة تبين إجلال المجتمع الجاهلي وتقديره للأبطال أثناء تواجدهم على قيد الحياة، وقد امتد هذا التقدير حتى بعد موتهم فلم ينْسَوا، لأن فقدانهم كان يخلّف وقعاً في النفوس تمثل في شدة الحزن الذي يبدو على المجتمع، وهذا الحزن سرعان ما كان يتفجر في قصائد رثاء، أو طقوس ومظاهر أخرى عديدة تختلف بين الرجل والمرأة .

فالرجال كانوا "يمتنعون عن الملذّات والزينة ومظاهر الفرح" [2]، حزنا على أبطالهم، حيث يحرمون على أنفسهم الخمر فلا يرتادون حانة، ولا يجالسون نديما، ويهجرون النساء، ولا يتطيبون، ولا يلبسون الملابس الفاخرة التي كانوا يتزينون بها، خاصة إن كان هذا البطل مقتولا، لأن الإقبال على الشهوات يشغل عن الأحزان وعن بعض مكارم الأخلاق، ويشير المهَلهل إلى هذا أثناء حزنه على أخيه كُليب المقتول الذي يعد من أبطال الجاهلية:

خُذِ العهد الأكِيـد علي عمـري بِتَركـي كـل ما حـوتِ الديـَـار
وهجري الغانياتِ وشُرب كـأس ولُـبسـي جـبـةً لا تُسـتَعـَار [3]

أما بعض النساء فقد كن نادبات غاليات "يخمشن وجوههن ويحلّقن رؤوسهن ويشقّقن جيوبهن ويقرعن صدورهن" [4]، وكن أيضا "يلطمن الوجوه بالنّعال حتى تسود الخدود، ويعلّقن النّعال في العنق، ويكشفن غطاء الرأس والأذرع، ويلبسن الصدار الوبري" [5]، وقد أشار عَبد مَنَاف بن ربع الهذَلي إلى بعض هذا في قوله:

ماذَا يغِير ابنَتي ربـع عويلُهمـا لا تَرقُـدان ولا بؤْسى لِمن رقَـدا
كِلتاهما أبطِنَتْ أحشَاؤُها قَصبـاً مِن بطْن حلْيةَ لا رطْبـا ولا يَبِـدا

---

[1] الخالديان، أبو بكر محمد بن هاشم، (ت٣٨٠هـ) وأبو عثمان سعيد بن هاشم، (ت٣٩١هـ). كتاب الأشـباه والنظـائرمن أشـعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، ج١، (تحقيق محمد يوسف)، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨، ص١٩.(الخنـا: الفحش وقبيح الكلام، الناهل: الريان).

[2] بو ملحم، في الأدب وفنونه، ص٨٤

[3] المهلهل، أبو ليلى عدي بن ربيعة التغلبي، (ت١٠٠ق.هـ). شرح ديوان المهلهل، ط١، (تحقيق محمد علـي أسـعد)، دار الفكـر العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ص٨٩.(الجبة: الدرع).

[4] بو ملحم، في الأدب وفنونه، ص٨٤.

[5] البياتي، عادل جاسم، (١٩٨٢). رثاء الأبطال في الأدب العربي قبل الإسلام، مجلة آداب المستنصرية، (٦): ص٢٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذَا مَـجرد مَـوح قَـامتَـا معـه ضرباً أليماً بِسِبتٍ يلْعـج الجلـدا [١]

أما بعضهن الآخر من ذوات الرأي الجزل والحسب الكريم، فكن يأنفن من الندب والغلو في الحزن، ويرينه "مأثمة يأبين أن يقارفنها ويهبطن إليها، على رغم ما يعالجن من حرَق وأحزان" [٢] لذلك فضلّن الاكتفاء بقصائد الرثاء في التعبير عن حزنهن لفقد أبطالهن، فالرثاء "ينبع من حزن قائله على إنسان قطع الموت صلته بالأحياء، ويهدف إلى إفراغ النفس من لواعج لا شفاء لها إلا بالبكاء على الراحل، وتعداد مناقبه" [٣]، ولقد ضربت الخَنْسَاء أفضل مثال لهذا النوع من النساء في رثاء أخيها البطل صَخْر، فكانت في قصائدها تبكيه وتتفجع عليه مصورة ما أصابها بفقده دون لطم أو صياح، قائلة:

دق عظْمِي وهاض مِني جنَاحِـي هلْك صخْـر فَما أُطِيـقُ براحـا [٤]

وتقول أيضا:

يذكرِني طُلُـوع الشمس صخْـراً وأَذْكُـره لِكُـل غُـروبِ شَمـس
ولَـولا كَثْـرةُ الباكِيـن حولِـي علَـى إِخْوانِـهم لقَتَـلْتُ نَفْـسِي
و ما يبكُـون مِثْـلَ أَخِي ولَـكِن أُعـزي النفْـس عنْـه بِالتأَسـي
فَـلا واللهِ لا أَنْسـاك حتـى أُفَارِقَ مهجتِـي ويشَـق رمسِـي [٥]

كما كانت تشيد بأفعاله البطولية فتعدد مناقبه وكأنها تمدحه، قائلة:

فَمن لِقرى الأَضيافِ بعدك إِن هُمُ فَنَاءك حلـوا ثُم نَـادوا فَأسمعوا
كعهـدِهِم إذ أَنْتَ حـي وإِذْ لهم لَـديـك منَـالاتٌ وري ومشْبَـع
ومن لُمهم حـل بِالجـَار فَـادِح وأمرٍ وهى مِن صاحِبٍ ليس يرقع
ومن لِجلِـيس مفْحِـش لِجلِيسِهِ عليـهِ بِجهـلٍ جاهِـداً يتَـسرع
ولو كنت حياً كان إِطْفَاء جهلِـهِ بِحِلْمِـك فِي رفْـقٍ وحِلْمك أَوسع [٦]

---

[١] السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين، (ت٢٧٥هـ). شرح أشعار الهذليين، ط٢، ٢م، (تحقيق عبدالستار أحمد فراج)، دار التراث، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٦٧١-٦٧٢.(العويل: الصوت، النقد: المتأكل، السبت: النعل، يلعج: يحرق).

[٢] عفيفي، عبدالله، (١٩٣٢). المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، (ط٢)، ج١، المدينة المنورة، مكتبة الثقافة، ص١٤٣.

[٣] طليمات، غازي والأشقر، عرفان، (٢٠٠٢). الأدب الجاهلي، (ط١)، دمشق، دار الفكر، ص٢٤٣.

[٤] الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث الشريد، (ت٢٤هـ). ديوان الخنساء، ط١، (شرحه وقدم له إبراهيم شمس الدين)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠١، ص٣٠.(هاض: لنكسر، هلك: موت).

[٥] المصدر نفسه، ص٧٥-٧٦. (المهجة: الروح والنفس، الرمس: القبر).

[٦] المصدر نفسه، ص٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذلك اعتبر بعض النقاد أن قصائد الرثاء نوع من أنواع قصائد المديح، فقد قال قُدَامَةُ بن جَعفَر: "ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل: كان، وتولى، وقضى نحبه، وما أشبه ذلك" [١].

ولم يقتصر رثاء الأبطال على النساء فقط ، بل قال الرجال أيضا قصائد عديدة في رثاء محبيهم وأبطالهم، وقد كان ذكرنا للقصائد السابقة مقتصرا على النساء كونهن أكثر نبوغا في الرثاء من الرجال، لأن الرثاء "وثيق الصلة بنفوسهن وسرعة انفعالهن، فهن مرهفات الشعور، فياضات العيون، ضعيفات الاحتمال، لا يطقن فقد الحبيب، ولا يصبرن على موت العزيز أو القريب، فهن أشد أسى وأقوى حزناً، وأَحَد لوعةً من الرجال" [٢]، بالإضافة إلى أنهن كن عاملاً رئيسا في ابتداع وخلق هؤلاء الأبطال، فهن بمثابة الحَكَمِ الذي يشرف على الأبطال ويقيم بطولاتهم.

ومن مظاهر حزنهم على الأبطال، زيارة قبورهم والقيام ببعض الطقوس عليها، فقد كانوا يعقرون الإبل عندها "إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون إعظاما للأصنام"[٣]، وهم بذلك يظنون أنهم يكافئون الأموات الأبطال على بطولاتهم في حياتهم، لذا فقد عقرت الكثير من الإبل في الجاهلية على قبور كثير من الأبطال أمثال رَبِيعَة بن مكدم[٤]، وحَاتِم الطائِي[٥]، وعَمرو بن حمَمَة الدوسِي[٦]، وكانوا "يصبون الخمر على قبورهم" [٧]، وكانوا يقيمون بعض النصب على هذه القبور كي يحموها ويجعلوا منها مزارات للأجيال المتلاحقة كي يقتدوا بأبطالها، فقد "نصبت بنو عَامِر نصاباً ميلاً في ميل على قبر عَامِر بن الظرب، لا تنشر فيه راعية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش" [٨]. كما كان على قبر حَاتِم الطائِي "أنصاب متقابلات من حجارة كأنهن

---

[١] ابن جعفر، أبو الفرج قدامة بن زياد البغدادي، (ت٣٣٧هـ). نقد الشعر، ط٣، (تحقيق كمال مصطفى)، مكتبة الخانجي، القـاهرة، ١٩٧٨، ص١٠٠.

[٢] شلبي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، ص٣١٢.

[٣] الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، ص٣١٠.

[٤] ابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد، (ت٣٢٧هـ). العقد الفريد، ط٣، ج١، (أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري)، لجنـة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص١١٦.

[٥] الأصفهاني، الأغاني، ج١٧، ص٣٧٤.

[٦] القالي، أبو علي اساعيل القاسم، (٣٥٦هـ). الأمالي، ٢م، (مراجعة لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص١٤٣.

[٧] النعيمي، أحمد إسماعيل، (١٩٩٥). الأسطورة في الشعر العربي قبل الأسلام، (ط١)، القاهرة، سينا للنشر، ص١٢٩.

[٨] الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢، ص١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نساء نوائح" [١]، فإذا ما وقفوا على هذه الأنصاب والقبور عددوا محاسن الميت ، فقد "وقف جَبار بن سلْمَى على قبر عَامِر بن الظرب، فقال: أنعم ظلاما أبا علي! فوالله لقد كنت تشن الغارة وتحمي الجارة، سريعا إلى المولى بوعدك، بطيئا عنه بوعيدك، وكنت لا تضل حتى يضل النجم، ولا تهاب حتى يهاب السيل، ولا تعطش حتى يعطش البعير! وكنت والله خير ما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيراً " [٢]، وكانوا أيضا يدعون للميت بالسقيا عند هذه القبور، فقد دعا قَيس بن الخَطِيم بالسقيا لقبر رَبِيعَة بن مكْدم، قائلا:

مأْوى الضريكِ إذا الرياح تَنَاوحتْ ضخْـمِ الدسِيعةِ مخْلِفٍ مِتْـلافِ

فَسقى الغَوادي رمسك ابن مكْـدمٍ مِن صوبِ كـل مجلْجِلٍ وكـافِ [٣]

كما دعت الخَنْسَاء أيضا لأخيها صَخْر بالسقيا لقبره وهي ترثيه، قائلة:

سقْياً لِقبرك مِن قبرٍ و لا برحـتْ جـود الرواعِـدِ تَسفِيهِ وتَحتـَاِب [٤]

لم يكتف المجتمع الجاهلي بهذا التقدير للأبطال بعد موتهم فسعى جاهدا لتخليد ذكرى هؤلاء الأشخاص وبطولاتهم لأن "البطولة مثل أعلى وعنوان بارز من عناوين المجد والرفعة المعنوية ما فتىء الإنسان يحرص على شرف الانتساب إليه والاتصاف به، وروح ما انفكت المجتمعات تنفخه في أجيالها جيلا بعد جيل، وتغذيهم به ليكونوا خير خلف لخير سلف" [٥] ، وقد تمثل هذا التخليد في ضرب الأمثال بهذه الشخصيات البطولية بحيث يكون كل مثل معبرا عن بطولة الشخص الذي قيل فيه، "فالعرب كلفون بأن ينسبوا للميت بعد الموت جميل ما اشتمل عليه من صفات ومكرمات" [٦]، ومن هذه الأمثال ما يعبر عن أبطال الحرب، مثل: أَثْأَر مِن قَصِيرٍ، وَأَفْتَك مِن الحَارثِ بن ظَالِمٍ، وأحمَى مِن مجِيرٍ الظعن. وفيها ما يعبر عن أبطال الكرم، مثل: أَقْرَى مِن آكِلِ الخُبزِ، وأَقْرَى مِن حَاسِي الذهَب، وأقرى مِن أرمَاقِ المقْوِينَ، وأجوَد مِن حَاتِم، وأجود من كعب. وفيها ما يعبر عن بطولة الإباء، مثل: أعَز مِن كُلَيبٍ وَائِلٍ، وأعز مِن مَروَان

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١٧، ص٣٧٤.

[٢] الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر، (ت١١٤٤هـ). المستقصى من أمثال العـرب، ط٢، ١م، دار الكتـب العلميـة، بيروت، ١٩٧٧، ص٢٧٠.

[٣] ابن الخطيم، قيس. ديوان قيس بن الخطيم، ط٣، (تحقيق ناصر الدين الأسد)، دار صادر، بيروت، ١٩٩١، ص٢٣٧. (الـضريك: الفقير، الدسيعة: مائدة الرجل الكريم، الرمس: القبر، المجلجل: السحاب الذي فيه صوت الرعد، الوكاف: الكثير السيل).

[٤] الخنساء، الديوان، ص١٣.

[٥] مزالي، محمد، (١٩٥٩). البطولة في أدب الأندلس وشمال أفريقيا، مجلة الآداب، (١)، ص٨٨.

[٦] عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج١، ص١٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القَرَظِ. وفيها ما يعبر عن بطولة الوفاء، مثل: أوفَى من الحَارثِ بن عَباد، وأوفَى مِن السمَوأل، وأوفى من الحَارث بن ظَالِم. وفيها ما يعبر عن بطولة الصبر، مثل: أصبَر مِن حِذْل الطعَان. وفيها ما يعبر عن بطولة الحلم، مثل: أحلم مِن الأحنَفِ. أما ما يعبر عن بطولة الحزم فقولهم: أحزَم مِن سِنَانٍ. [١]

وكان تخليدهم أيضا للأبطال يتم عبر تناقل أخبارهم وقصصهم من جيل لآخر، لأنها "غذاء للنفوس وتأريث للعزمات، ومتعة للأرواح وتقدير لمعاني الرجولة والعظمة في أسمى مظاهرها"[٢]، فنتج عنها نوع مميز من القصص "مليء بروائع الأوصاف، وبدائع الصور، تمثل مجالاً واسعاً لتمتّع الأخيلة، ومسرحاً للمواقف والوقائع" [٣]، ألفها الناس وتناقلوها عبر أجيالهم، فأصبحت مصدراً يقتدون بشخصياته، ويقتبسون منه القوة والشجاعة والقيم المثلى، إلى أن بلغت من الأصالة والعراقة ما جعلها تحتل مكانة عالية في نفوس الأمم، فاستعانوا بشخصياتها بالأدب الشعبي، فأصبحت بعض "نماذج البطولة في الأدب الشعبي جاهلية، على ما أضيف إليها من ظلال وألوان متعددة في كل عصر، فسَيف بن ذِي يَزَن، وعَنْتَرَة بن شَداد، ومهَلهِل، وكُليب، كل هذه النماذج جاهلية، انحدرت أصول قصصها ومعالم شخصياتها من الجاهلية" [٤]، إلى إن "ظلّت أحاديث الأبطال في نفوس الأجيال عقب الأجيال، يستلهمون منها القوة ويستمدون بها العون" [٥].

وأخيرا يتضح من اهتمام المجتمع الجاهلي بالبطل في حياته وبعد موته أن هذا الاهتمام الشديد لم يكن يسعى لتخليد هؤلاء الأبطال فقط، فهذا الاهتمام يدل على أن هناك هدفا أكبر من ذلك بكثير، ولعل هذا الهدف هو تخليد قيم المجتمع المثلى من جيل لآخر، فالبطل كما عرفنا يمثل أماني وقيم المجتمع كله، والبطل الجاهلي هو من يمثل القيم الجاهلية، فإذا تخلّد في أذهان الأجيال المتعاقبة تخلّدت معه تلك القيم وتوارثت من جيل لآخر، بل لجعلت من المجتمعات المتتالية مجتمعات مليئة بالأبطال، تحرص على قيمها، فتصبح متماسكة مترابطة.

---

[١] أنظر: الزمخشري، المستقصى من أمثال العرب، ١م، مرتبة الأمثال هجائيا.

[٢] الحوفي، البطولة والأبطال، ص٦١.

[٣] الفيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص١٢٤.

[٤] الأسد، البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي، ص٤٤.

[٥] الفيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العناصر المساهمة في ترسيخ بطولة الصعاليك في الجاهلية

قبل أن نبدأ في تسليط الضوء على صور البطولة في حياة الصعاليك، وقبل أن نثبت ما إذا كان الصعلوك فعلا بطلا حربيا ومثاليا، لا بد أن نجيب عن بعض التساؤلات المهمة، والتي من المتوقع أن تطرأ على ذهن قارئ عنوان هذه الدراسة، وهي:

هل من الممكن أن يكون الصعلوك الذي يقوم بأعمال النهب والسلب، والذي يتسم بالشراسة والشدة إنسانا مثاليا وبطلا موفّرا يثير الإعجاب والتبجيل ؟ وإن كان هذا صحيحا هل هنالك عوامل تسهم في ترسيخ القيم البطولية في حياته ؟ وهل كان الصعلوك يسعى جاهدا إلى التحلي بهذه الصفات البطولية في عصره ؟

وسيحاول هذا الفصل الإجابة عن هذه التساؤلات، واستكشاف العوامل التي أسهمت أو كان لها دور بارز في بطولات الصعاليك، متناولين كل عنصر من هذه العناصر بالتفصيل وتوضيح مدى تأثيره في حياة الصعاليك، ومن هذه العناصر:

المبحث الأول: البيئة

تُعد البيئة من أبرز العوامل المؤثرة في الأدب منذ القِدم، ويمكن أن نلحظ هذا الأثر من كتابات الجَاحِظ قديما، كما نراها عند المحدثين مفصلة عند رائد المنهج التاريخي "هيبوليت تين" عندما استعرض الوحدات الثلاث المؤثرة في الأدب والتي كان من ضمنها البيئة.

وتعد البيئة أيضا عاملا مهما يتحكم بالبطل ومسئولياته وأهدافه، فكل بطل يرتبط ببيئة خاصة به تختلف في ظروفها التاريخية عن البيئة الأخرى، فالمجال الذي عاش فيه عَنْتَرَة غير ذلك الذي عاش فيه الظاهِر بِيبَرس مثلاً وكلاهما يختلف عن المجال الذي يتحرك فيه سَيف بن ذِي يَزَن، وكل هؤلاء تختلف مجالات عملهم عن مجال أبِي زَيد الهلالِي، وهذا يجعل لكل بطل خصوصيته النابعة من المجال الذي يتحرك فيه والهدف الذي يتجه إليه. [1]

إن البيئة الصحراوية التي كان يعيش فيها الصعاليك فرضت عليهم طباعا وأخلاقا خاصة تناسبهم، وألزمتهم بتقاليد صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة، وصارت لهم عنوانا بين

[1] ابراهيم، نبيلة، (١٩٩٣). من نماذج البطولة الشعبية، (ط١)، الإمارات العربية المتحدة، مكتبة بن دسمال، ص١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناس يتميزون ويتفوقون به عمن سواهم، ونحن أثناء تأملنا في بيئتهم الصحراوية ومدى قساوتها عبر أشعارهم سندرك هذه الطباع والأخلاق التي جبلوا عليها.

لقد تحدث الصعاليك عن أماكن إقامتهم في أشعارهم، والمواضع التي كانوا يرتادونها، والقبائل التي يغيرون عليها، وغالبها كان في نَجد والحِجَاز وتِهَامَة واليَمَن[١]، أي كانوا منتشرين في جميع أنحاء جزيرة العرب، ولكن غزواتهم كثرت في الحِجاز، وشمال اليَمَن على وجه الخصوص، لوجود أكثر الأماكن الخصبة فيها، فغاراتهم كانت دائما تشن على مثل هذه المناطق لتوفر الماء والكلأ فيها، وهي الأماكن التي يقصدها الإنسان في الجاهلية ليرعى إبله وقطعانه، وهذا ما يبحث عنه الصعلوك –الإبل– ليقضي بها حاجاته ورغباته.

ولا يعني هذا أن الصعلوك كان يعيش في الأماكن الخصبة، وإنما كان فقط يغير عليها، ويعيش في الجبال المجدبة والوهاد المقفرة المجاورة لها، فلا يجد من يعرفه أو يتمكن من اللحاق به.

كانت طبيعة الأماكن التي يعيش فيها الصعلوك قاسيةً جداً، فقد صورها من خلال شعره تصويراً واقعياً مفصلاً؛ ليبين مدى قساوتها، فكانت متنوعة التضاريس، فيها الجبال، والهضاب، والوديان، والسهول المقفرة، المتداخلةُ والمتشابكةُ مع بعضها بعضاً، التي يصعب اجتيازها بسهولة، ويعددها مَالِك بن حَرِيم قائلاً :

طَلَـعن هِضـاباً ثُم عالين قُنةً وجاوزن خَيفاً ثُم أسهـَلن بلقَعا [٢]

ولكن هذه المناطق في غالبها كانت جبلية، تنتشر فيها المرتفعات الصخرية والأكمات والهضاب والجبال المرتفعة التي يصعب الوصول إليها إلا لمن اتصف بالقوة والشجاعة والبأس، ويوضح هذا حَاجِز بن عَوف بالصعود على أكثر من مرقبة، قائلاً :

ومرقـبةٍ نَمـيتُ إلى ذُراهـا يقَصر دونَـها السـبطُ الوسِـيم

عـلوتُ قَذَالها وهبـطْتُ مِنْها إلـى أُخْـرى لِقُلـتِها طَـمِيم [٣]

---

[١] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٧٧-٨٨.

[٢] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٦.(الخيف: ما ارتفع عن مجرى السيل وانخفض عن غلظ الجبل، البلقع:الأرض القفر).

[٣] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٢٩٧.(نميت ذراها:ارتفعت أعلاها، الرجل السبط: الطويل، الطميم:المملوء).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحتوي هذه الجبال في مجملها على صخور ملساء، إذا ما وقعت عليها أشعة الشمس القريبة من قممها، أصبحت حارة محرقة خاصة في شهور الصيف، يقول تَأبطَ شَراً :

وقُلـةٍ كسِنَـان الـرمح بـارزةٍ ضحيانَةٍ فِي شُهور الصيفِ مِحراق
بادرتُ قُنتَها صحبِي وما كسِلُـوا حتـى نَميتُ إليها بعـد إشْـراق
لاشَيء في ريـْدِها إلا نَعامتُهـا مِنْهـا هزيـم ومِـنْها قَـائِم بـاق [1]

أما في الليل فتكون هذه المرتفعات الصخرية باردةً جداً، لأن الرياح في قممها تكون سريعةً لعدم اصطدامها في أية عائق، فما يكون منها إلا أن تجعل الجو بارداً لا يستطيع الإنسان تحمله، وقد ذكر الشنْفَرَى هذه الجبال التي تسلّقها ليلاً، فوجدها شديدة البرودة، فلم يجد أمامه إلا أن يتطوى على نفسه كالحية، ليحمي جسمه من البرد، يقول :

ومرقَـبةٍ عنْقَاء يقْصـر دونَـها أخُو الضروةِ الرجلُ الحفِي المخَفّفُ
نَعبتُ إلى أدنَى ذُراها وقَد دنَـا من الليل ملْتَـف الحرِيقَـةِ أسـدفُ
فَبِت إلى حـَد الذراعين مجزِيـاً كما يتَطـوى الأرقَـم المتَعـطـفُ [2]

نتج عن كثرة هذه الجبال وتشابكها وجود الوديان، وهذه الأراضي المنخفضة كلما أحاطت بها الجبال زادت وعورتها وانخفاضها، وكانت مأوى للحيوانات المفترسة الأمر الذي زاد من خطورتها، يصف تَأبطَ شَراً إحدى هذه الوديان الوعرة التي قطعها ليلاً، فوجد فيها ذئباً يعوي باحثاً عن الطعام لأبنائه، فلم يخف منه، بل تصرف معه بحزم وذكاء، يقول :

ووادٍ كجوفِ العيرِ قَفْرٍ قَطَعتُـه بِهِ الذئْب يعوي كالخَلِيعِ المـعيل
تَعدى بِزيـزاةٍ تَعِج مِـن القَـوا ومن يـك يبغِي طُرقةَ الليل يرمِل
فَقُلْـتُ له لما عـوى إن ثَاوِيـتاً فَلـيلُ الغِنَى إن كُنْتَ لمـا تَمـَول
كِلانـا إذَا مـا نَـالَ شَيئاً أفَـاتَه ومن يحتَرِثْ حرثِي وحرثَك يهزل
كِلانَا طَوى كَشْحاً عن الحي بعدما دخَلْنَا علـَى كلابِـهم كُل مدخـَل

---

[1] تأبط شراً، ثابت بن جابر، (ت٨٠ ق.هـ)، ديوان تأبط شرا وأخباره، ط٢، (جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩، ص١٣٨-١٣٩.(الضحيانة: البارزة للشمس، الريد: حرف الجبل المشرف على الهواء، النعامة: خشبات يشد بعضها إلى بعض تستظل بها الطلائع، الهزيم: المتكسر).

[2] الشنفرى، عمرو بن مالك، (ت٧٠ ق.هـ)، ديوان الشنفرى، ط٢، (جمع وتحقيق إميل بديع يعقوب)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦، ص٥٣.(العنقاء: الطويلة، أخو الضروة: الصياد، الأسدف: المظلم، المجذي: الذي ليس بمطمئن، الأرقم: ذكر الحية).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طَرحتُ له نَعلاً مِن السبتِ طالـةً خِلافَ نَدى مِن آخِرِالليل مخْضـل
فَولـى بِها جذلان ينْفُض رأسـه كـصاحِبِ غُنْمٍ ظـافِرٍ بالتمـَول [1]

ويصف الشنْفَرَى وادياً آخر اجتازه بحذر لكونه مأوى للأفاعي والذئاب والأسود والجن، هذه الكائنات التي يصعب على الإنسان أن يعيش معها، فإذا ما اعترضته، ولم يستطع الخلاص منها -إما بقتلها أو الفرار منها- أصبح فريسة لها تسد به جوعها:

ووادٍ بعيدِ العمق ضنـْكٍ جماعه مراصِد أيمٍ فلِـتِ الرأس أخْـوفُ
وحوش مـوى زادِ الذئابِ مضِلةٍ بواطِـنُه للجِـن والأسـدِ مأْلـفُ
تَعسفْتُ مِنْه بعد ما سقَـطَ النـدى غَمالِيلَ يخْشى عيلهـا المتَعسـِفُ [2]

وقد لا تكون خطورة هذه الوديان فقط في الحيوانات المفترسة التي تسكنها، بل قد تكون من المياه التي تتجمع في قيعانها، والتي كانت نتيجة انحباس مياه الأمطار ثم سقوطها بغزارة، وقد تصبح الوديان منبتاً لبعض الأشجار والنباتات المتزاحمة مما يصعب اجتيازها أو السير فيها، وهذا ما يسمى (الشّعب) [3]، ويصف تَأبطَ شَراً اجتيازه له، قائلاً :

وشِعبٍ كشَل الثوبِ شَكْس طَريقُه مجامِع صوحيهِ نِـطافٌ مخَاصِـر
تَعسـفتُه باللّـَيل لـَم يهدِني لـه دليلٌ ولم يحسِـن لِي النعتَ خَابِـر
لـدن مطْلِع الشعرى قَليلٍ أنيسـه كأن الطخَا فـي جـانِبيهِ معاجِـر
بِهِ من نِجاءِ الدلـْوِ بِيض أقَـرها جبـَار لصم الصخْـر فيهِ قَراقِـر
ومررن حـتى كُـن لِلْماءِ منْتَهى وغَادرهن السَيـْلُ فِـيـما يغَـادِر
بِهِ نُـطَفٌ زرقٌ قَـليلٌ تـُرابهـا جلا الماء عن أرجائِها فَهو حائِـر
بـِهِ سـملاتٌ مِن مـياهٍ قَـديمةٍ مـواردها ما إن لـهن مـصادِر [4]

[1] تأبط شرا، الديوان، ص١٨٢.(المعيل: كثير العيال، الزيزاة: الغليظة من الأرض، تعج: تصوت، القوا: الخلاء، يرمل: يقل زاده وينفد، طوى كشحا: أي انصرف، الكلاب: صاحب الكلاب الذي يقوم بالحراسة، السبت: الجلد المدبوغ، الخضل: البلل الخفيف، الجذلان: الفرح).

[2] الشنفرى، الديوان، ص٥٥.(ضنك: ضيق، الحوش: بلاد الجن، الغماليل: الروابي).

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة(شعب).

[4] تأبط شرا، الديوان، ص٩٤-٩٦.(شكس: ضيق، صوحا الشعب: جانباه، التعسيف: السير على غير هداية، الطخا: السحاب الرقيق، المعجر: عمامة الرجل، الجبار: السيل، قراقر: صوت اصطدام الماء بالصخر، نطف زرق: ماء صافية، السملة: بقية الماء القديمة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ما هو غير الجبال والوديان في هذه المناطق فغالبه أراضٍ فسيحة مليئة بالصخور الجرداء المترامية في كل مكان، والتي تعقر الأرجل، وتنقب الأخفاف والحوافر، لذا فالسير عبرها فيه بطولة وقوة تساعد في تحمل التعب والمشقّة، يقول الشنْفَرَى:

إذَا الأمعـز الصوان لاقّى مناسِمي تَـطاير مِنـْه قـادِح ومفَـلُ [1]

ومناخ هذه المناطق كان متقلّباً ليس على حالٍ واحدةٍ، شديد الحرارة في النهار، بارد جاف في الليل، ففي النهار كان الطابع العام له الحر الشديد وذلك لأن الشمس في وقت الهاجرة تتسلّط عموديةً على هذه الأرض الصخرية فترفع من حرارتها، إذ لا أشجار تقي الأرض وتضلّلها من هذه الشمس، إضافة إلى رياح السموم العاتية الحارة المشتعلة التي تلفح وجوه الناس فتحرقها فتبدو بلون السمار، ويشير عَمرو بن بَراقَة إلى مقدار الأثر الذي خلفته فيه رياح السموم حداً جعل محبوبته تعجز أن تتعرف إليه، يقول :

تَقُولُ سليمى لِي من القَوم إن رأَتْ وجوه رجـَالٍ لَوحـتْها السـمائِم [2]

ولا يقتصر أثر هذه الرياح السموم على الإنسان فحسب، بل تؤثّر أيضا على كل الكائنات الحية التي تعيش في هذه المناطق، فتحرق من شدة حرارتها النباتات التي تنبت فيها، يقول حَاجِز بن عَوف:

كـمعمـعةِ الحـريقَةِ فـي أبـاءٍ تَـشُب ضِـرامها ريـح سـموم [3]

وتؤثر أيضا على حيواناتها، فبعضها يهاجر عنها في وقت الصيف لشدة حرارتها، ويشير الأُحَيمِر السعدِي إلى طيور القطا التي تعيش فيها بأنها تهاجر عنها كلما اشتد حرها، قائلاً :

وتَيهاء يـزور القَطا عن فَـلاِتها إذا عسبلَتْ فوقَ المِـتان حـرور [4]

أما بقية الحيوانات فتعاني من الجوع والعطش بسببها فتصاب بالهزال والضعف، فعروَة ابن الوَرد يصف الإبل وما يصيبها من هزال في أجسامها، وجفاف لألبانها من شدة الحر، قائلا:

---

[1] الشنفرى، الديوان، ص٦٢.(الأمعز: المكان الملئ بالحصى، الصوان: الحجارة الملساء، مفلل: متكسر).

[2] الربَعي، عيسى بن إبراهيم بن محمد، (ت٤٨٠هـ). نظام الغريب، ط١، (استخرجه وصححه بولس برونله)، المطبعة الهندية، القاهرة، (د.ت)، ص١٨٥.

[3] ابن ميمون، منتهي الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٢٩٨.(المعمعة:تقال للحرب، الأباء:نبات القصب، الضرام: لهب النار).

[4] الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله، (ت٦٢٦هـ). معجم البلدان، ١م، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥، ص٦٦.(التيهاء:الأرض المضلة الواسعة، عسبلت: سطعت، المتان: ما غلظ من الأرض).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بِديمومةٍ ما إن تَكـاد تَـرى بهـا مِن الظَمـأ الكُوم الجِـلاد تُـنَولُ [١]

أما في الليل فالطابع العام للمناخ هو البرد الشديد إلى حد التجمد أحياناً، وقد أشار الشنْفَرَى إلى هذا البرد في ليلة باردة قضاها في إحدى غزواته مع صحبه، فقد كانت باردة درجة أن الفارس المغوار مستعد لأن يضحي بسلاحه الذي هو أغلى ما يملك، فيشعل ناراً بنبال قوسه ليوفر بعض الدفء لنفسه وأصحابه، الذين كانوا يتضورون جوعاً، ويرتعدون من شدة البرد، قائلا :

ولَيلَةِ نَحس يصطَلي الـقَوس ربهـا وأَقْطُـعه الـلاّتي بـها يتـَنَـبلُ
دعستُ على غَطْش وبغْش وصحبتي سعار وإرزيـر ووجـر وَأَفَـكَلُ [٢]

هذا المناخ القاسي كان سبباً في قلّة موارد المياه في تلك المناطق، فالحرارة الشديدة تبخر ما في باطن الأرض من ماء، أو ما تبقّى من مياه الأمطار في جوف الوديان، أما البرد الشديد فقد يجمد هذه المياه فلا يستفاد منها، وهذا لا يعني عدم وجود المياه نهائياً في هذه الأماكن، فهي موجودة ولكن بنُدرة شديدة، وإن وجدت فإن الإنسان والحيوان يتجمعون حولها، أو قد تقوم الحروب والمعارك لامتلاكها، يقول أبو كَبِير الهذَلي عن المياه التي وردها ولم يأتها إنسان منذ زمن بعيد، فلم يجد حولها سوى الذئاب العاوية من شدة الجوع :

ولَقَد وردتُ الماء لَـم يشْرب بِـهِ بين الـرَبيع إلى شُـهورالصيفِ
إلا عـواسِـلُ كالـهِراطِ مـعِيدةٍ بِالـلـيل مـورد أَيـمٍ متَغَـضفِ
ينـْسلْن فِى طُـرق سباسِب حوله كَـقِداح نُبل مـحبرٍ لم تُرصـَفِ
تَعوى الذئَاب مِن المجاعةِ حـَولَه إِهـلالَ ركـْبِ اليامِن المتَطَوفِ
زقَـب يظَـل الـذئْب يتْبع ظِـله مِن ضِيق موردِهِ استِنَان الأَخْلَفِ [٣]

ورغم قساوة البيئة التي كان يعيش فيها الصعلوك إلا أنه ألفها وفضلها على حياته وسط أهله، حياته المليئة بالمهانة بالذل، فنجده يفر من كل إنسان يطارده في هذه الحياة ليعامله معاملةً وضيعةً لا ذنب له فيها، لذا ألف هذه المناطق الصحراوية الفسيحة؛ لأنها "لا تقيدها قيود، ولا

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص٢١٣.(الديمومة: المفازة، الكوم: النوق السمينة، الجلاد: الإبل الغزيرات اللبن، تنول:تعطي).

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٦٩-٧٠.(النحس: البرد، يصطلي: يستدفئ، الأقطع: نصل السهم، دعست: دفعت، الغطش: الظلمة، البغش: المطر الخفيف، الإرزيز: البرد، الأفكل: الارتعاش).

[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٠٨٥. (عواسل: الذئاب السريعة، متغضف: متطو، سباسب: بعيدة، محبر: مزين، زقب: الضيق، استنان: العدو).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحد من حريتها حدود، ولا يستطيع قانون أن يخترق نطاقها ليفرض سلطانه عليها، مجالا لا حدود له يمارسون فيه نشاطهم الإرهابي، ويقيمون دولتهم الفوضوية، دولة الصعاليك حيث يحيون حياة حرة متمردة، تسودها العدالة الاجتماعية وتتكافأ فيها فرص العيش أمام الجميع" [١]، وقد أقروا في أشعارهم استئناسهم بهذه البيئة القاسية المليئة بالمخاطر، يقول الأُحَيمِر السعدِي:

عوى الذّئب فاستأنستُ بالذئبِ إذْ عوى ... وصوتَ إنـسانٌ فـكدتُ أطِـير

رأى اللُـه أنّـي للأنيـسْ لـَشانِـئٌ ... وتُبغضهم لـي مـُقْلةٌ وضـمير

فَلَلّيـل إذْ وارانـي الـليلُ حـكْمـه ... وللشمس إن غابتْ على نـُذُور [٢]

ويقول أيضاً :

أوحـشَ الـناس جـانبي فـما آ ... نـَس إلا بـوحشَتي وانفـرادِي [٣]

وبلغوا حداً أن هذه الحيوانات في هذه البيئة ألفتهم، فلم تعد تخافهم أو يخافونها، يقول الشنْفَرَى عن قطيع الأراوي الصحم :

ترود الأراوي الصحم حولي كأنّها ... عـذارى عليهن المـُلاء المـُذَيلُ

ويركُدن بالآصال حـولي كـأنّني ... من العصمِ أدفى ينْتَحي الكِيح أعقَلُ [٤]

لم تكن حياة الصعلوك في هذه الصحراء القاسية دون فائدة، بل كانت الفائدة منها عظيمة حيث ترسخت في سلوكه بعض البطولات، فقد كانت البطولة عند الإنسان الجاهلي بمثابة "استجابة لما فرضته حتمية الطبيعة، فقد التمس البطل الجاهلي ما يثبت وجوده ويعززه، ويصون قيمته " [٥]، وكان"يحاول إيجاد الحلول لأكبر مشكلاته التي تواجهه في واقعه المادي والروحي"[٦] كي تستمر حياته في هذه البيئة.

لقد استمد الصعلوك من هذه البيئة بعض خصائصه البطولية، فخلقت منه الرجل القوي الشجاع لأن "الصحراء تربي في نفوس أبنائها صفات الشجاعة والجرأة، والكبرياء العنيدة،

---

[١] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٥٥.

[٢] ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٧٢.(الشانئ: المبغض الكاره).

[٣] البصري، صدر الدين علي بن الحسن، (ت٦٥٩هـ). الحماسة البصرية، ط٣، ج٢، (تحقيق مختار الدين أحمد)، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٥٦.

[٤] الشنفرى، الديوان، ص٧٢.(ترود: تذهب وتجيء، الأروية: أنثى التيس البري، الأدفى من الوعول: الذي طال قرنه،الكيح: عرض الجبل، الأعقل: الممتنع في الجبل العالي).

[٥] عويضات، صورة البطل في شعر عنترة بن شداد العبسي، ص١٩.

[٦] المصدر نفسه، ص١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كبرياء الرجال الأحرار، وحياة الصحراء بما فيها من مخاطرة، واعتماد على النفس، تجعل من العربي أشجع الجنس البشري "[١]، ويصف ابن خَلدون أهل البادية أنهم "أقرب للشجاعة من أهل الحضر .....، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية " [٢]، فلا يستطيع إنسان تحمل هذه البيئة إلا إذا كان قوي الجسد، جريء القلب، متمرسا في دروبها، وأول الخصائص التي استمدها من هذه البيئة، الغلاظة والخشونة، فقد اتسم بسمات الصحراء وتطبع بطابعها القاسي، والشنْفَرَى يعبرعن هذه الخشونة باتصافه بالصفات الرجولية والشجاعة، فلم يعد يتدهن أو يتكحل أو يتغزل، يقول:

ولا خَـرِق هـيق كـأن فـؤاده يـَظل بـه المكاء يـعلُو ويسـْفُلُ
ولا خَـالِـفٍ داريـــةٍ متغَـــزلٍ يـروح ويغْـدو داهنـاً يتَـكحـلُ [٣]

كما لم يعد يهتم بترتيب شعره وغسله إلى أن أصبح عبساً متلبداً، يقول :

وضافٍ إذا طارتْ له الريح طَيرتْ لبائِد عـن أعـطَافِهِ مـا تُرجـلُ
بعيد بِمس الدهن والقَلي عـهده له عبس عافٍ مِن الغِسل مـحولُ [٤]

إن السير في هذه الصحاري المقفرة، وتسلق المرتفعات الشاهقة، والجري وراء الطرائد، أضفى على الصعلوك بعض الصفات البطولية، فجعله قوي الجسد، خفيف الحركة، لين المفاصل، دائم الحذر، ذا فطنة وفراسة، يقول عروَة بن الوَرد:

بنيتُ على خَلْق الرجـال بِأعـظُمٍ خِفَـافٍ تَثَنى تَحتَهن المفَاصِـلُ
وقَلْبٍ جلا عنه الشكوك فإن تَـشأْ يخَبرك ظَهر الغَيبِ ماأنتَ فاعِـلُ [٥]

ودفعت مخاطر الصحراء الصعلوك للتمسك بالحذر الدائم، فلا يتخلّى عن سلاحه أبدا، بل يحمله معه في كل وقت حتى إذا أخلد إلى النوم؛ لأن المخاطر في الصحراء كانت مفاجئة تهاجمه على حين غرة، ولكي يأمنها لازم سلاحه، يقول أبو كَبير الهذَلي:

---

[١] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٧٥.

[٢] ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، (ت٨٠٨هـ). المقدمة، دار الشعب، القاهرة، (د.ت)، ص١١٤.

[٣] الشنفرى، الديوان، ص٦١.(الخرق: الخائف، الهيق: الظليم، المكاء: ضرب من الطيور).

[٤] المصدر نفسه، ص٧٢.(الضافي: الشعر المسترسل، العطف: الجانب، ترجل: تمشّط، عافٍ: كثير).

[٥] عروة بن الورد، الديوان، ص٢٢٦.(جلا: كشف).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولَقَد أَجـزتُ الخَرقَ يـركُد عِلْجه فَوقَ الإِكـَامِ إِدامـةَ المستَرعِفِ
فَأَجـزتُه بِـأَفَل يحـسب أَثْـره نَهجا أَبـان بِـذِى فَرِيغٍ مخْـرفٍ [١]

ولم تقتصر استفادة الصعلوك من هذه البيئة على بطولة الشجاعة، بل استفاد أيضا بعض البطولات المثالية مثل (الحزم)، ففي بعض المواقف قد لا يحتاج إلى القوة والشجاعة بقدر ما تكون الحاجة إلى الحزم والذكاء؛ لتدبير الحيل والخروج من المآزق؛ أو وضع الخطط لتخطي الصعاب، وقد ضرب مَالِك بن حَرِيم مثالاً فرضت عليه الطبيعة فيه بعض الصعاب فتصرف معها بحزم وذكاء، ففي إحدى رحلاتهم الحربية الطويلة أثناء سيرهم على الأرض الصخرية خلعوا نعال العبيد الذين يقودون الخيل حتى يميل سيرهم للأراضي السهلة، ولعلهم بذلك يحافظون على خيولهم، وهذا تصرف حازم اقتصر على استخدام العقل، يقول:

ونَخْـلَع نَعلَ العبدِ مِن سـوءِ قَودِهِ لِكَيما يكون العبد للسهل أضرعا
وقَد وعـدوه عـقْبةً فـمشَى لَـها فَما نَالَها حتّى رَأَى الصبح أدرعا
وأوسعن عقْبيهِ دِمـاء فَأَصـبحتْ أصابِع رِجلَيـهِ رواعـِفُ دمـعا [٢]

واكتسب الصعلوك من هذه البيئة أيضا معنى خاصا للحرية، فالتنقل في هذه المساحات الواسعة دون قيود تقيده أو دليل يوجهه رسخ في نفسه مبدأ الحرية، فلم يعد يقبل أن يتحكم فيه، أو يحاصر، أو يجبر على شيء، وقد صور تَأَبطَ شَراً هذه الحرية في تنقله من مكان لآخر دون قيد، واستئناسه بالوحشة بعيدا عن عالم الإنسان المليء بالظلم وعدم المساواة، قائلاً :

يظَـل بِمومـاةٍ ويمـسِي بغـَيرِها جحِيشاً ويعروري ظُهور المهالِـكِ
يرى الوحشَةَ الأُنْس الأَنِيس ويهتَدي بِحيثُ اهتَدتْ أُم النُّجومِ الشوابِـكِ [٣]

لم تكن هذه الحرية خالية من المتاعب، فالصحراء الموحشة البخيلة ذات المناخ المتقلب، كانت تتطلب إنساناً صبوراً يتحمل الجوع والعطش، فالطعام والشراب لا يتوافران فيها باستمرار، لذلك أُجبر الصعلوك على الصبر في هذه المواقف، وقد وضح الشّنْفَرَى وأبو كَبِير الهذَلي مثالين على الصبر كانا بفعل الطبيعة القاسية، فكان صبر أبا كَبِير الهذَلي على العطش

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٠٨٦.(الخرق: الأرض البعيدة، المسترعف: الذي يطأطىء رأسه من الحر، الأفل: السيف، المخرف: الطريق)

[٢] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٥.(العقبة: النوبة في الركوب، أدرع: أبيض الصدر، رواعف: قواطر).

[٣] تأبط شرا، الديوان، ص١٥٢.(الموماة: المفازة، الجحيش: المنفرد، يعروري: يركب، أم النجوم: الشمس، الشوابك: المشتبكة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين ورد مصدراً للماء في الصحراء القاسية فوجد سطحه متّسخاً، فصدر عنه ولم يكن أمامه سوى الصبر، يقول:

ولـقَد وردتُ الـماء فَـوقَ جِمامِهِ مِـثْلُ الفَرِيـقَةِ صفيتْ لِلْمـدنَفِ
فَصدرتُ عـنْه ظَامِـئاً وتَـركْتُـه يهتَز عَـلْقَمُه كَـأَن لَـم يكْـشَفِ [1]

أما الشنْفَرَى فلفح وجهه الحر الشديد، ولم يكن أمامه سوى الصبر؛ لأنه لا يملك ما يستره، سوى ثوب ممزق لا يرد من الحر إلا الشيء القليل، يقول:

ويومٍ مِـن الشـعرى يذُوب لُـعابه أفـاعِيهِ في رمـضائِهِ تَتَمـلْمَلُ
نَصبتُ له وجـهي ولا كِـن دونَـه ولا سِتْـر إلاّ الأَتْحمِي المرعبـلُ [2]

تبين مما سبق شرحه، أن البيئة المحيطة لها دور كبير في غرس بعض البطولات في النفس البشرية، فالبيئة الصحراوية القاسية التي عاشها الصعلوك أسهمت إسهاما كبيرا في إظهار بطولة الشجاعة، وبعض البطولات المثلى كالحزم والإباء والصبر.

ويبدو جليا للدارس الأثر العظيم الذي تركته البيئة في شخصية الصعاليك، ونلمح عبر وصفهم لهذه البيئة محاولات حثيثة لإظهار مدى الشدة والقسوة والصعاب التي أحاطت بهم، في محاولة منهم لبيان مقدار الشجاعة والبطولة التي تتطلبها حياتهم في سبيل البقاء وتحقيقا للوجود.

لقد أسهمت البيئة بتضاريسها المتنوعة، ومناخها المتباين، وحيواناتها وضواريها بإبراز صفات البطولة في شخصية الصعاليك باعتبارها لازمة تقتضيها، وضرورة تتناسب طرديا مع قدرة الصعاليك على الاستمرار في الحياة.

---

[1] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٠٨٦.(جمام الماء: سطحه، الفريقة: نبات الحلبة، الغلفق: الطحالب على سطح الماء).

[2] الشنفرى، الديوان، ص٧١.(يوم من الشعرى: يوم من الحر الشديد، الرمضاء: شدة الحر، تتململ: تضطرب، الكِن: الستر: الأتحمي المرعبل: ثوب كالعباءة ممزق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني: الفقر

لقد كان الفقر آفة قاسية تحيط بالإنسان الجاهلي عامة، والصعلوك خاصة، فمن المعلوم أن الصعلوك قضى حياته هائماً في الصحاري المقفرة يغِير ويسلب؛ ليقضيَ على هذه الآفة، لكن المؤسف أنه لم يستطع التخلص منها، والقضاء التام عليها، "فالفقر والإملاق والجوع من أهم الملازمات التي لازمت ورافقت الصعاليك". [١]

فالصحراء التي اختاروها ساحة لغاراتهم وهجماتهم، وملاذاً لهم عند فرارهم، كانت بيئة قاسية كما ذكرنا سابقا. قليلا ما تسقط فيها الأمطار، فكانت جرداء قاحلة، لا توجد فيها موارد ثابتة للرزق، وقد أثرت هذه الصحراء على حياة القبائل التي كانت تسكنها مثل قَهم وهذَيل، فكانت تعيش معيشة ضنكا [٢]، لذا كان الصعاليك أحيانا يخافونها، ويعدونها أحد أسباب الفقر، يقول السلَيك بن السلَكة:

بكى صرد لما رأى الحي أعرضـتْ ... مهـامه رمـلٍ دونَـهم وسهـوب

وخَوفَـه ريب الزمـان و فَقْـره ... بـلاد عـدو حاضـرٍ وجـدوب [٣]

وبعضهم يرجع سبب الهموم والفقر إليها، فيصف الأُحَيمِر السعدِي حاله وهو وحيد فيها، بأن هموم الدنيا وبؤسها كانت تلازمه فيها منذ نشأته الأولى، يقول:

أوتَرانـي بِـذي المجـازةِ فَـردا ... وذِراع ابنـةِ القَـلاةِ وسـادِي

بِـرب بث أخـا همـومٍ كـأن الـ ... ـفَقْر والبـُؤس وافـيا مِيـلادِي [٤]

ويتذكر الأعلَم الهذَلي أهله الفقراء الذين تخلى عنهم أقاربهم، كلما اشتد الحر في الصحراء القاسية، قائلا:

حتـى إذَا انْتَصفَ النَّـهار وقُلْـتُ يـَوم حـَق ذَلِـب

رفعـتُ عينَـي الحِجـاز إلـى أُنَـاس بِالمـنَاقِـب

وذَكـرتُ أَهلِي بِالعـراءِ وحاجـةَ الشعـثِ التوالِـب

---

[١] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦٠٥.

[٢] عطوان، حسين، (١٩٩٣). بيئات الشعر الجاهلي، (ط١)، بيروت، دار الجيل، ص٢٥.

[٣] السليك بن السلكة، الديوان، ص٥٥.(مهامه: الفلاة البعيدة، سهوب: الأرض المستوية البعيدة، ريب الزمان: صرف الدهر).

[٤] البصري، الحماسة البصرية، ج٢، ص٣٥٦.(الترب:المماثل في السن، البثّ: الحزن والهم،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصرمين من التلادِ اللامحين إلى الأقارب [١]

وكما أنهم كانوا يتصعلكون في جماعات متباينة الأطوار والأجناس لصعوبة تصعلك الرجل بمفرده، فقد "تكتل الصعاليك كتلاً، وكونوا لهم فرقاً، تكونت من أشتات وأنماط من الرجال، فيهم الحر الثائر، وفيهم الضال الغاوي، وفيهم الأسوَد العبد، وفيهم القاتل الفاتك. وهم في الأغلب من قبائل مختلفة ومن بطون متنافرة، فلا تجمعهم عصبية قبلية، ولا نخوة العشيرة، ومع ذلك فيهم رابطة قوية، ووحدة جمعت بينهم، وهي وحدة الدفاع عن النفس، والذب عنها، والكفاح في سبيل المعيشة " [٢]. فإذا أغاروا على قوم، أو نهب أغاروا في جمع متعاون يدافع كل منهم عن الآخر، حتى إذا انتهوا من غزوهم وزعوا الغنائم على بعضهم بالتساوي، فكلما كثر عددهم قلّ نصيب الواحد منهم، فلا يجد نفسه حظِيَ إلا بما يكفيه لفترة قصيرة، فما أن ينتهي نصيبه حتى يعاود الفقر إليه من جديد، لذا كنا نلاحظ بعض الصعاليك يفضل أن يغزو بمفرده حتى يحظى بالقدر الأكبر الذي يقيه الفقر مدة طويلة، لذلك كان الصعلوك متقبلا تناوب الفقر والغنى في حياته، يقول الشنْفَرَى:

وأُعدِم أحيانـاً وأغْنَى وإنمـا ... ينَـالُ الغِنَـى ذوالبـعدةِ المتَبـذلُ

فلا جـزع مِـن خَلـةٍ متكشـفٌ ... ولا مـرح تَحـتَ الغِنَـى أتَخَـيلُ [٣]

وهذا يعني أن بعضا منهم كان يفضل جمع المال لينهيَ من حياته الفقر، ولكن بعضهم الآخر كان يرفض هذا المبدأ فينفق كل ما غنمه من غزوه سريعا إما على نفسه، أو أهله، أو على المحتاجين من أصدقائه، كما فعل عروَة بن الوَرد مع أصحاب الكنيف، أو لأنهم "في خوف من متعقب يتعقبهم، لاسترداد ما أخذ أو سلب، ومن متربص يتربص بهم الدوائر، ليأخذ منهم ما غنموه بالقوة من غيرهم أو ما قد يجده في أيديهم " [٤]، ويوضح تأبطَ شَراً هذا، قائلا:

قَليـل ادخَـار الـزادِ إلا تَعِـلةً ... وقَـد نَشَز الشرسوفُ والتَصقَ المِعى [٥]

ولعل المتأمل في شعر الصعاليك يلاحظ أن علاقتهم بالفقر كانت علاقة تلازم، فالفقر "لم ينفر منهم، ولم يبتعد عنهم لذلك كثر الحديث عنه في شعرهم وفي أخبارهم. وقد كانوا يهربون

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣١٥.(ذئب: شديد الحر، المناقب: الأماكن، العراء: الصحراء الفاحلة، الشعث التوالب: شبه أولاده بجحاش الحمير، المصرمين: الفقراء، اللامحين: الناظرين).

[٢] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦١١.

[٣] الشنفرى، الديوان، ص٦٩.(أعدم: أفتقر، الجزع: الخوف، الخلة المتكشف: الذي يكشف فقره للناس).

[٤] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦٠١.

[٥] تأبط شرا، الديوان، ص١١٥.(التعلة: القليل الذي يسد به الرمق، الشرسوف: أضلاع الصدر، نشز: برز، المعى: الأمعاء).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منه، لكنهم لم يفلتوا منه، فقد كان ممسكاً بهم، ملازما لهم ما داموا صعالكة "[١]. لذلك كان له تأثير في حياتهم، ظاهر وآخر خفي.

فالتأثير الظاهر اقتصر على مظهرهم الخارجي، حيث خلّف الفقر أجساما هزيلة، ووجوها شاحبة، وملابس بالية خرقة ممزقة لا تقي أجسامهم أثر الطبيعة، فالشنْفَرَى يصف هزال جسمه وقت النوم بأنه لا يبلغ الأرض لأن عظامه وفقرات ظهره البارزة تحول بينه وبين الأرض وأنه حين يتوسد ذراعه يجدها عظاما كالحديد لقلة لحمها، قائلا:

وآلَفُ وجه الأرض عِنْد افْتَراشِها بأهـدَأَ تُنْبِيـهِ سنَاسِـن قُحـلُ

وَأَعدِلُ منْحوضاً كـأن فُصوصه كعاب دحـاهـا لاعِـب فَهـي مثّـَلُ [٢]

وأبو كَبِيرالهذَلِي يصف هزال تَأَبطَ شَراً بنفس الصورة، فإن نام على الأرض لا يمسها من جسمه إلا منكباه وطرف ساقه وهذا من الجوع والفقر، قائلا:

ما إِن يمـس الأَرض إلا منْكِـب مِنْه وحرفُ الساق طَـى المِحمـَل [٣]

ويصف أبو خِرَاش الهذَلِي نحول رفيقه في الصعلكة بأن كل ما يرى منه يابس، فجسمه عظم بلا لحم، وساقاه لا يرى فيها إلا العظم ، بينما كفّاه بارزة أعصابها، قائلا:

سمح مِن القَومِ عريـَان أَشَاجِعـه خَف النواشِـر مِنْـه والظنَـابِيـب [٤]

وقد وصف تَأَبطَ شَراً هزال شخص مجهول، بأن وجهه شاحب مصفر وعظام صدره بارزة لعدم وجود لحم عليها، قائلا:

مـا إن أَراك وأنْـتَ إلا شَاحِب بادِي الجنَاجِن نَاشِـز الشـرسـوفِ [٥]

والحديث عن ملابسهم البالية شمل نعالهم وأثوابهم، التي تمزقت من كثرة استعمالها في الأراضي القاسية، فلفقرهم لم يستطيعوا تبديلها بشراء غيرها، يقول الشنْفَرَى بأنه فقير لا يملك سوى نعلين قديمتين لا يمكن معالجتها بالخياطة، وملاءة بالية ممزقة لا تقي جسمه من الطقس القاسي :

---

[١] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦٠٦.

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٦٧.(آلف: أتعود، الأهدأ: الجسم الشديد، تنبيه: ترفعه، السناسن: فقار العمود الفقري، قحل: يابسة، أعدل: أتوسد، كعاب: ما بين الأنبوبين من القصب، ماثل: منتصب).

[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٠٧٤.

[٤] المصدر نفسه، ٣م، ص١٢٣٣.(عريان الأشاجع: ليس بكثير اللحم، النواشر: عصب ظهر الكف).

[٥] تأبط شرا، الديوان، ص١٢٠.(الجناجن: عظام الصدر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس جهازي غَير نَعلين أسحقَتْ صدورهمـا مخْصـورةً لا تُخَصفُ

وضنيةٍ جـردٍ وإخْـلاق ريطَـةٍ إذا أنْهجـتْ مِـن جانِـبٍ لا تُكَففُ [١]

ويشبه أبو خِرَاش الهذَلي نعله الممزقة بالهيكل العظمي لطائر السمان بعد أن يؤكل لحمه، ففي نعله من الخروق مثل ما بين أضلع الهيكل، ويقول إنه حين يضطر إلى السير بنعله في الندى والمطر يفضل نبذها والسير على قدميه، يقول:

ونَعلٍ كأشْـلاءِ السمانَى نَبذْتُـها خِلافَ نَدى مِن آخِـرِ الليلِ أورهِمِ [٢]

بينما لا يجد الشنْفَرَى أحيانا نعلا بسبب الفقر فيضطر للسير حافيا، يقول:

فإما تَريني كابنَةِ الرمل ضاحـياً علـى رقـةٍ أخْفَـى ولا أتنعـلُ [٣]

أما التأثير الخفي (الداخلي) فقد نمى في نفوسهم أن الفقر مذلّة، ينزل بصاحبه إلى درجة من الهوان على الناس، وعلى الأقارب والزوجات، وينظر الصعاليك إلى الفقر أنه "أول عوامل هدم الكيان الاجتماعي للمرء، فالفقير شخص مَهين في المجتمع طالما كان فقيراً، وأنّى له الخروج من هذا الفقر، في مجتمع يزداد فيه الفقراء كل يوم فقرا، ويزداد فيه الأغنياء كل يوم غنى" [٤]، وقد برزت هذه النظرة في شعرهم، يقول عروَة بن الوَرد:

المـالُ فيـه مهابـةٌ و تَجِلـةٌ والفَقْـر فيـهِ مذَلـةٌ و قُضـوح [٥]

ويرى عروَة أن الفقير هو شر الناس، فهم يبعدون عنه، ويتحاشونه، ويستهينون به، ولا يشفع له حسب أو أصل أوحسن هيئة، وهذا احتقار شامل من كل الناس، فأهل النادي [٦] في الحي يستبعدونه، وزوجته تحقّره، وابنه يصرخ في وجهه ويزجره، بينما في المقابل نجد الغني محاطاً بالاحترام والتعظيم ولا تُحسب ذنوبه مهما كثُرت، يقول:

دعينـي للغِنَـى أسعـى فإنّـي رأيـتُ النـاس شَرهـم الفقيـر

وأبعدهـم وأهونُـهـم عليهـم وإن أمسـى لـه حسـب وخِيـر

---

[١] الشنفرى، الديوان، ص٥٣.(الجرد والإخلال: البلى، الريطة: الملاءة، أنهجت: بليت).

[٢] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٠٣.(أشلاء: بقايا عظام الجسم، الرهم: المطر الضعيف).

[٣] الشنفرى، الديوان، ص٦٨.(ابنة الرمل: الحية، ضاحيا: بارزا للحر والقر، الرقة: الفقر).

[٤] حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص١٨٥.

[٥] عروة بن الورد، الديوان، ص١١٠.(التجلة: العظمة، الفضوح: كشف المساوئ).

[٦] النادي: المجلس، وفي الجاهلية كان سادة القبيلة وأشرافها يجتمعون في هذا النادي يتشاورون ويديرون أمور القبيلة. أنظر: لسان العرب، مادة (ندي).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقْـصِيـه النَـدِي وتَـزدريـهِ حليلتُـه ويَنْـهـره الصـغيـر
ويلقَى ذو الغِنَـى ولَـه جـلالٌ يكـاد فـؤاد صـاحِبِـهِ يطيـر
قَليـلٌ ذَنْبـه والـذَنْـب جـم ولـكـن لِلْغَنِـي رب غَـفُـور! [١]

ولعل ما غرس في نفوسهم هذه النظرة، تجاربهم في الحياة، والوضع المهين الذي كانوا يعيشونه، فقد كانوا عاجزين عن فعل الفضائل والقيم التي تمحو الهوان وتجلب لهم الاحترام، وذلك لفقدهم المال، بينما الأغنياء يتمتعون بالمال، ويكسبون الحمد وهم لا يستحقونه، لطمعهم وتكبرهم، يقول مَالِك بن حَريم:

أُنِيْـتُ والأيـَام ذاتُ تَجـارِبٍ وتُبدي لك الأيـام ما لَسـتَ تَعلَـم
بِأن ثَـراء المـال يَنْفَـع ربـه ويُثْني علَيـهِ الحمـد وهو مذَمـم
وأن قَليلَ المـال للمَـرءِ مفْسِـد يحـز كما حـز القَطيـع المحـرم
تَرى درجاتِ المجدِ لا يستَطيعـها ويقْعُـد وسـطَ القَـومِ لا يتَكَلّـَم [٢]

وهذا لا يعني أن هؤلاء الفقراء استسلموا للواقع المرير، بل حاولوا جاهدين القضاء على الفقر، و "كانوا تواقين إلى أن يحيوا حياة أرقى مما يحيون" [٣]، وكانوا " أدق حسا، وأبعد أملا من بعضهم الأخر" [٤]، لذا تحول الواقع المرير إلى جرأة وشجاعة وإقدام، وهذا لا يمنع لأنهم كانوا مؤهلين للبطولة، " ففي قلوبهم شجاعة، وفي أجسامهم قوة وفتوة، لهذا كانوا يثورون ويغنمون عنوة ما قد حرموه، ويجدون سعادة في أن يثأروا لأنفسهم من ذوي الحِدَة" [٥]. وقد كان عروَة بن الوَرد -أبو الصعاليك- يغرس في قلوبهم الشجاعة والجرأة بأن يرفضوا ذلّ الفقر ويسعوا في بلاد الله الواسعة بدلا من الاتّكالية والكسل، فيحققوا رزقهم أو يموتوا أعزاء، يقول:

فَسِر في بلادِ اللّهِ والتَمِس الغِنى تَعِشْ ذا يسارٍ أو تمـوتَ فَتُعـذَرا [٦]

وكانت تصل جرأتهم وشجاعتهم إلى أن يدفعوا بأنفسهم إلى مجابهة المخاطر محاولين القضاء على الفقر، يقول عروَة بن الوَرد:

ومن يك مِثْلي ذا عِيالٍ ومقْتِـراً مِن المال يطْرح نَفسه كُل مطْرح

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص١٧٤-١٧٥.(الخير: الأصل، ازدرى: احتقر، جم: كثير).

[٢] المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ٢م، ص٨٢٢.(يحز: يؤثر في النفس حزنا، القطيع المحرم: الذي لم يمرن ويلين).

[٣] الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٢٢٨.

[٤] المصدر نفسه، ص٢٢٤.

[٥] المصدر نفسه، ص٢٢٨.

[٦] عروة بن الورد، الديوان، ص١٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لِيبلُغَ عـذْراً أو يصِـيب رغِيبـةً ومبلِغُ نَفْـــس عذْرها مِثلُ منْجِح [١]

فالفقر هو الذي غرس في قلوبهم الشجاعة، فدفعهم إلى الإقدام بكل جرأة على السلب والنهب، ويوضح السلّيك بن السلكة هذا المعنى بوصفه إحدى غاراته التي غنم فيها ثروة من الإبل بعد أن قتل صاحبها، مبينا أن دافعه لهذه الغارة معاناته من الفقر والتشرد مدة من الزمن حتى أشرف على الموت، حيث كان الجوع يلاحقه حتى في فصل الصيف، فصل الخيرات، فبلغ حاله سوء، وأصيب بالدوار، فأظلمت عيناه وزاغ منه البصر، يقول:

وعاشيـةٍ رج بِطـانٍ ذَعـرتُـها بِصـوتٍ قتيـلٍ وسطـها يتَسيفُ
....
وما نِلتُها حتّـى تَصعلكْـتُ حِقْبةً وكِـدتُ لأسـبابِ المنِيـَةِ أعـرِفُ
وحتّى رأيتُ الجوع بالصيفِ ضرني إذا قُمـتُ تَغْشاني ظِـلالٌ فأُسـدِفُ [٢]

يقول أبو خِرَاش الهذَلي مدافعا عن ابنه الذي فر في غزوته التي غزاها مع عمه عروَة، إن سبب غارته لم يكن عداوة بينه وبين أحد وإنما الرغبة في دفع غوائل من الجوع أضرت به، فلما لم تتح له الغنيمة آثر النجاة:

ولم يـك مثْـلُ وج الفُـؤَادِ مهبجا أضاع الشباب فِى الربيلةِ والخَفْـض
ولكِنـه قَـد نَازعتْـه مخَامِـص على أنه ذُو هِـرةٍ صـادِقُ النهـض
كـأنـهم يشبـَثُـون بِـطَائِـــر خَفِيفِ المشَاش عظْمه غَير ذِى نَحض [٣]

ولم يقتصروا في التعلم من الفقر على الشجاعة والبطولات الحربية، بل تسلل الفقر إلى شخصياتهم وميزها ببعض البطولات النفسية والخلقية، فبالنسبة للبطولات النفسية، تولدت العزة والإباء في نفوسهم بتفضيلهم الموت على حياتهم، "فما دامت حياة الصعلكة جوع وفقر، وإملاق وهرب من متعقب، فالموت خير للصعلوك من حياة يعيشها فقيرا، لا أقارب له تعطف عليه، ولا أهل يشفقون عليه، ولا قوم يراجعونه ويتعهدونه بالحماية" [٤]، يقول عروَة بن الوَرد:

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص١٠٥.(الرغيبة: ما يرغب فيه، منجح: من ظفر بالشيء).

[٢] السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٣-٨٤.(العاشية: الماشية التي ترعى بالعشاء، رج بطان: سمينة ممتلئة البطون، ضرني: أهزلني، أسدف: أنام أو أغمى).

[٣] الشنقيطي، محمد بن محمود بن أحمد، (ت١٩٠٤م).ديوان الهذليين، ط٣، ج٢، (قدمه أحمد الزين)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٥٨.(مثلوج الفؤاد: ضعيف جبان، الربيلة: كثرة اللحم، الخفض: المقام، خفيف المشاش:قليل اللحم، نحض: اللحم).

[٤] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا المرء لم يبغثْ سواماً وَلم يرح عليهِ ولـ ـم تَعطِفْ عليهِ أقاربـه
فَللمـ ـَوتُ خَير لِلفَتَى مِن حياتِـهِ فَقيـراً ومِن مولى تَـرِب عقارِبـه [١]

فقد كانوا يتحملون الجوع باغتباقهم الماء القراح مخافة أن يحيوا الحياة الذليلة التي فضلوا الموت لكي لا يحيوها، يقول أبو خِرَاش الهذَلي:

وإني لأثْوِى الجوع حتـى يملنِـى فَيذْهب لم يدنِس ثِيابِى ولا جِرمِـي
وأَغْتَبِـقُ الماء القَـراح فَأَنْتَهـى إِذَا الـزاد أَمسى لِلمزلـج ذَا طعـمِ
أَرد شُجـاع البطْـن قَـد تَعلمِينَـه وأُوثِر غَيرى مِن عِيـالِكِ بِالطعـمِ
مخَافَـةَ أَن أَحيـا بِرغْـمٍ وذِلـ ـةٍ وللْموتُ خَير مِن حياةٍ على رغْـمِ [٢]

إن تحملهم الجوع باستمرار أدى إلى اعتياده، فنمت في نفوسهم قيمة الصبر، لأن "الأغذية وإتلافها أو تركها إنما هو بالعادة،.....، فالنفس إذا أَلِفت شيئا صار من جبلّتها وطبيعتها، .....، فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج، فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها" [٣]، فحياة الجوع أكسبتهم الصبر وقوة الاحتمال والزهد، وقد عبروا عن هذا الصبر في شعرهم، يقول الشنْفَرَى:

وأَطْوي على الخَمص الحوايا كما انْطَوتْ خُيـوطه مـاري تُغَـار ونُفْتَـلُ
وأغْـدو على الفـُوتِ الزهِيدِ كما غَـدا أزل تَهـاداه التنَـائِفَ أَطْحـلُ [٤]

وما داموا تعلموا الصبر، فهذا دليل على تعلمهم قيمة الحلم لأن الحليم من يصبر على السفهاء ويتمالك أعصابه أمام الجاهلين، فالصبر والحلم قيمتان متلازمتان[٥].

كما أجبرهم الفقر كذلك على استخدام عقولهم لإيجاد الحلول في أوقات الضيق والشدة لتترسخ بذلك قيمة الحزم في حياتهم، فقد وصف ابن خَلدون الفقراء في مقدمته أنهم أحسن حالا وأثقب ذهنا من أهل النعيم[٦]، لذا تجدهم يستخدمون عقولهم في المواقف التي لا تتطلب قوة أو صبرا، وقد تبين حزمهم كما في وصف الشّنْفَرَى لصديقه تَأبطَ شَراً بالأم الحذره، الذي كان

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص٨٩.

[٢] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١١٩٩.(أثوي: أطيل الحبس، جرمي:جسدي، المزلج:الذي ليس بالمتين).

[٣] ابن خلدون، المقدمة، ص٨٣.

[٤] الشنفرى، الديوان، ص٦٣.(الحوايا: الأمعاء، ماري: فاتل، الأزل: الذئب القليل اللحم، التنائف: الصحاري والمفازات).

[٥] ضناوي، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، ص١١٠.

[٦] ابن خلدون، المقدمة، ص٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائدهم في إحدى غزواتهم، فقد كان يقلل عليهم الطعام مخافة أن ينفد أو تثقل أبدانهم فلا يبلو بلاء حسناً في معركتهم، يقول الشنْفَرَى:

وأُم عِيـالٍ قـد شَهـدتُ تَقُوتُهـم إذا أَطْـعمتْهـم أَوتَحـتْ وَأَقـلّـَتِ

تَخَافُ علينَا العيلَ إن هي أكْثَـرتْ ونَـحـن جِـيـاع أي آلٍ نَـألـتِ [١]

أما بالنسبة للبطولات الخُلقية، فقد تعلم الفقراء منها الكرم والعفة، "فلم يستطع الفقر إضعاف العواطف الإنسانية في قلوبهم ونفوسهم بل زادها "[٢]، لأن حرقة الحرمان وألمه جعلتهم أكثر إحساسا بالآخرين وأكثر عزة عمن سواهم، لذلك كان الفقير أولى الناس بالكرم والعفة لأنه "ذاق طعم الجوع فلا يريد أن يذوق غيره من الناس هذا الطعم المرير، ولقد ثار في طلب القوت فلا بأس أن يبذله لمن لا يجده" [٣]، فقد كان الفقراء "يفرحون فرحا غامرا إذا استطاعوا رد غائلة الجوع عن ضيف أو فقير" [٤]، ولأنه "أحس بظروف الحياة المتقلبة وتربص الجوع به في كل يوم، ولدى الحل والتّرحال، وعرف أن الجوع يذلّ، وأن المعدة إذا خلت وعوى البطن، رخصت الكرامة وهانت، فراح يكتفي بالزاد القليل، ويدرب جسمه على الحرمان أثناء توافر الغذاء والماء، كل ذلك حتى يستطيع كبت جماح نفسه في زمن الشدة، وحفظ مظهر القوة والتجلد لذاته" [٥]، لذا فقد حَرَمَ نفسه ليسيطر عليها وقد أوضحت هذه السيطرة عفّة الشنْفَرَى، حين قال:

وأَغْدو خَمِيص البطْن لا يستَفِزنِـي إلى الزادِ حِرص أو فُـؤاد موكـلُ [٦]

إذن تبين مما سبق قيمة الفقر في حياة الصعاليك، حيث رسم شخصياتهم ووجه سلوكهم لفعل البطولات التي كانت سائدة في عصرهم، وهذا دليل على أن تأثيره كان تأثيرا نافعا، ويمكن الاتفاق في هذا الرأي مع رأي الدكتور حسين عطوان في أن "البؤس والجوع طهر نفوس الصعاليك الفقراء ونزع من صدورهم الحقد والغل، فأصبحت الصعلكة عند أكثرهم مذهبا خلقيا رفيعا في الحياة يشبه نظام الفروسية" [٧]، ويستطيعون من خلاله تحقيق كثير من الفضائل لأنها

---

[١] الشنفرى، الديوان، ص٣٥.(أوتحت: أعطت عطاء قليل، العيل: الفقر، أي آل تألت: أي سياسة ساست).

[٢] الملوحي، عبدالمعين، (١٩٩٣). أشعار اللصوص وأخبارهم، ٣م، بيروت، دار الحضارة الجديدة، ص٧٨٦.

[٣] المصدر نفسه، ٣م، ص٧٨٣.

[٤] المصدر نفسه، ٣م، ص٧٧٥.

[٥] ضناوي، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، ص١١١.

[٦] الشنفرى، الديوان، ص٦١.

[٧] عطوان، بيئات الشعر الجاهلي، ص٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"كانت تقوم على البر والإيثار، وتروم تحقيق التكافل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء" [1]، حيث كانوا يغيرون على الأغنياء البخلاء ليكسبوا نعمهم ويحققوا بها المساواة بينما يقدرون الأغنياء الكرماء ولا يتعرضونهم كي يستمروا في فضائلهم على الفقراء.

[1] عطوان، بيئات الشعر الجاهلي ، ص٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثالث: النسب

كان النسب في الجاهلية ذا أهمية بالغة في حياة الإنسان العربي، فبه تُحدد طبقات المجتمع، ومكانة الأفراد ووظائفهم، ومعاملة الأفراد فيما بينهم، لذا كان العربي يسعى دائما لاختيار الزوجة الأصيلة التي تشاركه حياته، فيلد منها أبناء كاملين شريفي الأصل، "فشرف الأصل من أهم خصائص الشخص الكامل، أما من كان خسيس النسب فلا يصل إلى مرتبة الكمال"[١].

إن أصحاب النسب الأصيل كانوا يحتلّون المراتب العليا في المجتمع، فيتمتعون بالسيادة والملك والوساطة في حل الخلافات، ينقاد القوم خلف رايتهم، ويتبعون كل آرائهم وقوانينهم وأعرافهم التي يشرعونها، فالحرب والسلم برأيهم، والظعن والإقامة بأمرهم، والتحاكم بين الناس بحكمتهم وعدلهم، والأحلاف والاتفاقيات تخضع لمشورتهم.

ومما يؤكد حرص الجاهلية على صفاء هذا النسب، امتلاء الأدب الجاهلي بالتفاخر والتباهي بشرف الدم "لأن صاحبه له كل التقدير، كفء لكل شيء، صداقته غنم عظيم، وخِصامه شرف كبير، ومحاربته زهو وعجب، وقتله في الثأر شفاء ورضى للموتورين" [٢].

ولكن هذا العامل لم يكن مهماً بالنسبة لبعض صعاليك الجاهلية، فلم يكن المجال مفتوحاً أمامهم للتفاخر والتباهي كغيرهم من الجاهليين، ولكن كان بمنزلة المأساة ذات الأثر الواضح عليهم، مأساة لا ذنب لهم فيها سوى أنهم هجينون لا ينتمون لنسب أصيل صافٍ، ويمكن تقسيم هذه الفئة الهجينة من الصعاليك حسب نوعية هذا النسب إلى طبقتين:

الطبقة الأولى: هم الصعاليك أبناء الإماء السود، كالشنْفَرَى[٣]، وتَأبطَ شَراً [٤]، والسلَيك بن السلكة [٥]، وحَاجِز بن عَوف الأزدِي[٦]، وقد تأثرت هذه الطبقة بأمهاتها تأثراً ظاهراً، فورثوا

---

[١] الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص٩١.

[٢] المصدر نفسه، ص٩١.

[٣] ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، ص٣٧٩.

[٤] المصدر نفسه، ص٣٧٧.

[٥] السليك بن السلكة، الديوان، ص٤٥..

[٦] الزبيدي، تاج العروس، مادة (غرب).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهن سواد البشرة، لذلك سموا "أغربة العرب" [١]، وورث بعضهم منهن أيضا ملامح إضافية، فالسليك ورث الفم الأفقم [٢]، والشّنْفَرَى ورث الشفة الغليظة [٣]، وهي من ملامح العبيد.

كانت هذه الطبقة من الصعاليك تعامل معاملة سيئة من قبل المجتمع، معاملة مليئة بالاحتقار والدونية، لأن "المجتمع الجاهلي كان يرى في هذا الزواج زواجاً غير متكافىء" [٤]، ولم تكن هذه المعاملة ناتجة عن تجبر المجتمع الجاهلي أو ظلمه، وإنما كانت نتيجة المنزلة الوضيعة التي تحتلها الأَمَة، فالإماء "كن يخدمن الشريفات، وبعضهن كن عاهرات أو قينات يضربن على المعازف، ويغنّين في حوانيت الخمارين" [٥]، لذا كان آباؤهم يستعبدونهم، ويرفضون الاعتراف بهم.

إن حياة هذه الفئة بائسة لا يتحملها بشر، فهي "عرضة لكل أنواع الظلم والقهر والاستغلال والأخطار، وكانت حياة أفرادها سلسلة متصلة من العذاب والحرمان والإذلال، فلا قانون يحميهم ولا شريعة تنقذهم من هاوية الرق والاستعباد، ولا حق لهم بامتلاك شيء حتى أنفسهم لأن حق التشريع والتملك كان محصوراً بأيدي الطبقة العليا التي سنّت من الشرائع ما يوافق مصالحها"[٦].

بل كان كمن ينظر لهم المجتمع على أنهم عاجزون لا يحسنون المهام الصعاب التي يقوم بها الأحرار من شجاعة ومغامرات، وقد رد السلَيك بن السلَكة على هذا الاستهزاء بأنه قادر على الغزو وجني الغنائم من الأماكن التي يعجز عن الوصول إليها بعض الأحرار الجبناء، قائلاً:

بِحمـدِ الإلـهِ وامرئٍ هـو دلـني حـويتُ النِهاب مِن قَضيبٍ وتَحتَما
فَلَـو كُنتُ بعض المقرفين رددتُـها بخَطْمةَ إذْ هـاب الجبان وخَـيمـا
إذا أَرمـلُوا زاداً عـقَرتُ مـطيـةً تَجر بِرجـلَيها السريح المخَـدمـا [٧]

---

[١] الزبيدي، تاج العروس ، مادة (غرب).

[٢] قال السليك بن السلكة:

هزئت أمامة أن رأت بـي رقـة وفمـا بـه فقـم وجلـد أسـود

[٣] الشنفرى، الديوان، ص٩.

[٤] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص١٠٩.

[٥] بسبح، أحمد حسين، (١٩٩٥). وصاف الخيل في الجاهلية، (ط١)، بيروت، دار الكتب العلمية، ص١٣.

[٦] جوزي، بندلي، (١٩٨٣). تاريخ الحياة الفكرية في الإسلام، (ط١)، بيروت، دار الجيل، ص٢٨-٢٩.

[٧] السليك بن السلكة، الديوان، ص٩٤-٩٥.(القضيب وتحتم: مواضع باليمن، المقرف: الذي دانى الهجنة، خطمة: موضع، خيم: تراجع ونكص، أرملوا زادا: نفذ زادهم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرد تَأبطَ شَراً أيضاً على هذا الاستهزاء مادحاً نفسه بالشدة، ولعله بهذا لا يقصد نفسه فقط بل يقصد أمثاله من أبناء الإماء، فهن لا يلدن سوى الأشداء الأقوياء، قائلاً:

وما ولدتْ أُمي مِن القَومِ عاجِـزاً ولا كان ريشِي مِن ذُنَابِي ولا لغْـبِ [١]

وكانوا يستعبدونهم ويعتقدون أنهم لا يجيدون سوى مهام العبيد كالحلاب والصر[٢]، ويوضح تَأبطَ شَراً هذه النظرة حين يدافع عن نفسه فينفي عنها هذه المهام، قائلاً:

ولستُ بِراعِي ثَلةٍ قَـام وسـطَها طَويل العصا غُرنَيق ضحلٍ مرسل
ولا هِلـع لاعٍ إذَا الشـولُ حاردتْ وضنتْ بباقـي درهـا المتَـنَزل
ولستُ بِتـرعِي طَـويلِ عـشَاؤُه يـُؤَنفُها مـستأنَفَ النبتِ مبـهل [٣]

أما الطبقة الثانية: فهم الصعاليك أبناء "النّزائع" [٤]، ومن هذه الطبقة عروَة بن الوَرد، فأبوه عَبسِي صاحب نسب شريف، أما أمه من قبيلة نَهد، قبيلة مغمورة غريبة عن قبيلة عَبس ولا تعادلها في أمجادها، ففي الجاهلية كان الغريب في عالم القبيلة يبقى غريباً خصوصاً إذا كان دخوله القبيلة دخولاً دونياً، كأن تأتي المرأة من أسر أو سبي أو أن تكون من قبيلة أقل شأناً وأمجاداً [٥].

وكذلك تُعامل هذه الطبقة من قبل مجتمعها معاملة سيئة، ولكن أهون من المعاملة التي يعاملها أبناء الإماء، فعروة بن الوَرد كان يعامل سيئا؛ لأن قبيلة أمه نَهد كانت "تنتمي إلى قُضَاعَة التي تيامنت إلى حِمَير وعدت في عرب الجنوب، ولأن بين عرب الجنوب اليمانية وعرب الشمال القيسية عداوة تقليدية لم تنطفىء جذوتها قط" [٦]، وتمثلت هذه المعاملة السيئة بأنه كان يعير دائماً من قبل فتيان الحي بهذه الأم وأنه ليس ذا نسب كريم، بل عير أيضا بوضعه المادي وعلاقاته الاجتماعية مع أنه ليس لهما صلة بالنسب، وهذا يدل على أن هدفهم كان فقط التعيير والتقليل من شأن هذه الطبقة، يقول عروَة بن الوَرد:

هـم عيرونـي أن أُمي غَريبـةٌ وهل في كريـ ـمٍ ماجدٍ ما يعيـر ؟

---

[١] ابن منظور، لسان العرب، مادة (لغب).(ريش لغب: فاسد).

[٢] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص١١١.

[٣] تأبط شرا، الديوان، ص١٧٣-١٧٥.(الثلة: قطيع الغنم، الغرنيق: الشاب الناعم الخامل، هلع: ضجر، لاع: جبان، حادرت ألبانها: انقطعت، الترعي: الراعي، المبهل: الراعي الذي يترك الإبل تسرح في المرعى).

[٤] هن النساء اللواتي يتزوجن من غير قبيلتهن. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (نزع).

[٥] عروة بن الورد، الديوان، ص٢٩.

[٦] المصدر نفسه، ص٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عيروني المـالَ حين جمعتُه وقد عيروني الفَقر، إذ أنَـا مقْتِـر!
وعيرني قومي شَبابـي ولمتـي متى ما يشا رهـطُ امرىءٍ يتَعيـر [١]

بل كانوا ينظرون إليه أنه الجبان الذليل المتنازل عن حقه، فالنزائع في نظرهم لا يلدوا الشجاع الثائر الذائد عن حقه، وقد تبينت هذه النظرة التي ينظرون إليه بها برده عليهم، قائلاً:

أعيرتُـموني أن أُمـي نَزيعـةٌ؟ وهلْ ينْجِبن في القومِ إلا النزائـع؟
وما طرِاب الأوتار إلاّ ابـن حـرةٍ طويلُ نِجادِ السيفِ عـاري الأشاجِع [٢]

إن هذه الفئة من الصعاليك "نبتت في أكثرهم عقد نفسية تكونت عندهم من سوء معاملة المجتمع لهم" [٣]، فأبناء الإماء يتعذبون نفسياً كلما تذكّروا نسبهم الذي يلاحقهم في كل وقت ولا يستطيعون نسيانه، يذكرهم به سواد بشرتهم وإهانة المجتمع لهم، وما يزيد من حِدة عذابهم عدم استطاعتهم تغيير هذا النسب أو القضاء على ظاهرة الاستعباد في مجتمعاتهم، يقول السلّيك بن السلكة:

أشـاب الـرأس أنّـي كـُل يـومٍ أرى لِـي خـالةً وسـطَ الرحـال
يشُـق عـلي أن يلـقين ضـيماً ويعـجِز عـن تَخلصِهن حـالي... [٤]

أما عروَة بن الوَرد ابن النزيعة فقد ولّدت عقدة النسب في نفسه نقمةً وغضباً على أمه وقومها فجره شعراً رفض فيه هذا النسب، فتراه يحمل أمه الذنب للوضع الذي هو فيه، فنسبها من أساء لحسبه، وحسب أبيه الذي كان ماجداً في قبيلته، يقول:

لا تَلُـم شيـــخي فـما أدري بـه غَير أن شـارك نَهداً في النَسـب
كان في قيـــس حسِـيباً مـاجِداً فأَتَتْ نَـهد عـلى ذاك الحســَب [٥]

كان يرى أن أمه وأخواله عار يلاحقه، حالوا بينه وبين المجد الذي كان يسعى إليه، لذا تمنّى لو كان وأبوه عبيدا في قبيلة نَهد ـ أخواله ـ بدلا من مصاهرتها، لأنهم كالثعالب الجبناء مراوغون، يحسنون التهرب إذا اشتدت الحرب، ويدعون القوة إذا زالت الشدة. ولعله يصرح في بعض أبياته أن عذابه من هذا النسب كان أقوى عليه من عذاب العبد المملوك، فالعبد يعرف

---

[١] عروة بن الورد، الديوان ، ص١٦٣.(مقتر: فقير، اللمة: شعر الرأس،).
[٢] المصدر نفسه، ص١٩١-١٩٢.(الأشجع: العصب الممدوم من بين الرسغ إلى أصول الأصابع).
[٣] على، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦٠٢.
[٤] السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٩.(وسط الرجال: وسط منازل الرجال، يشق علي: يثقل علي).
[٥] عروة بن الورد، الديوان، ص٨٥-٨٦.(نهد: قبيلة والدة عروة، قيس: قبيلة والده).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قيمته ومكانته في المجتمع، بينما هو متزعزع لا يعرف قيمته إن كان حرا أو عبدا، فمتى شاء القوم جعلوه كريما عزيزا، أوهجينا مهانا حسب حاجتهم ومصلحتهم منه، يقول:

ما بِي مِن عارٍ إخــــالُ عِلمـتُه	**سوى أَن أَخوالي إذا نُسِبوا نَهــد**
إذا ما ٌأردتُ المجد قَصـر مجدهم	**فَأعيـا علي أَن يقاربني مجـد**
فَيا ليتَهم لم يضربوا فـي ضـربةً	**وَأني عبــد فيهم وَأبي عبـْد**
ثَعالب في الحربِ العوان فَإِن تَبخْ	**وتَنْـفَرِج الجلـى فَهم الأُسـد** [١]

لقد ملّ هؤلاء الصعاليك المعاملة الدونية من قبل مجتمعاتهم، حيث كانوا ينظرون إلى "أن الفرد ينبغي أن يكون ذا شأن في مجتمعه أياً كان هذا الشأن فإذا لم يتح له وضعه الاجتماعي أن يكون في المكان المرموق من السيادة أو الفروسية أو حصانة الجانب، فليسلك أي طريق تجعله في مكان مرموق" [٢]، لذالك حاولوا أن يبحثوا عن سبيل يغيرون به هذه المعاملة، ويجبرون آباءهم على الاعتراف بهم، فلم يجدوا أمامهم سوى أن يمحوا صورة الأم، تلك الصورة القاتمة التي كانت تلاصقهم فجلبت لهم الاحتقار والازدراء.

وبما أن القبيلة في الجاهلية كانت تكن كل الاحترام والتقدير للبطل، وتنظر له على أنه "الفارس والمنقذ المخلّص" [٣]، وتلجأ إليه في أوقات الشدة والضيق كي يخلصها بشجاعته وحكمته وعطفه، بل من شدة احترامها له كانت تُسوده، وتُرجع له الرأي في كل أمر، فكما قال البغدادي في خزانته: "كان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والتواضع، والبيان" [٤]، وهي بعض الصفات التي يمتاز بها البطل المثالي.

والعربي كثيرا ما يستعبد أبناءه من أمَتِه، ويرفض الاعتراف بهم إلا إذا أبدوا نجابة وامتيازاً، وينظر لهم أنهم لا يجيدون من الأعمال سوى الحلاب والصر كما جرى مع عَنْتَرَة بن شَداد وأبيه.

لذالك أقبلوا على فعل البطولات الحربية، والمثالية كي يثبتوا لآبائهم وأقوامهم أنهم لا يحسنون أعمال العبيد بقدر ما يحسنون الأعمال البطولية، فيعترفوا ويفخروا بهم دون حرج،

---

[١] عروة بن الورد، الديوان ، ص١١٣-١١٤.(الحرب العوان: المترددة، تبخ: تخمد وتسكن).

[٢] حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص١٨٤.

[٣] أنظر الفصل الأول، ص٤٦.

[٤] البغدادي، خزانة الأدب وإب لباب لسان العرب، ج٣، ص٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكي يلفتوا أيضاً انتباه القبيلة نحوهم فتتغير نظرتها الوضيعة لهم، فلا تفرط بهم لأنهم من يجلبون الهيبة لها، فكلما زاد عدد أبطال القبيلة زادت قوتها وهيبتها بين القبائل، لذلك كانت تحرص القبائل على غرس الشجاعة والقيم المثالية في نفوس أبنائها منذ الصغر حتى تزخر حياتهم بالبطولات التي تعود عليها بالمنفعة.

وقد تبين للناظر في شعر الصعاليك الهجناء هذا الدافع، حيث كانوا يتجهون برسائل وخطابات لأقوامهم بأعمالهم البطولية متفاخرين ومصورين ما جرى بها، لكي يثيروا إعجابهم بهذه البطولات، ويحققوا ذاتهم في المجتمع، فقد أطلق تأبط شَراً خطاباً لقبيلته بغارته منفردا على قبيلة خَثعَم وما جرى بها من أحداث [1]، فقد أعجزهم حتى بعد استعانتهم بكاهنهم فارا بقدميه السريعتين، التي طالما كانت عذابا لقبائل خَثْعَم، وبَجِيلَة، وثُمَالَة، وهذَيل، وأزد، يقول:

ألا أبلِغْ بني قَهمٍ بن عمرو	على طُول التنَائِي والمقالَه
مقَالَ الكَاهِن الحامِي لمَا	رأى أَثَري وقَد أَنْهبتُ مالَه
رأى قَدمي وفْعهمَا حثِيثٌ	كَتَحلِيل الظَلِيمِ دعَا رئَالَه
رأى بهمَا عَذَاباً كُل عَامٍ	لِخَثْعَم أو بجِيلَة أو ثُمَالَه
وشَر كَان صَب على هَذَيلٍ	إذَا عِلقَتْ حِبَالُهم حِبَالَه
ويَوم الأزدِ منْهم شَر يَومٍ	إذَا بعدوا فَقَد صَدقْتُ قَالَه [2]

ويوجه إليهم أيضا بطولة نادرة كالمعجزة لا يقوى أحد عليها، فقد هاجمه عدو في الصحاري الموحشة ليلا في (رَحَى بِطَان)، فلم يخف منه، بل هاجمه بسيفه اليماني فصرعه واتكأ عليه إلى أن طلع النهار حتى يتعرف عليه، فإذا بغول قبيح المنظر تجزع النفس لرأيته، يقول:

ألا هَن مبلِغٌ فِتْيَان قَومِي	بِمَا لا قيتُ عِنْد رحَى بِطَان
بأنِّي قَد لَقِيتُ الغُولَ تَهوي	بسهبٍ كَالصَّحِيفَةِ صحصحَان
فَقُلْتُ لهَا: كِلاَنَا نِضو أيْنٍ	أَخُو سفَرٍ فَخَلِّي لِي مكَانِي
فَشَدتْ شَدةً نَحوي فَأهوى	لهَا كَفِّي بِمصقُولٍ يمَانِي
فَأضرِبها بِلا دهش فَخَرتْ	صَرِيعاً لليَدين و للجِران

[1] الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص١٥٧.

[2] تأبط شرا، الديوان، ص١٩٧-١٩٨.(تحليل الظليم: أسرع عدوه وأخفه، الرأل: ولد النعام، خثعم وبجيلة وثماله وهذيل والأزد: أسماء قبائل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَقَالَـتْ:عَـد، فقُلْـتُ لها: رويـداً مكَـانَـكِ إنّنِـي ثَبـتُ الجنَـان
فَلَـم أنْفَـكَ متـكِئـاً لَـديـهـا لأنْظُـر مصبِحـاً مـاذَا أتَـانِـي
إذَا عينَـان فـي رأسٍ قبيـح كَـرأس الهر مشْقُـوق اللسـان
وسافَـا مخْـدجٍ وشَـواهُ كَـلْـبٍ وثَـوب مِـن عبـاءٍ أو شِنَـان [١]

وكانوا يذكّرون القبيلة دائما بأنهم أبطالها الذين لا غنى لها عنهم. "وأنهم أفراد ينبثقون من صميم الأزمات، فيباشرون أفعالهم البطولية بدافع الالتزام، ويقْدمون على تحمل المسؤولية، في حين يتراجع الآخرون ويتذبذبون، مكافحين كي يوفروا الحياة الأفضل لها" [٢]، وقد تبين هذا المعنى في أبيات عروَة بن الوَرد حين أبدى قَيس بن زهَير سيد عَبس في حرب دَاحِسَ والغَبرَاء رغبته في رحيل عروة عن ديارهم، فتنبأ له عروة بالخذلان والهزيمة إذا رحل لأنه يرى نفسه سيف عبس، وصانع قوتها، دونه سوف يغدو قيس تبعا لكل حقير ذليل، يقول:

تَمنـى غُربتـي قيـس وإنّـي لأخشَى إن طَحـا بِـك ما تَقُـولُ
وصارتْ دارنـا شَحطـاً عليكُـم وجف السيفِ كُنـتَ بـهِ تَصـولُ
عليـك السـلام فَاسلَمهـا إذا مـا أَواك لـه مبـيـتٌ أو مـقيـلُ :
بِأن يعيـا القليـلُ عليـك حتـى تصيـر لـه ويـأكـلَك الذَليـلُ
فَإن الحـرب لـو دارتْ رحاهـا وفـاض العِـز واتِـع القَـليـلُ
فَكـنتَ كليلـةِ الشيبـاءِ همـتْ بمنْـع الشكْـر أتْأمـهـا القبيـلُ [٣]

وإذا جاءت سنين الجدب والقحط، وهبت الرياح الباردة التي لا تبقي حيوانا ولا نباتا، مما يجعل الزاد حينها قليلا يتهافت عليه البشر، فليس لكم غنى عن عروَة الذي يكرم ويطعم كل عيال الحي، ولا يقتصر كرمه على هذا، فإذا ما شبع الحي خصص حصة لجيرانه، وهذا كرم تشهد به قبائل قَيس بن عَيلان، يقول عروَة:

هلاّ سألـتَ بني عيلان كلـهـم عند السـنين، اذا ما هبتِ الـريح
قد حان قِدح عِيال الحي إذْ شَبِعوا وآخَر لِذَوي الجِيـران ممنُـوح [٤]

---

[١] تأبط شرا، الديوان ، ص٢٢٢-٢٢٧.(السهب: الفلاة، الصحصحان: المستوية الواسعة، نضو أين: هزال التعب، الجران: مقدم العنق، الجنان: القلب، المخدج: الناقص الخلق، الشواة: جلدة الرأس، الشنان: الزقاق الخلقة البالية من الجلد).

[٢] خليل، في النقد الجمالي: رؤية في الشعر الجاهلي، ص١١٦.

[٣] عروة بن الورد، الديوان، ص٢١٦-٢١٩.(طحا به: ذهب به، الشحط: البعد، يعيا: يعجز).

[٤] المصدر نفسه، ص١١١.(السنين: سنين القحط، القدح: سهم يستخدم في معرفة الحظ وفي الميسر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن ما سبق عرضه يبين أن البطولة قد تتولد في نفس الفرد نتيجة مأساة كان يعاني منها، وهذه المأساة كما يرى آرسطو لكي تحدث عند البطل "لابد أن يكون به ضرب من ضروب النقص يهيئه لمأساته، لأنها ـ المأساة ـ لا تهبط عليه من السماء بل تنزل به نزولاً طبيعيا" [١]، ولكي يغطي البطل هذا النقص الذي يعالج المأساة، كان دائما "طامحا إلى التميز والتفرد" [٢]، وهذا ينطبق على الصعاليك الهجناء، فقد كانت مأساتهم التي يعانون منها، هي المعاملة السيئة التي عاملهم بها المجتمع والنظرة الدونية التي كان ينظر لهم بها، وكانت بسبب نسبهم الذي شكل لهم نقصا في حياتهم، فسعوا جاهدين لفعل البطولات لسد هذا النقص الذي بدورة يعالج مأساتهم، فتطبعوا البطولة وأصبحت جزءاً من حياتهم.

[١] ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، ص١٣.

[٢] خليل، في النقد الجمالي: رؤية في الشعر الجاهلي، ص١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الرابع: المرأة

إن الصعلوك إنسان كسائر البشر، له قلب ومشاعر وأحاسيس، فهو يحب ويكره، يعجبه الجمال وتهزه المشاعر، له غرائز يسعى لإشباعها والتمتع بها، ومن أهم هذه الغرائز المرأة، يقول الدكتور ناصر الدين الأسد: "إن لذاذات الشاعر العربي تقوم على ثلاث دعامات: المرأة، والخمر، والغناء" [١]. أما الدكتور جابر عصفور فيحصر هذه اللذّات ما بين "المرأة، والخمر، والصيد" [٢]. وكلاهما يتّفق بأن المرأة أولى ملذّات الإنسان الجاهلي التي يسعى دائما للبحث عنها والتمتع بها.

ومادام هذا الشعور ينطبق على كل إنسان جاهلي سوي، فلماذا يحرم بعض الباحثين الصعاليك هذا الحقّ، ويزعم أن الصعاليك لم يتغزلوا ولم يحبوا وكأنهم جنس آخر ليس من جنس البشر، أو كأن قلوبهم ميتة لا تشعر ولا تحس فلا تهتز لشيء [٣].

ولعل البعض يعتقد أن ذكر هذا الرأي غير مهم في هذه الدراسة، ولكن العكس صحيح، فالمرأة- الزوجة أو الحبيبة- كانت بمثابة دافع قوي للبطولة والأخلاق المثالية في حياة الصعلوك، وقبل أن نوضح دورها هذا لابد أولا أن نتأكد من أن الصعاليك عرفوا الحب والتغزل في حياتهم، ولو بإيجاز.

إن الناظر في أشعارهم وأخبارهم يلاحظ ورود الكثير من أسماء النساء، وبعض القصص المليئة بالغزل والفراق والشوق، فقد أحب تَأبطَ شَراً امرأة جارية من قومه [٤]، والشنْفَرَى أحب فَعسوس السلامانية [٥]، والسلّيك أحب امرأتين هما: أُمَامَة ونُشَيبَة [٦]، وعَمرو ذو الكَلْب أحب أم جليجة [٧]، وقيس بن الحِدَادِية أحب نُعم بنت ذُؤَيب الخُزَاعِي [٨]، أما مَالِك بن حَريم فقد أحب سلْمَى [٩].

---

[١] الأسد، ناصر الدين، (١٩٨٨). القيان والغناء في العصر الجاهلي، (ط٣). بيروت، دار الجيل، ص١٦٥.

[٢] جابر، عصفور، (١٩٩٥). حكمة اللذة، مجلة العربي، (٤٤٣)، ص١٦٥.

[٣] راجع كل من: خفاجي، الشعر الجاهلي، ص٢٥٣/ الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٢٣٤.

[٤] الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص١٤٢.

[٥] المصدر نفسه، ج٢١، ص١٨٦.

[٦] السليك بن السلكة، الديوان، ص٦٥-٦٦.

[٧] الأصفهاني، الأغاني، ج٢٢، ص٣٥٤.

[٨] المصدر نفسه، ج١٤، ص١٥٢.

[٩] موسوعة الشعر العربي، ١م، مرجع سابق، ص٢١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في حين نجد بعضاً منهم كان متزوجا ويعيش الحياة الزوجية كالشنْفَرَى [١]، وعروَة بن الوَرد[٢] ، وتَأبطَ شَراً [٣]، وأبِي خِرَاش الهذَلي [٤]، وأبِي الطمَحَان القَيني [٥]، وأبِي جنْدب الهذَلي[٦]، وقيس بن العَيزَارَة [٧]، وأخيراً أبِي كَبِير الهذَلي[٨].

إضافة إلى أن العديد منهم تفاخر بسبيه النساء ونكاحهن والتغزل بهن، لأن هذا كان من مفاخر البطل الشجاع في العصر الجاهلي وكان يشعره بالانتصار وإذلال العدو.

كل هذا جدير بأن يثبت أن "الصعاليك كانوا كغيرهم من الجاهليين، عرفوا الحرمان في حبهم، وأحسوا مرارة الفراق، وبكوا وشكوا ، فهم في النهاية يحملون قلوبا مثل الآخرين" [٩].

ولكن على ما يبدو أن المرأة كان لها موقف مضطرب من الصعاليك، فقصص الفراق التي وردت في بعض أشعارهم، وتذكّر طيف الحبيبة، ووقوف بعضٍ منهم على الأطلال، كان حرياً به أن يثير الشك في أمور عدة، فالصعاليك لم يكونوا سعداء في حياتهم مع المرأة، وأن علاقتهم بها كانت لا تدوم لفترات طويلة.

والواضح من هذه المواقف أن الصدود والهجران كانا من جانبٍ واحدٍ، هو جانب المرأة؛ لأن الصعلوك في أغلب الأحيان كان يبدي تلهفه على الحبيبة، وحرقته من هذا الفراق، لذلك سنرجع إلى أشعارهم لمعرفة بعض الحقائق التي تدور حول هذه العلاقة. ولكن لن أذكر كل المواقف، وإنما سأقتصر على ما يفي بالغرض، وبعض مواقف العاذلة لن نذكرها في هذا المقام لأنها كانت تمثل دوراً فنّيا أكثر مما يكون عمليا كما اعتقد بعض الباحثين [١٠]. "فالشاعر في

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص١٨٦.

[٢] عروة بن الورد، الديوان، ص٣٠-٣٢.

[٣] الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص١٤٦.

[٤] المصدر نفسه، ج٢١، ص٢١١.

[٥] المصدر نفسه، ج١٣، ص١١.

[٦] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٦٢.

[٧] المصدر نفسه، ٢م، ص٦٠١.

[٨] الصفدي وحاوي، موسوعة الشعر العربي، ١م، ص٦٤٢.

[٩] ربيع، عقل سليمان، (١٩٩٨). المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ص٤٢.

[١٠] يوسف، حسني عبدالجليل، (١٩٨٩). العذل في الشعر الجاهلي، القاهرة، مكتبة الآداب، ص٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجاهلية كان يتخذ من جدله مع العاذلة أداة للتفاخر بنفسه وشجاعتها وإبراز صفاتها المثلى" [١]، وهو ما سيرد ذكره في الفصول اللاحقة التي تختص بتسليط الضوء على صور البطولة عند الصعاليك.

والتساؤلات التي تطرح نفسها هنا ويجب الإجابة عليها، ما موقف المرأة-الزوجة أو الحبيبة- من الصعلوك؟ وما الأسباب التي أسهمت في عدم سعادتهما واستمرار علاقاتهما؟ وما السلوكيات والحلول التي كان يقوم بها الصعلوك ليحافظ على استمرار اتصاله مع المرأة؟

لقد كانت بعض مواقف المرأة تجاه الصعلوك امتدادا لموقف المجتمع، فهي جزء لا يتجزأ منه وركن أساسي من أركانه، فكانت تنظر للصعلوك النظرة الدونية- الأغربة وأبناء النزائع- لنسبه الخليط، وتنظر له النظرة الفوقية- نظرة الأغنياء المتكبرين للفقراء- لفقره، وقد ازداد موقفها عن موقف المجتمع سوءا بسبب النظر في غرائزها، فاستهزأت بمظهره القبيح القذر، وعتبت على كثرة مخاطرته بحياته، كما صدت عنه لكبر سنه وانتشار الشيب في رأسه متهمة له بالعجز.

وقد عانى الصعلوك من هذه المواقف معاناة قاسية، أحدثت أثرا كبيرا في نفسه، خاصة إذا كانت زوجته، فهو لا يهتم لأي موقف أكثر من موقفها؛ لأنها أكثر الخلق دراية به، فإن هي ظلمته بنظرتها له، ماذا يكون من الناس الآخرين حوله، وقد صور عروَة بن الوَرد في شعره موقفا من مواقف المرأة تجاه الصعلوك، فهو لا يستطيع نسيان ظلمها له، حين وصفته بالحماقة، طالبا منها تصحيح موقفها بإخبارمن حولها أنه قوي العقل، واسع الحكمة، يقول:

وما أنْس مِ الأشْياءِ لا أنْس قولَهَا ... لِجارتِـها: ما إن يعيـشُ بِأحـورا

لعـلّكِ يومـًا أن تُسِـري نَدامـةً ... علي بما جشّمتنـي يوم عَضـورا

فَغُـربتِ إن لم تُخْبِـريهم فلا أرى ... لِي اليوم أدنـَى مِنْكِ عِلماً وأخْبـرا [٢]

ولكن الصعلوك كان حريصا دائما على إرضاء المرأة، وتقوية علاقته بها ليتمكن من إشباع غريزته، ويمارس حياته كغيره من البشر، فكان يقبل على فعل البطولات ليتفاخر أمامها فيشد انتباهها، ويغطّيَ على كل شائبة في حياته ممكن أن توتر وتفسد علاقتهما. فالمرأة بطبعها

---

[١] كفافي، منذر ذيب، (١٩٩٨). صورة المرأة في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ص٧٥.

[٢] عروة بن الورد، الديوان، ص١٣٩.(الأحور: العقل، غضور: ثنية بين المدينة وبلاد خزاعة، غُربت: دعاء بالغربة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"كلفة بالشجاعة والبطولة" [١] لأنها ضعيفة تريد من يحميها ويذود عنها، فدائما تتمنى في زوجها أو حبيبها التميز بكل عمل بطولي، وأن يكون "متحليا بالفضائل التي تعارفت عليها العرب، واقتضتها البيئة من كرم وشجاعة وأنفة وغيرها، فهي تؤثره جوادا، لأن جوده يحقق آمالها في حياة ناعمة، ويكفل لها شهرة وسيادة،....، وتريده أن يكون شجاعا، لتعتز بحمايته،....، ولتعلو مكانته في قومه" [٢]، فتشعر معه بالأمان، وتتباهى به أمام أقرانها من النساء، وتلد منه الأبناء الأبطال.

لذلك يلاحظ في بعض مواقفها منه أنه كان يرد عليها معدداً شجاعته وكرمه وكل خصلة أو عمل بطولي يمتاز به ليغير هذا الموقف. "فالشاعر العاشق دائما يسمو برجولته أمام المرأة"[٣]، وكأنه كان يفعل هذه البطولات والأفعال لإرضائها والاستحواذ على إعجابها، حتى لا ترى أفضل أو أخير منه.ومن هذه المواقف:

١- موقفها من النسب، وهو أول موقف لها تجاهه، وكان هذا الموقف من الأغربة فقط، فالمرأة في الجاهلية كان يهمها النسب في من تحب الاتصال به؛ لاعتقادهم أن النسب كان "معيارا أساسيا في تقويم الظاهرة البطولية، وأن عراقة النسب كانت ملازمة للفارس" [٤]، فقد سألت المرأة التي كان يحبها حَاجِز بن عَوف أولا عن نسبه وإلى أي قبيلة ينتمي، وقد رد عليها معرفاً بنسبه وانتمائه لقبيلة سلامان، وموضحاً سبب إقامته في قريش حيث كان حليفاً لبني مخزوم، قائلا:

قَومِـي سلامـان أما كُنْتِ سائِلَـةً وفِي قُرَيش كَرِيم الحِلْفِ والحسـبِ [٥]

وبين لها بعض أمجاد قومه متفاخرا بكرمهم وشجاعتهم ونجدتهم، فهم يكرمون الضيف في أصعب الأوقات، ويهزمون الأعداء، وينجدون أبناء العم أوقات الشدة، مذكّرها ببعض انتصارات أهله، وأنها لن تندم إن صاحبته، يقول:

صباحـكِ واسلَمـي عنـا أُمامـا تَحِـيـةَ واِمـقٍ وعِمِـي ظَلامـا

....

---

[١] الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص٣١٥.

[٢] المصدر نفسه، ص١٧٠-١٧١.

[٣] كفافي، صورة المرأة في شعر الصعاليك واللصوص حتى نهاية العصر الأموي، ص٥٩.

[٤] المرعي، فؤاد واسكندر، فايز، (١٩٨٨). مفهوم البطولي عند العرب قبل الإسلام، مجلة بحوث جامعة حلب، (١٢)، ص١٣١.

[٥] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلـي عني إذَا اغبـرتْ جمـادى وكـان طَعـام ضيـفِهم الثمامـا
ألسـنا عِصمـةَ الأضيـافِ حتـى يضحـى مـالُهـم نَفَـلاً تُوامـا
أبـي ربـع القَـوارس يـوم داج وعمـي مـالِك وضع السـهامـا
فَلَـو صاحبتِـنَا لرضِـيتِ منـا إذَا لَـم تَغْبـقُ المائـةُ الغُلامـا [1]

وكانت المرأة أيضا تعرض عن ذي النسب الوضيع، ولا ترضى به حبيبا أو زوجا، لأن مجتمعها سيذمها وينبذها إن قِبلت به، وقد وقع الشنْفَرَى في هذا الموقف حين صور ردة فعل "قعسوس" ابنة السيد الذي كان يعيش عنده، لما اقترب منها ليقبلها، فقد لطمته على وجهه لأن واقعه الاجتماعي حاصره في مكانة لا يجوز له الخروج عنها، فهي ترى أنه العبد الراعي وهي السيدة الشريفة ابنة الأسياد، لذلك رد عليها مدافعا عن نسبه، قائلا:

ألا هلْ أتى فتيـان قومي جماعـةً بمـا لطمتْ كف الفتـاةِ هجيـنها
ولو علِمـتْ تلْـك الفَتَاة مناسِبـي ونسبتَـهـا ظلتْ تُقاصِر دونَهـا
أليس أبِـي خَير الأواس وغيرهـا وأُمي ابنـة الخَيرين لو تَعلمِينَهـا
إذا مـَا أروم الـود بيني وبينَهـا يؤُم بيـاض الوجه مِنّي يمِينهـا [2]

٢- موقفها من الفقر. كانت تعيرهم به، فاندفعوا للمخاطرة بأنفسهم للقضاء عليه وإرضائها، فالأَحَيمِر السعدِي كان يغامر في حياته بالهجوم على قوافل التجار لكي يرضي المرأة التي تعيره، يقول:

تُعيرني الإعدام والبـدو معـرض وسيفـي بأموال التُّجـار زعيـم [3]

وأحيانا لا يكون هذا التعيير صريحا كالسابق، فيكون أشبه بالمعاتبة، فقد عاتبت "أم مالك" تَأبطَ شَراً على تلبد شعره، وعدم اهتمامه به، وقد علّلت هذا التلبد بالفقر؛ لأنها عهدته ميسور الحال، ومدهن الشعر من النعمة. لكنه رد عليها نافيا فقره، وأن تلبد شعره ناتج عن كثرة الحروب والغارات، فهو يقضي حياته يوما مقيما، ويوما مغيرا محققا المكاسب والغنائم، يقول:

ألا عـِـب الفِتْيان مِن أُم مالـِكٍ تقولُ: لقَـد أصبحتَ أشْعثَ أغْبـرا
قَلِيلَ الإنَاءِ والحـلُوبةِ بـعدمـا رأيتـُك بـراقَ الـمَفارق أيـْسرا

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص٢٣٤-٢٣٥.(الوامق: المحب،الثمام: نبت ضعيف، النفل: الهبة والعطية، ربع الفوارس:أخذ منهم ربع الغنيمة).

[2] الشنفرى، الديوان، ص٤١.

[3] القالي، الأمالي، ج١، ص٤٩.(الإعدام: الفقر، المعرض: الظاهر المشرف).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَقُلْتُ لهـا: يـومان، يوم إقامـةٍ ... أهز بِـهِ غُصنـاً مِن البان أخْضرا
ويـوم أهـز السيفَ في جِيدِ أغْيدٍ ... له نِسـوةٌ لـم تَـلْقَ مِثْلِي أنْكَـرا
ينُحـن عليـهِ وهـو ينْـزِع نَفْسه ... لـقَـد كُنْتَ أباء الظلامـةِ قَسورا
وقَـد صِحتُ فـي آثار حومٍ كأنها ... عذَارى عقَـيل أو بـكَارةُ حِميـَرا [1]

والحبيبة قد تصد حبيبها وتبتعد عنه بسبب الفقر، كما فعلت "نُعم" مع حبيبها قَيس بن الحِدَادِية، حين قالت له أنها لم تعد بحاجة ماسة له؛ لأنه شديد الفقر، لكنه لم ييأس منها فكان يتحمل ويبدي التضحية لها في كل شيء كي يثير إعجابها، ولعله نجح في هذا، فوقوفه في الحر الشديد فترة طويلة لإقناعها، جعلها تقدر مدى حبه لها إلى أن رضيت عنه، يقول قَيس:

فَجِئْـتُ كأنـي مستَضِيفٌ وسائِـلٌ ... لأُخْبِـرها كُـل الذي أنـا صانِـع
فَقَالَتْ: تَزحزح مـا بِنا كُبر حاجـةٍ ... إليـك ولا مِنـا لِفَـقْـرِك راقِـع
فَما زِلْتُ تَحتَ الستْر حتـى كأننـي ... مِن الحر ذو طِمرين في البحر كارِع
فَهـزتْ إلي الـرأس مِني تَعجبـاً ... وعضض مِمـا قَد فَعلْتُ الأصابِـع [2]

أما بالنسبة للزوجة فقد تهجر زوجها لفقره، فإذا لم يستطع توفير حاجاتها غضبت وعادت لبيت أهلها، وكان هذا موقف "أم الأديبر" زوجة أبي خراش، حيث اتخذت من فقر زوجها حيلة لها، فكانت كلما حنّت لأهلها وبلدها أثقلت على زوجها بالطلبات حتى يعجز عن تلبيتها بسبب فقره، فتتظاهر بالغضب وتذهب لأهلها، ولكنه كان يذكرها قبل أن تغادر بيته أنها لن تجد إنسانا أصبر ولا أشجع منه حتى من بين أهلها، وكأنه كان يذكر هذه القيم ليميز نفسه، فلا تستغني عنه وتتمسك به بقوة، يقول أبو خِرَاش الهذَلِي:

لَقَـد عَلِمـتْ أُم الأُدَيبِـر أَننِـى ... أَقُولُ لَها هـدى ولا تَذخَرِى لحمِى
فَإن غَداً إن لانَجِـد بعض زادِنَـا ... نُفِـئْ لَـكِ زاداً أَو نُعـدكِ بِـالأَزمِ
إِذَا هِى حنتْ لِلْهوى حن جوفُهـا ... كَجوفِ البعِير قَلْبها غَير ذِى عـزمِ
فَـلا وَأَبِيـكِ الخَيْـرِ لا تَجِدِينَـه ... جمِيلَ الغِنَى ولا صبوراً على العدم
ولا بطَـلاً إِذَا الكُـماةُ تَزيـَنـُوا ... لَدي غَمراتِ الموتِ بِالحالِكِ الفـَدمِ
أَبعـد بلائِى ضلتِ البيتَ مِن عمى ... تُحِب فِراقِـى أَو يحِـل لَها شَتْمِى [3]

---

[1] تأبط شرا، الديوان، ص٩٨.(الإتاء: الثمر، ينزع نفسه: يحتضر، القسور:القاهر، عقيل وحمير: قبيلتان).

[2] الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص١٥٤-١٥٥.(الطمر: الثوب البالي، الكارع:الشارب بفمه من موضع الماء بدون إناء).

[3] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١١٩٨.(الأزم:إمساك الفم عن الطعام، العدم: الفقر، الحالك الفدم:الدم الخاثر الأسود)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- موقفها من جماله ومظهره الخارجي، وفي هذا الموقف تحكّم المرأة غريزتها؛ لأن المرأة بطبيعتها تفضل أن يكون زوجها أو حبيبها حسن الوجه، طويل القامة، جذاب المظهر، وهذا ما تتمناه المرأة، فقد استهزأت "أُمَامَة" بالسليك بن السلكة لأنه نحيل الجسم، كبير الفم، أسود اللون، لكنه رد عليها مفاخرا ببطولاته التي يراها مقياسا حقيقيا للرجولة عنده، فهو الكريم المعطاء في أصعب الأوقات، والفارس الشجاع في أشد الأخطار، يقول:

هزئَتْ أُمامـةُ أن رأَتْ بـي رِقـةً ... وفَمـاً بِـهِ قَفَـم وجلـدٌ أسـود

أُعطِي إذا النفس الشعاع تَطلّعـتْ ... مالي وأَطعـن والفرائِـص تُرعـد [١]

وعاتبته أيضا على خشونته، وشظف عيشته فقاطعته، لأنه يعجبها من الرجال المتزينين، أصحاب الشعور الطويلة، لكنه لا يرى نفسه مع هؤلاء المترفين، محاولا إقناعها مرة أخرى بصفات الرجولة الحقيقية التي تثبتها الفعال وليس الجمال، والشكل، والشعر، يقول:

ألا عتَبـتْ علـيَّ فصـارمتْنـي ... وأَعجـبـها ذَوو اللِّمـمِ الطِّـوال!

فَإنِّـي يـا ابنـةَ الأقـوامِ أُربـي ... على فِعل الوضِـي مِـن الرجـال [٢]

كما استهزأت المرأة-الحبيبة- بالأُحَيمِر السعدِي لقصر قامته، مبديةً إعجابها بالرجل الطويل، فرد عليها غير مبال بالطول مادام حازما، يفصل في الأمور ويحسمها في أصعب الأوقات، يقول:

وقالـت أرى ربع القوامِ وشاقـها ... طويـلُ القنـاةِ بالضـحاءِ نـؤوم

فإن أكُ قصداً فـي الرجال فإنني ... إذا حـلّ أمـر ساحتي لجسيـم [٣]

٤- موقفها من الهَرَم، وهو موقف عام لا يقتصر على الصعاليك وحدهم، فالمرأة تأنف من الارتباط بكبار السن، وتفضل الشباب؛ لأن الرجل الشّاب "أثير مستحب، أدنى إليها سنّاً، وأشبه بها خلقا وميلاً، ولأنه في ريعانه وعنفوانه"[٤]، أما كبير السن الذي يتخال شعره الشيب فتشعر أنه عاجز قريب من النهاية؛ لأن "تحول شعر اللّمة إلى البياض، أول ملمح يهدد ظاهرة

---

[١] السليك بن السلكة، الديوان، ص٦٦.(الرقة: الفقر، القفم: أن تتقدم الثنايا السفلى فلا تقع عليها العليا إذا ضم الرجل فاه، النفس الشعاع: نفس مضطربة الفكر، تطلعت: ترقبت).

[٢] المصدر نفسه، ص٨٧.(صارمتني: قاطعتني، أربي: أزيد، الفعل الوضي: الحسن الجميل).

[٣] القالي، الأمالي، ج١، ص٤٩.(الربع: الوسيط القامة).

[٤] الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشباب" [١] التي يتمتع فيها الفرد بالنشاط والحيوية، ويصور عروَة بن الوَرد هذا الموقف حين نفرت النسوة منه ووصفنه بالكهل لما ظهر الشيب في رأسه، بعد أن كن يتنافسن عليه أيام شبابه، يقول:

ويدعونَني كَهلاً وقَد عِشْتُ حِقْبـةً وهـن عن الأزواج نَحوي نَـوازِع
كأنّي حِصان مـالَ عنْه جِلالُـه أغَر كريـم حولـه العـوذُ راتـع [٢]

لكن الصعلوك كان دائما يتحدى هذا الهَرَم باستمرار فعل البطولات حتى يثبت للمرأة أنه مازال قويا، وليس عاجزا، فلا تتغير النظرة إليه، وقد مثّل تَأبطَ شَراً هذا التحدي حين قالت زوجته سلمى لجارتها إنه كبر في السن، وعجزت قدرته، فرد عليها غاضبا مذكرها بسرعته وإقدامه، وأنها لم تعهده جبانا أو ضعيفا، بل كان يسبق الجيوش إلى المعارك فيكسوا الخيول بغباره، يقول:

تَقُـولُ سلَـيمـى لِجارتِـها: أَرى " ثَابتاً " يـقَنـاً حـوقَـلا
لَـها الويـلُ مـا وجـدتْ ثَابِـتاً ألَـف اليديـن ولا زمـلا
ولا رعِشَ السـاق عِنْد الجِـراءِ إذَا بـادر الحـمأةُ الهيضـلا
يفُـوتُ الجِيـاد بِتَـقْرِيبِـهِ ويكْسـو هوادِيـها القَسطَـلا [٣]

إن ما يظهر القيمة العالية للمرأة عند الصعلوك وحرصه على إرضائها، تفاخره ببطولاته في حديثه إليها، فقد "كان العربي كلفا بأن يشيد بمفاخره، ويذيع محامده، بتوجيه الخطاب إلى المرأة- زوجته أو حبيبته- وإشهادها على هذه المفاخر" [٤]،إلى أن أصبحت المرأة "رمزاً من رموز الفرسان، ووحياً من إيحاءات الأبطال الذين اتخذوا منها مركزاً قوياً لحركة القصيدة" [٥].

---

[١] كنعان، عاطف محمد مصطفى، (١٩٩٧). الانسان في الشعر الجاهلي في ضوء الدراسات الحديثة، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ص١١٧.

[٢] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨٧.(الجلال: الغطاء، العائذ: الأنثى إذا وضعت).

[٣] تأبط شرا، الديوان، ص١٦٢.(اليفن: الشيخ الكبير، حوقل: أدبر عن النساء، الزمل: الجبان، الهيضل: الجيش الكثير، التقريب: فوق المشي ودون العدو، يفوت: يسبق، الهوادي من الخيل: أولها، القسطل: التراب).

[٤] الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص٢٠٢.

[٥] نصير، أمل طاهر، (١٩٩٥). المرأة في الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص١٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد تفاخر عروَة بن الوَرد بكرمه في حديثه مع زوجته، فهو من يكرم الضيف المضطرب في أي وقت يقصده، ولا يستقبله إلا بالبشاشة والترحاب، حتى وإن كان لا يملك إلا المال القليل، لكي لا يشعر الضيف بأي ثقل أو تأوّف تجاهه، يقول:

سِلي الطارقَ المعتَر يـا أُم مـالِكٍ إذا ما أتاني بين قِدري ومجـزري
أَيسفِر وجهـي؟ أنـه أولُ القِـرى وأَبذُلُ معروفـي له دون منْـكَري؟
يريح علي الليلُ أَضيـافَ ماجِـدٍ كريمٍ ومالي سارحـاً مـالُ مقْـتِر (١)

وقد كان يواظب على كرمه حتى في وقت الشتاء حين يبخل الآخرون بعطائهم، فيستمر به إلى أن تدب الحياة في الطبيعة ويكثر خيرها، وذلك لكي لا يمسه أحد بذم ويحافظ بذلك على عرضه، فيصيبه الهزال طوال هذه الفترة -فترة الشتاء- لإيثاره الآخرين على نفسه، حيث لا يستطيع ردهم كما يفعل أولاد اللئام، يقول:

فَعيدكِ عمر اللّـهِ هـلْ تعلمينَنِـي كريماً اذا اسـود الأناملُ أَزهـرا
صبوراً على رزءِ الموالي وحافِظاً لِعِرضِي حتى يؤكَلَ النَبتُ أَخْضَـرا
أَقَب ومِخْـماص الشِتاءِ مـرزأً إذا اغبَـر أولاد الأذِلةِ أَسفَـرا (٢)

وتفاخر الشنْفَرَى ببطولته الحربية وعزته، فقد أغار مع أصحابه الصعاليك الشجعان على حَي من بَجِيلَة، فقطعوا رؤوسهم ورشقوهم بالنبال من كل جانب، ليثأروا لرفاقهم عَمرو بن كِلاب والمسَيب بن عَلَس، فكان ثأرا فاتكا، يقول:

ألا هلْ أَتَى عنّـا سعـاد ودونَهـا مهامِـهُ بِيـدٍ تَعتلي بالصعـالِـكِ
بأَنا صبحنا العوص في حر دارِهِم حِمام المنايـا بالسيوفِ البواتـرِ
فَتَلْنا بِعمرِو مِنْهـم خَيـْر فـارس يزيد وسعـداً وابن عوفٍ بمالِـكِ
ظَلَلْنا نُقَري بالسيـوفِ رؤوسهـم ونَرشُقُهـم بالنبـل بين الدكـادِكِ (٣)

في حين يتفاخر تَأبطَ شَراً بوصوله إلى الأماكن الصعبة الوعرة التي يعجز الآخرون عن الوصول إليها، فقد تسلق ليلا مرقبة شاهقة، طويلة بين المراقب، مع جماعة من صحبه فغلبهم بالوصول إليها واصفهم بالعجائز، يقول:

ومرقبـةٍ يـا أم عمـرو طِمِـرةٍ مذَبذَبـةٍ فَـوقَ المراقِـبِ عيطَـلِ

---

(١) عروة بن الورد، الديوان، ص١٥٧.(يسفر: يتهلل بالبشاشة).

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٠.(فعيد المرأة: بيتها وزوجها، أزهرا: مشرق الوجه، مرزأ: للناس نصيب في أمواله، أسفر: أشرق).

(٣) الشنفرى، الديوان، ص٥٧.(دونها: ينفصلني عنها، مهامه بيد: صحاري واسعة، البتك: القاطع، الدكدك: الأرض التي فيها غلظ).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَهضتُ إليـها مِن جنُـوٍ كأنـها عجوز عليهـا هِدمِـلٌ ذّاتُ خَيعـل [١]

أما أبوخِرَاش الهذَلي فقد تفاخر أمام زوجته فاطمة ببطولاته، وكأنه ألم بكل البطولات في عصره، ففي الحروب كان يسابق الموت بإقدامه الجريء فيترك عدوه في ساحة المعركة ملطّخا بدمائه، أما الغزوات فكان يختار أصعب الأوقات ليغزو فيها، فغزوه كان في الليالي المظلمة الممطرة ليحقق ثأره أو يغنم، يغزو راجلا محتفيا على قدميه القويتين، فلا يهتم لسيل ولا برد ولا عوائق، ولا يضيع في الصحراء إذا اشتد ظلامها، ولا يحتاج فيها إلى دليل لهدايته في خفارها، وذلك لخبرته واعتياده على الغزو ليلا، يقول:

أَقاطِم إنى أَسبـِقُ الحتْفَ مقْبِـلاً وأَتْرك قِرنِى فِى المزاحِفِ يستَدمِى
وليلةِ دجنٍ مِن جمادى سريتُـها إِذَا ما استَهلتْ وهي ساجِيةٌ تَهمِى
وشَوطٍ فِضَاحٍ قَد شَهدتُ مشَلِيحاً لأُدرِك ذَحْـلاً أَو أُشِيفَ على غُنْـمِ
إِذَا ابتَاتِ الأَفْـدام والْتَف نَحنَـها غُـثَاء كَأَجـوازِ المقَرنَـةِ الدهـمِ
ونَعلٍ كَأَشْـلاءِ السمانَى نَبذْتُـها خِلافَ نَدى مِن آخِرِ الليلِ أَو رهـمِ
إِذَا لم ينَازِع جاهِلُ القَومِ ذَا النهى وبلـدتٍ الأَعـلام بِاللَيْـلِ كَالأُكُـمِ
تَراها صِغَاراً يحسِر الطرفُ دونَها ولو كان طَودا فَوقَه فِرقُ العصـمِ
وإِنى لأَهدِى القَوم فِى لَيلةِ الدجى وأَرمِى إِذَا ماقِيلَ هلْ مِن فَتى يرمِى
وعادِيـةٍ تُلْفِى الثياب وزعتُـها كرجل الجرادِ ينْتَحِى شَرفَ الحـزمِ [٢]

ولم يقتصر دور المرأة في بطولة الصعاليك على ما سبق، بل كان لها أدوار آخرى واضحة في حياتهم، فهي مَن تُحرضهم أحيانا على أخذ الثأر إن تخاذلوا دونه، وذلك لتجنب العار، وحفظ الكرامة، فالعرب كانت تأنف وتحتقر تارك الثأر؛ لأن في تركه مذلة وإهانة، كما تحرضهم أحيانا أخرى على خوض الغارات والغزوات لتحقيق المكاسب التي تسير حياتهم إن كانوا فقراء، وهذا لا يتنافى مع الحياة الجاهلية لأنها كانت قائمة على الحروب والغزوات.

[١] تأبط شرا، الديوان، ص١٨١.(طمرة: مرتفعة، مذبذبة: حادة، العيطل: الطويلة، من جثوم: من نصف الليل، الهدمل: الثوب الخلق، الخيعل: قميص بلا أكمام).

[٢] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٠٢.(تهمي:تسيل، شوط فضاح: شوط إن سبق فيه الرجل افتضح،المشليح:الجاد، الدهم: الإبل، بلدت:لزقت بالارض، الأعلام:الجبال،الطود:الجبل،وزعتها: كففتها).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن هذا التحريض كان وسيلة النساء الناجحة في تحقيق أهدافهن "فلهن الكلام المثير وللرجال العمل والتنفيذ" [١]، لأن "كلماتهن تشعل نار الثورة والغضب، وتثير الهياج في قلوب الأبطال" [٢]، وقد كن بهذا التحريض يساعدن الرجال بالإقدام على البطولات وتحقيق الانتصارات لأنهن" يلهبن العواطف بنظراتهن إلى بطولاتهم، والإشادة بإقدامهم، فإذا كان النصر افتخرن به ورحن يرددن أهازيج الفخار، والنصر والنشوة تتراءى عليهن، وتسري منهن إلى الرجال، فيستطعمون لذة النصر وقهر الأعداء" [٣].

لقد اعتدنا من المرأة دائما لوم الزوج ومعاتبته على كثرة الغزو والمخاطرة بالنفس، وذلك لخوفها على حياتها من الترمل، وعلى حياة أبنائها من التيتّم، ولكن هذا الموقف سرعان ما يتغير وينعكس إلى تحريضٍ إذا كانت حياتها ستؤول إلى مذلة ومهانة، فإذا ما أحست ذل الفقر حرضت زوجها على الغزو لتحقيق المال والمكاسب التي تظفي الهيبة والاحترام على صاحبها، يقول عروَة بن الوَرد:

قالتْ تُماضِر إذْ رأتْ مالِي خَـوى ... وجفَا الأقـارب فالفـؤاد قَريـح
ما لِي رأيـتُك في النَدِي منَـكساً ... وصِبا كأنـك في النـدي نَطِيـح ؟
خاطر بنَفْسِك كي تُصيـب غَنِيمةً ... إن القُعـود مـع العيـال قَبِـيح
المـالُ فيه مهابةٌ وتَجِلـةٌ ... والفَقْـر فيهِ مـذَلةٌ وفُضـوح [٤]

وإذا ما أحست من زوجها التخاذل عن أخذ الثأر، باتت تذكره وتحرضه عليه، وهذا ما فعلته زوجة الشنْفَرَى السلامانية، حيث كان راع عند أبيها وأراد الزواج منها، فقال له أبوها: "لولا أني أخاف أن يقتلني بنو سلامان لأنكحتك ابنتي. فقال: علي إن قتلوك أن أقتل بك مائة رجل منهم، فأنكحه ابنته، وخلّى سبيله، فسار بها إلى قومه، فشدت بنو سلامان خلافه على الرجل فقتلوه، فلما بلغه ذلك سكت ولم يظهر جزعا عليه، وطفق يصنع النبل، ويجعل أفواقها من القرون والعظام، ثم إن امرأته بنت السلاماني قالت له ذات يوم: لقد خِست بميثاق أبي عليك" [٥]، فرد مجيبا عليها، يقول:

كأن قَد فلا يغْـررك مِنـي تَمكثِـي ... سلكْتُ طَرِيقاً بيـْن يربـغَ فالسـرِ

---

[١] شلبي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، ص٣٠٠.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٩٠.

[٣] المصدر نفسه، ص٢٩٢

[٤] عروة بن الورد، الديوان، ص١٠٩.(الوصب: المتألم، الرجل المنكس: المطأطئ الرأس)

[٥] الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص١٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإنـي زعِيم أن ألُف عجاجتِـي ... على ذِي كِساءٍ مِن سلامان أو بـردِ
وأَمشِي لدى العصداءِ أبغِي سراتَهم ... وأسلُك خَـلا بيـْن أرفَاغَ و السـردِ
هـم عرفُونـي نَاشِئـاً ذا مخيلَـةٍ ... أُمشي خِـلالَ الدارِ كالأسـدِ الـوردِ
كأنّي إذا لـم أُمـس في دارِ خالـدٍ ... بِتَيماء لا أُهـدى سبِيلاً ولا أَهـدِي [1]

ويقول لها أيضا مطَمئِنا قلبها: إنه إن عزم على شيء لا يمكن أن يتراجع عنه أو يعجز دونه، مشبها ثأرها بالجواد الكريم:

لا تَحسبِينِي مِثْـلَ من هـو قاعِـد ... علـى عثـةٍ أَو واثِـقٌ بِكَـسـادِ
إذا انْفَلَتَـتْ مِنـي جـواد كَريمـةٌ ... وثَبتُ فَلَم أُخْطِـئْ عِنَـان جـوادِي [2]

وليس التحريض على الأخذ بالثأر يكون للزوج فقط، فإذا كان القتيل هو الزوج فإن زوجته تحرض إخوته أو قومه للأخذ بثأره، فقد "دخلت أميمة امرأة عروَة بن مرة على أَبِي خِرَاش وهو يلاعب ابنه فقالت له: يا أبا خراش تناسيت عروة، وتركت الطلب بثأره، ولهوت مع ابنك، أما والله لو كنت المقتول ما غفل عنك، ولطلب قاتلك حتى يقتله، فبكى أبو خراش" [3]، وأنشأ يقول:

لَعمرِى لَقَد راعتْ أُميمـةَ طَلْعتِـى ... وإن ثَـوائِـى عِنْـدهـا لَقَلِيـلُ
تَقُـولُ أَراه بعـد عـروةَ لاهِيـاً ... وذَلِك رزء لَـو عَلِمـتِ جلِيـلُ
ولا تَحسبِـى أَنى تَنَاسيتُ عهـده ... ولكِن صبـرِى يا أُميـم جمِيـلُ
أَلَم تَعلَمِـى أَن قَـد تَفَـرقَ قَبلَنَا ... خَلِيـلا صفَـاءٍ مـالِك وعقِيـلُ
أَبى الصبر أَنى لا يـزالُ يهيجنِى ... مبِيتٌ لَنَـا فِيمـا خَـلا ومقِيـلُ
وأَنى إِذَا ما الصبح آنَستُ ضوءه ... يعاودنِـى قِطْـع علـى ثَقِـيلُ [4]

وقد وَضح للمرأة أيضا دور آخر ببطولة الصعاليك، فهي تعيره إذا فر من معركة أو تخاذل فيها، لأن الفرار ضعف وجبن، فلا ترضى لزوجها أو حبيبها هذه الصفات، وكانت تثقل عليه باللوم والتعيير حتى لا يلجأ للفرار في حياته مهما كانت الأحوال، لذلك كان يحرص على الثبات في المعارك ليتجنب هذا اللوم المحرق، أما إذا اضطر للفرار فإنه يختصها بالأعذار لأنها

---

[1] الشنفرى، الديوان، ص٤٢.(يربغ والسرد والعصداء: مواضع، زعيم: كفيل، الأرفاع والسرد: جبلان، المخيلة: الكبر).

[2] المصدر نفسه، ص٤٤.(العثة: حشرة تأكل الصوف، الوثب: القفز، العنان: اللجام).

[3] الأصفهاني، الأغاني، ج٢١، ص٢٢٧.

[4] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١١٨٩-١١٩٠.(قطع: بقية الليل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"الشخص الأول الذي يهمه أن يشهد له بالشجاعة، ويخجله أي يصمه بالجبن" [(١)]، مثلما تقدم تأبط شرًا بأعذاره لزوجته حين عاتبته على الفرار من المعركة والتخلي عن صاحبيه، موضحا أن ذلك لم يكن ضعفا منه، وإنما بسبب كثرة الأعداء، فالكثرة تغلب الشجاعة دائما، يقول:

ألا تِلْكُما عِرسِي. منيعةُ. ضمنَـتْ ... من اللهِ إثْمـاً مستَـسِراً وعالِـنَا
تَقُـولُ: تَركْتَ صاحِباً لَكَ ضائِعـاً ... وجِئْـتَ إلينـا فَـارقاً متُبـاطِنَـا
إذَا ما تَركْـتُ صاحِبـي لِثَلاثَـةٍ ... أو اثْنَين مِثْلَـينَا فلا أُبْـتُ آمِنَـا
....
ولما سمِعتُ العوص تَدعو تَنَفرتْ ... عصـافِير رأْسِي من بوى فَعوائِنَا
ولم أنْتَظِرهم يدهمونِـي تَخَالُهـم ... ورائِـي نَحلاً في الخَلِيةِ واكِنَـا
ولا أن تُصيب النافِـذاتُ مقَاتِلِـي ... ولم أك بِـالشَّـد الذلِيـق مدايِنـَا
فَأرسلْتُ منْبـتّاً من الشد والِهـاً ... وقلْتُ: تَزحزح لا تَكُـونَن حائِنَـا [(٢)]

وقال أبو خِرَاش الهذَلي معتذرا لزوجته، إن فراره لم يكن جبناً وضعفاً لأنه معتاد على الكر والفر في غزواته، يسير في ذلك وفق قاعدة معينة، يقاتل بشجاعة حتى يقضي على العدو، فإذا أحس بدنو الخطر الذي لا يقوى عليه، لجأ إلى الفرار كي يحافظ على حياته ويعاود الغزو مرات أخرى، يقول:

فَـإن تَزعمِي أَنّي جبنْـتُ فَإنِنـي ... أَفِـر وأَرمِـي مـرةً كُـلَ ذلِـكِ
أُقاتِـلُ حتـى لا أَرى لِي مقاتَـلاً ... وأَنْجو إذا ما خِفْتُ بعض المهالِكِ [(٣)]

مما سبق يتبين أن المرأة كانت باعثا مهما من بواعث البطولة في حياة الصعاليك، فقد اهتموا بها وبكسب إعجابها باعتبارها أقرب الناس إليهم، والجزء المكمل لحياتهم، فأخذ دورها في حياتهم وبطولاتهم شكلين، شكلاً غير مباشر تمثل في مواقفها الاستهزائية التي دفعتهم للبطولة كي يغيروا هذه المواقف ويحضوا بإعجابها، وشكلاً مباشراً كانت فيه تحرضهم على القتال وأخذ الثأر وتعاتبهم على الفرار والجبن.

---

(١) الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص٢٠٤.

(٢) تأبط شرا، الديوان، ص٢١٢-٢١٥.(الفارق: الذي فرق شعر رأسه، المتباطن: ممتلئ البطن، بوى: واد، عوائن: موضع، النافذات: النصال، الشد الذليق: العدو الشديد، المداين: القاهر الغالب، الحائن: الهالك).

(٣) السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الخامس: الإيمان بالقدر

يتضح من أشعار الصعاليك أنهم كانوا يؤمنون بمصيرهم المحتوم، ويرون كل شيء يتعرض له الإنسان في حياته من مصائب، أو مشاكل، أو نهاية بالموت هو قدر مكتوب ومفروض على صاحبه، لا مفر له منه، لذلك اعتقدوا أن الإنسان مسير لا مخير، وأنه يسير وفق ما كُتب له، فلا علم له بما سيحدث، ولا قدرة له على صد ما هو مكتوب. يقول عروَة بن الوَرد لزوجته العاذلة:

أرى أم حسان الغَـداةَ تَلومنـي ... تُخَوفُني الأعداء والنفس أخْـوفُ

لعَـل الذي خَوفتِـنا مِن أمامِنـا ... يصادفُـه فـي أهلِـهِ المتَخَلـفُ [1]

وقد عزا الصعاليك كغيرهم من الجاهليين، تأثيرات القدر ومسبباته إلى الدهر، فالعرب في الجاهلية كانوا "ينسبون كل شيء إلى فعل الدهر، أي الأبدية مع التأثير في حياة الإنسان وفي العالم. ولهذا أضافوا إليه بعض الألفاظ والنعوت التي تشير إلى وجود هذا التأثير في الحياة، فقالوا: يد الدهر، وريب الدهر، وعدواء الدهر، و(الدهر لا يبقي على حدثانه)، و(الدهر يحصد ريبه ما يزرع)، وأمثال ذلك من تعابير، فنسبوا إليه الفعل في الكون وفي كل شيء" [2]. فكان راسخاً في اعتقادهم أن الدهر جالب المصائب والكوارث التي تتعبهم وتشغلهم في الحياة، يقول أبو خِرَاش الهذَلي واصفا أثر الدهر على حاله:

وما بعد أن قد هدنِى الدهر هـدةً ... تَضالَ لها جِسمِى ورق لها عظمِى [3]

ويعتقدون أيضا أنه مَن يميت ويقضي على الكبير والصغير، فلا يبقي أحداً على قيد الحياة مادام وقته قد حان، يقول أبو كَبِير الهذَلي:

أخَلا وإن الدهر مهلِك من تَـرى ... مِن ذِى بنِين وأُمهم ومِـن ابنِـــم [4]

وأن تأثيره ليس على الإنسان فحسب، بل يمتد للحيوان أيضا، يقول صَخْر الغَي:

أرى الأيـَام لا تُبقِـى كَـريمـًا ... ولا العصـم الأولِـد والنعامـا [5]

---

[1] عروة بن الورد، الديوان، ص١٩٤-١٩٥.(المتخلف: المتأخر عن المسير).

[2] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦، ١٤٨.

[3] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٢٤.(تضال:خفّ، رقّ: ضعف).

[4] المصدر نفسه، ٣م، ص١٠٩٠.

[5] المصدر نفسه، ١م، ص٢٨٧.(الأولِد:النعام المتوحش، العصم: الوعول).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذا آمن الصعاليك أن الدهر ملازم لهم بحوادثه ونوائبه، لا يغفل ولا ينام عنهم، فمستمر في تأثيره على حياة كل إنسان، إلى أن ينهي هذه الحياة بالموت إذا حان أجلها، ويوضح أبو الطمَحَان القَيني هذا الفكر، يقول:

وإني رأيتُ الدهر إن تكُر لا ينَـم وإن أنْتَ تَغْفُـلْ تَلْقَـه غَير غافِـل

إذا هو أفْنَى برزخـاً زيد مثلُـه يراد علـى المِنْـوال كالمتَطـاول [١]

إن حوادث الدهر خلقت في نفس الصعلوك أفكارا قوية، باتت ثابتة وراسخة في عقولهم، فأصبحت جزءاً من معتقداتهم، وقد ساعد الواقع المحيط بالصعلوك في تثبيت هذه الأفكار، إلى أن أسهمت في توجيهه إلى القيام ببعض السلوكيات الحسنة، والتي بدورها مثلت البطولة وجعلتها جزءاً من حياته، من هذه الأفكار:

١- تقلب الدهر:

إن تجارب الصعلوك التي خاضها في حياته جعلته يتيقّن بأن الدهر متقلّب، لا يعطي إلا ليأخذ، وأن الإنسان مهما طال به العمر لا يظل على حال واحدة، فإن كان آمناً قد يصبح خائفا، وإن كان غنيا قد يصبح فقيرا معدما، وإن كان سالما قد يصبح مريضا، وإن كان سيدا عزيزا قد يصبح مهاناً، وكل هذا بفعل الدهر، وقد أشار السلّيك بن السلكة إلى هذه النظرة، موضحا هذا التقلب، فللدهر وجهان: وجه منبسط يحقق الأماني وينشر الفرح، ووجه كذوب يخدع ويحبط فينشر الغم، يقول:

ألَم تَر أن الدهـر لونـان لونُـه وطَـوران: بِشْر مـرةً وكـَذوب؟ [٢]

ولعل الواقع كما ذكرنا هو ما أثبت هذه الفكرة في عقل الصعلوك، فالتغير من طبيعة الحياة، كسقوط المطر وتوقفه، وتسارع الرياح وخفتها، وتبادل الليل والنهار، وتتابع فصول السنه بانتظام، والتقلب الدائم الذي تتعرض له الطبيعة من قحط وجدب، أو ربيع وازدهار، كل هذا أثّر في الصعلوك، فقد شرح عروَة بن الوَرد هذا التغير المستمر في الحياة ضاربا أمثاله من الطبيعة، فالريح مهما عصفت واشتدت لابد لها أن تسكن، والسحاب الممطر مهما دام تدفقه سيتوقف لا محالة، يقول:

---

[١] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٩م، ص١١٩.(تكرى:تنام، البرزخ:من وقت الموت إلى البعث).

[٢] السليك بن السلكة، الديوان، ص٥٨.(البشر: الطلاقة والفرح).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرى كُل ريحٍ سوفَ تَسكُن مـرةً وكُـل سمـاءٍ ذاتَ در ستُقلِـع [١]

إضافة إلى حال الإنسان المتقلب، فبعد أن كان في مرحلة الفتوة والشباب قويا شجاعا خائضا للحروب وقاهرا للأعداء، ينقلب عاجزا ضعيفا في مرحلة الشيخوخة التي تدركه في نهاية حياته، متكئاً على العصى، ومقيما في بيته بين النسوة والولدان، يقضي حاجاته باضطراب وارتعاش كأنه فرخ نعام، يقول عروَة بن الوَرد:

أليس ورائي أن أدِبَ على العصا فَيشْمتَ أعدائي ويسأمنـي أهلـي
رهينةَ قعرِ البيـتِ كُـل عشِيـةٍ يطيفُ بِي الولدان أهـدج كالـرأل؟ [٢]

لذلك أصبح الصعلوك متوقعا لهذا التقلب في الحياة ومعتادا عليه، فلا يجزع منه إن كان شرا، ولا يفرح كل الفرح إن كان خيرا، وهذا ما اعتاد عليه الشنْفَرَى، فحاله دائما متقلبة، يفتقر حينا ويغتني حينا آخر، ولكنه كثيرا ما كان فقيرا، ومع هذا فهو ثابت غير متزعزع من هذا التغير، فالفقر لا يجعله بائسا ضعيفا، والغني لا يجعله فرحا قويا، يقول:

وأُعـدِم أحيانـاً وأغْنَـى وإنما ينَـالُ الغِنَى ذو البعـدةِ المتَبـذلُ
فلا جـزع مِن خَلـةٍ متكشـفٌ ولا مـرح تَحـتَ الغِنَـى أتَخَيـلُ [٣]

إن إيمان الصعلوك بتقلب الحياة المفاجئ، وإحساسه بأن العز والغنى لا يدومان، وأنه قد يواجه عسرا بعد يسر، فيضعف، أو يعدم، أو يستذل، جعله يتحسب لهذه اللحظة، فاتجه إلى فعل البطولات والفعال النبيلة الإنسانية، يدافع عن الضعيف، وينصر المظلوم، ويكرم الضيف والفقير، وينك العاني، ويجير المستجير، ويحمي الولي الضعيف، ويعفو عن المذنب، ليبني لنفسه صرحاً من المعروف، يسترده ويلقاه إذا أصيب بملمة أو شدة. وقد تبين هذا المعنى في بعض أبيات قالها أمير الصعاليك عروَة بن الوَرد، فقد قدم معروفا لصاحبيه بَلْج وقُرةِ في عسرِهما، وقد كانا من أصحاب الكنيف الذين غزا بهم عروة فأنقذهم من الفقر، وحين دارت الدوائر على عروة وانقلبت به الحال وأصبح في شدة، لم يلجأ إلى أحد سوى هذين الصاحبين لما له من معروف في أعناقهما، وكأنه قصدهم ليسترد معروفه في وقت الشدة، لكنهما خذلاه، فلم يقدما له العون مع أنهما كانا في غنى، فتأثر عروة من هذا الموقف وبين غضبه منهما، مشبهاً لهما بالعنز التي أصابت كلأ قَرَعَتْه وسَمِنَتْ، ولم تعد تهتم بمن حولها، قائلا:

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨٩.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٠٠.(يسأم: يمل، أهدج: أمشي باضطراب وضعف، الرأل: ولد النعام).

[٣] الشنفرى، الديوان، ص٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأي النـاس آمـن بعـد بلـج وقُـرة صـاحِبـي بـذي طـلال؟
ألما أغْـزرت في العـس بـُزلٌ ودرعـةُ بنتُـها نَسيـا قَـعالـي؟
سمِن على الربيـع قَهـن ضبطٌ لهـن لبـالِـب تحـتَ السخـال [١]

كما دفع الإيمان بتقلب الدهر الصعلوك إلى بناء الصيت الطيب لنفسه، بأن يكثر من فعل الخير، فيحقق الصيت الذي يحتاج إليه في ساعة الشدة، ليجد من يساعده وينقذه إن أصابته شدة، بمجرد أن يتعرف إلى شخصه وذلك لسمعته الطيبه في فعل الخير، فأصبح بذلك "حسن الأحدوثة حافزا على التسابق في إسداء العون" [٢].

٢- الفناء وحتمية الموت:

أدرك الصعلوك حتمية الموت، وآمن أن المنية تمضي حيث تريد، وأن لا خلود للمرء في حياته، وذلك من خلال غزواته التي كان يشنها باستمرار، "فالفارس الذي يذيق أعداءه الموت بضرباته القوية، يعاني في نفس الوقت إحساسا حادا بالموت، وإيمانا بقربه وحتمية قدومه، فيتوقعه في كل غزوة يقوم بها، أو يتعرض لها" [٣]، يقول تأبطَ شَراً:

ومن يغْـر بالأبطـال لا بد أنـه سيلْقَى بِهم مِن مصرع الموتِ مصرعا [٤]

وقد بدت فكرة الموت واضحة في أشعار الصعاليك، فعروَة بن الوَرد يشرح لزوجته مصيرهما، فمهما كانا متواصلين، إلا أن وصلهما لن يدوم لأن مآله الفراق بالموت، فراق حتمي لا يمكن منعه، لأن الموت والفناء نهاية كل شيء، يقول عروة:

ألم تَعلمِـي يا أم حسـان أننـا خَليطا زيالٍ ليس عن ذاك مقْصر؟
وأن المنايـا تَغْـر كُـل ثَنِيـةٍ فَهلْ ذاك عما يبتغي القَوم محصِر؟ [٥]

ويرد الشنْفَرَى كذلك على عاذلته التي تلومه على كثرة غاراته ومخاطرته بنفسه، بأن تكف عن اللوم لأن الموت مكتوب مرة واحدة في الحياة، قائلا:

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص٢١٥.(بلج وقرة: أصحاب عروة، ذي طلال: ماء، العس: القدح الضخم، بزل ودرعة: عنزان لصاحبيه، ضبط: سمان، لبالب الغنم: صوتها الرقيق على الولد).

[٢] ضناوي، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، ص١١٦.

[٣] المرعي واسكندر، مفهوم البطولي عند العرب قبل الإسلام، ص١٣٣.

[٤] تأبط شرا، الديوان، ص١١٩.(يغر: يولع).

[٥] عروة بن الورد، الديوان، ص١٦٠.(زيال: فراق، محصر: مانع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دعِيني وقَولِي بعد ما شِئْتِ إننـي سيغْدى بِنَعـشِـي مـرةً فَأُغَيـب [١]

ويدرك الصعلوك أن الموت آت له في أي مكان إذا حان أجله، فإن كان في بيته، ولم يعرض نفسه للمخاطر، فالموت أت له مادام الأجل قد حان، يقول الشنْفَرَى:

ولو لم أرم فـي أهل بيتي فاعِـداً أتَتْنِـي إذَن بين العمودين حمتِـي [٢]

ويدرك أيضا أن الموت يأتي للإنسان حتى وإن كان في أبعد الأماكن وأصعبها، يقول أبو خِرَاش الهذَلي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، حين لدغته أفعى في الليل وهو يجلب الماء لحجاج استضافهم، إن الموت يدرك كل إنسان ويغلبه متى حان أجله:

لعمـرك والمـنَايـا عَـالِبـاتٌ على الإنْسـان تَطْلُـع كُـل نَجـدِ

لقَـد أَهلكْـتِ حيـةَ بطْـن أَنْـفٍ على الأصحـابِ ساقـاً ذَاتَ فَقْـدِ [٣]

وآمن الصعلوك بأن لا أحد في الحياة يسلم من الموت، حتى وإن كان قويا شديد البأس، أو ذا نسب عزيز شريف، فقد خاطب عروَة بن الوَرد زوجته التي تخوفه من الموت كي يكُفّ عن الغزو والغارات، أنه مهما خاف من الموت فلن يهرب منه، موضحا أنه لن يستطيع الهرب منه، لأن الموت أخذ من هم أشد منه بأساً، وأشرف منه نسبا، وأقوى منه عدة ورجالا، أشباه قَيس بن زهَير العَبسِي، ورَبِيع بن زيَاد العَبسِي، وهم أسياد عَبس، قائلا:

تُخَوفُني ريب المنون وقَد مضـى لنا سلَـفٌ: فيـس معـاً وربيـع! [٤]

بل حتى الملوك والأمراء لم يسلموا منه، فلم يسلم منه أكبر ملوك العجم "ابن هرمز"، ولا حتى النّعمَان بن منْذِر المشهود له بقهر الأعداء، يقول أبو الطمَحَان القَيني:

فَمن يأمن الأيام بعد ابن هرمـز وبعد أبي قابـُوس مذْكِي القَنابـِل [٥]

وإن تأخر الموت على إنسان وطال عمره، فلا يعني هذا أنه فر من الموت أوسَلَمَ منه، فما جرى على الناس جارٍ عليه، يقول أبو خِرَاش الهذَلي:

وكُل امرئٍ يوماً إلى الموتِ صائِر قَضاء إِذَا ما حـان يؤْخَذُ بِالكَظْـمِ

---

[١] الشنفرى، الديوان، ص٢٧.(النعش: سرير الموت، أغيب: أغيب في القبر).

[٢] المصدر نفسه، ص٣٨.(الحمة: الموت).

[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٤٤.

[٤] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨٠.

[٥] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٩م، ص١٢٠.(ابن هرمز:كبير ملوك العجم، أبو قابوس:كنية النعمان بن المنذر، القنابل: الطائفة من الخيل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما أحد حتى تأخر يومه ... بأخلد ممن صار قبلُ إلى الرجم
سيأتي على الباقين يوم كما أتى ... على من مضى حتْم عليهِ من الحتْم [١]

لقد استسلم الصعلوك لهذه الفكرة، واقتنع بها اقتناعا كاملا، مدركا أن الروح ستزهق وتخرج من صدره، وأن مقامه سيكون في القبر تحت التراب والحجر، وأن النادبات من قريباته سيبكينه وَيَنُحنَ عليه، لذلك أقبل على الحياة يريد أن يحقق كل مطالبه، ويحصل على كل مآربه، وغاياته، وملذاته، يقول حَاجِز بن عَوف طالبا من صاحبيه أن يسقياه الخمر قبل موته، لعله يقضي بعض ملذاته من الدنيا قبل أن يأتيه الموت فجأة:

ألا عللاني قبلَ نَوحِ النوادبِ ... وقبلَ بكَاءِ المعولاتِ القرائبِ
وقبلَ ذَوائِي في ثُرابٍ وجنْدلٍ ... وقبلَ نُشُوز النفْس فَوقَ الترائبِ
فَإن تأْتِنِي الدنْيا بِيومِي فُجاءةً ... تَجِدنِي وقَد قَضيتُ مِنْها مآربِي [٢]

وقد أنشد أبو الطمَحَان القَيني أبياتاً مشابهة لها، يقول:

ألا عللاني قبلَ نَوحِ النُوائحِ ... وقبلَ ارتقاءِ النفْس فَوقَ الجوانِحِ
وقبلَ غَيٍّ يا لَهفَ نَفْسِي على غَدٍ ... إذا راح أَصحابِي ولَستُ بِرائِحِ
إذا راح أَصحابِي تَفِيض دموعهم ... وغُودِرتُ في لحدٍ علَي صفائِحِي [٣]

إن إيمان الصعلوك بحتمية الموت كان له الأثر الكبير والعظيم في حياته، فقد دفعه للبطولة الحربية، فبعد أن آمن الصعلوك بأن الموت غاية كل إنسان، أدرك أن "استقباله برباطة جأش لخير من استدباره، بل إن خوض غماره ليمد في أسباب الحياة، إذ يتدرب المقدام على الطعان حتى إذا حانت لحظة النزال حمى نفسه، أما الجبان فيموت رعبا قبل أن يموت طعنا بالسنان" [٤]، لذلك أقبل الصعلوك على المعارك بكل شجاعة وقوة، فقد اندفع أبو الطمَحَان القَيني إلى الحروب وخوضها غير آبه أو خائف منها، لأنه أدرك حقيقة الموت، وأنه لن يسلم منه حتى وإن احتمى في قصر عال يحيط به الجيش وكلاب الحراسة من كل جانب، يقول:

لو كُنْتُ في ريمان تَحرس بابه ... أراجيلُ أحبوشٌ وأعْضفُ آلفُ

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٢٥.(الرجم: القبر).

[٢] القرشي، عباس بن محمد النجفي، (ت١٢٩٩هـ). حماسة القرشي، (تحقيق خيرالدين محمود قبلاوي)، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥، ص٣٠٧.(ثوائي: موتي، نشوز النفس: ارتفاعها واحتضارها).

[٣] البصري، الحماسة البصرية، ج١، ص٢٨١.(اللحد:داخل القبر).

[٤] ضيف، البطولة في الشعر العربي، ص١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن لأتَتْنِـي حيثُ كُنْـتُ مِنيتِـي يخُـب بِها هـادٍ بأمـري قلِئـفُ
فَمِن رهبةٍ آتِي المتحالف سـادِراً وأيـةُ أرضٍ ليـس فِيها متالـفُ [١]

ويرى الشنْفَرَى أن موته سيأتيه في إحدى المعارك التي يخوضها، لذلك لا يهمه الحذر من هذه المعارك لأن الموت لا مصد منه، قائلا:

يا صاحِبي هل الحِـذَار مسلمـي أو هلْ لِحتْفٍ مِنيـةٍ مِن مصـرفِ
إنّي لأعلَـم أن حتْفِـي في التـي أخْشَى لدى الشربِ القَلِيل المنْـزفِ [٢]

أما تَأبطَ شَراً فيقضي حياته في الغزو وقتل الرجال وسلب الغنائم، لأنه يعلم أن الموت سيدركه إن حان أجله، قائلا:

ولستُ أبيتُ – الدهر– إلاعلى قَتَّى أُسـلبه أو أَذْعر السرب أجمعَـا
وإنّي – ولا عِـلم – لأعلَـم أنني سأُلقَى سِنَان الموتِ يبرقُ أصلعَـا [٣]

كما دفع الإيمان بحتمية الموت الصعلوك إلى التفكير في مسألة الخلود، "فأدرك أن نيل الخلود أمنية بعيدة، وأن التمائم والرقى لا تدفع الموت القادم، فعاش حالة من التوتر بين الذات والوجود، وأن المصير مجهول، وأن العالم عبث" [٤] ، فأيقن أنه سيمحى من الوجود بعد موته، وستُنسى ذكراه، حتى أهله وأقاربه لن يذكروه ولن ينفعوه بشيء، وقد تفهم أبو خِرَاش الهذَلي هذا الأمر مخاطبا أخاه عروَة:

لعـلك نَافِعِـي يـا عـرو يومًـا إذَا جـاورتُ مـن تَحـتَ القُبـور
إذَا راحـوا سِـواى وأسلمونِـي لِخَشْـنَـاءِ الحِجـارةِ كـالبعِيـر [٥]

لذلك راح الصعلوك يبحث عن سبل تخلّد ذكراه بعد موته، فلم يجد أمامه سوى المآثر والفعال النبيلة التي تكسبه المجد، وتجعل منه إنسانا عظيما، لأن "الرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق، يتدفق بالحكمة، ومعاني الرجولة والشرف الكبير، وهو الذي في شعاعه

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص١١.(الأغضف:الكلب المسترخي الآذان،الآلف: المستأنف، الخبب:ضرب من السير،القلئف: متتبع الآثار، السادر: الذي لا يهتم بشئ، المتالف: المهالك).

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٥٦.(الحذار: الحذر، مسلمي: يخلصني من الموت، الحتف: الموت).

[٣] تأبط شرا، الديوان، ص١١٨.

[٤] أبو سويلم، أنور، (١٩٨٧). دراسات في الشعر الجاهلي، (ط١)، بيروت، دار الجيل، ص٦١.

[٥] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٠٨.(خشناء الحجارة: حفرة القبر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أُنس الأرواح، وروح النفوس، ومتعة الخواطر" [١]، وقد حرص الصعلوك على هذه المآثر البطولية كمقارعة الأبطال، وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وفك العاني، وإنصاف المظلوم، ودفع الظلم، والعفو عن الضعيف، وحماية الجار وغيرها، لكي يخلد ذكراه بعد الموت، فقد أمر عروَة بن الوَرد زوجته العاذلة التي تلومه على إنفاق ماله في سبيل المجد، أن تكف عن لومه وتتركه يتصرف في نفسه وماله كما يريد قبل أن يموت وتتحول روحه إلى هامة تخاطب الأحجار، لأن المجد والذكر الحسن هما الباقيان بعد زوال الروح والجسد، قائلا:

ذَريني ونَفسي أُم حسـان إننـي ... بِها قبلَ أن لا أملِك البيـع مشتَري

أحاديثَ تَبقَى والفَتَى غير خالِـدٍ ... إذا هو أمسى هامةً فـوقَ صيـر

تُجاوب أحجار الكِناس وتَشتكـي ... إلى كل معـروفٍ رأته ومنكَـر [٢]

بهذا نتبين أن إيمان الصعلوك بتقلب الدهر وحتمية الموت، قد أسهم إسهامة كبيرة في ترسيخ البطولات في حياة الصعلوك، وأصبح دافعا رئيسا من دوافع الإقدام الذي وصل حداً عظيماً فاق في أحيان كثيرة طاقة الأبطال الذين قارعهم الصعلوك.

---

[١] كارليل، توماس، (د.ت). الأبطال وعبادة الأبطال، ترجمة عبدالرحمن البرقوقي، القاهرة، (د.ن)، ص١٥.

[٢] عروة بن الورد، الديوان، ص١٤٣.(الصير: القبر، أحجار الكناس: أحجار القبر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البطولة الحربية وأدواتها عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية

بعد أن عرفنا في الفصل السابق العوامل التي أسهمت في تكوين بطولة الصعاليك الجاهليين، جدير بنا الآن أن نتناول الصور البطولية في شعرهم، وذلك من خلال استقراء دواوينهم الشعرية.

وبما أن المادة الشعرية كثيرة، وزاخرة بالعديد من السمات البطولية، فضلنا تحديد هذا الفصل للبطولة الحربية، وما يتعلق بها من أدوات، وجعل البطولات النفسية والخلقية في الفصل الذي يعقبه؛ لأن البطولة الحربية تنوعت مظاهرها في حياة الصعاليك، فأخذت حيزا كبيرا من شعرهم.

وهذا الفصل فيه مبحثان، يبحث الأول قضايا البطولة الحربية، ومظاهرها في شعر الصعاليك الجاهليين، ويبحث الثاني الأدوات التي استعان بها الصعاليك في تفعيل بطولتهم، سواء أكانت أدوات معنوية أم مادية.

ولكن قبل الشروع في هذا الفصل لابد من تنويه هام إلى أن الصعاليك عكسوا صورهم البطولية من خلال وصف أنفسهم بخصائص دعوا إليها، وقد يصوغها بعضهم في وصايا إلى أبنائهم، وقد يرسلها نصائح للمخاطب، وبعضهم جعلها صفات بارزة في وصف ممدوحيه؛ لأن الصعلوك من وجهة نظره يرى أن البطولة خصائص عليا لنموذج الإنسان الكامل، فهو يسقطها على محبيه، لذلك سننظر في أغراض شعرهم كلها (فخرا، ومدحا، ورثاء، وهجاء)، في استقصاء الصور البطولية.

وقد يتساؤل البعض، كيف للصعلوك أن يفخر بقومه أو يمتدحهم بصفات بطولية وهو يعيش بعيدا عنهم متصعلكا في الصحاري المقفرة الموحشة ؟

إن حياة الصعلوك لم تكن مستمرة في الصحاري، فمن خلال أشعاره يتبين لنا أنه كان يرتاد البراري أثناء غاراته وقيامه بعمليات السلب والنهب، أما إذا أراد الراحة ووقف الصعلكة بعضا من الوقت، فإنه يرجع إلى قبيلته، فيشاركها أفراحها وأحزانها، إلا الخلعاء منهم فقد كانوا يلجؤون لقبائل أخرى يستجيرون بها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الأول: صور البطولة الحربية في شعر الصعاليك

لقد امتاز الصعلوك في الجاهلية بالبطولة الحربية، فكانت مظاهرها عديدة وبارزة في شعره، وأولى هذه المظاهر القوة الجسدية، فقد تمتع الصعلوك بجسم صلب قوي جراء الحياة الصحراوية القاسية التي كان يعيشها، وقد وصف عروَة بن الوَرد قوته الجسدية بالجسم العظيم القوي، الخفيف الحركة، القوي المفاصل، يقول:

بنيتُ على خَلْق الرجـال بِأعظُـمٍ خِفَافٍ تَثَنـى تَحتَهـن المفَاصِـلُ (١)

أما بعض الصعاليك فقد كمنت قوتهم الجسدية في أرجلهم، ذلك أنها قويت من كثرة المشي والعدو على الأراضي الصلبة المليئة بالصخور المترامية، يقول الشنْفَرَى في قوة قدميه:

إذَا الأمعز الصـوان لاقّى مناسِمي تَـطاير مِنـْه قـادِح ومفَـالُ (٢)

أما قوة القدمين عند تَأبطَ شَراً، فتمثلت في السير محتفيا على الثعابين والحيات، فقد قال فيها:

يسري على الأين والحياتِ محتَفِياً نَفْسِي فِداؤُك مِن سارٍ على سـاق (٣)

وتكمن القوة الجسدية عند بعضهم في قوة الساق، يقول أبو خِرَاش الهذَلي:

ورقَعتُ سافـاً لا يخَافُ عِثَارهـا وطَرحـتُ عنـى بِالعـراءِ ثِيابِـى (٤)

وقد تكون عند بعضهم متمثلة بنحولة الشرسوف، وخفة اللحم، وبروز العروق، يقول تَأبطَ شَراً:

عاري الظنَابِيب ممتَـد نَـواشِره مِدلاج أدهم واهِـي الماءِ عَسـاق (٥)

ومن مظاهر بطولته الحربية الشجاعة، فقد جعلت منه فارسا "لاتروعه الأهوال، ولا يتردد في خوض معامع الأخطار، ولا يتزحزح عن مكانه مهما أحدقت به، بل يستقبل الموت بصدر رحب، ويضحي بنفسه في سبيل مبادئه التي يعتقدها"(٦)، وقد صور لنا بعض الصعاليك الشجاع

---

(١) عروة بن الورد، الديوان، ص٢٢٦.

(٢) الشنفرى، الديوان، ص٦٢.

(٣) تأبط شرا، الديوان، ص١٢٧.

(٤) السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٤٠.(العراء: الصحراء).

(٥) تأبط شرا، الديوان، ص١٣٦.(الظنبوب: حرف عظم الساق، النواشر: العروق، الادلاج: السير ليلا، الغساق: الشديد الظلمة).

(٦) الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص٩٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في نظرهم، فهو في نظر السليك بن السلكة فارس، قوي جرئ شجاع، يحارب ويقتل، فقد قال في نصيحة وجهها لحبيبته التي قاطعته، إن أردت أن تكون لك صلة برجل فلا تجعليها بصعلوك كسول خامل، وإنما اتصلي بالصعلوك الشجاع الذي اعتاد على خوض المعارك، وقطع رؤوس الأعداء، يقول:

فَـلا تَصِلِـي بِصعلـوكٍ نَـؤُومٍ ... إذا أمسـى يعـد مِـن العِيـال
إذا أَضحـى تَقَلَّـد مـنكِبيـهِ ... وأبصـر لحمـه حـذَر الهـزال
ولكـن كُـل صـعلـوكٍ ضـروبٍ ... بِنَصل السيـفِ هامـاتِ الرجـال (١)

وفي نظر عروَة بن الوَرد كان الشجاع فارسا أبياً، يدفع الظلم والذل عن نفسه بمحاربة الأعداء وإرعادهم، لكي يحيا حياة عزيزة حتى يموت، يقول عروة:

ولكِن صعلـوكا صفِيحـةُ وجهـهِ ... كَضوءِ شِهابِ القابِـس المتَنَـور
مطِـلا على أعـدائِهِ يزجـرونَـه ... بساحتِهم زجر المنيـح المشَهـر
إذا بعـدوا لا يأمنـون اقترابـه ... تَشَـوفَ أهل الغائـبِ المتَنَظـر
فذاك إن يلْـقَ المنِيـةَ يلْقَـها ... حمِـيداً وإن يستَغْـن يوماً فَأجـدِر (٢)

أما الشجاع في نظر تأبطَ شَراً، ففارس حذر قليل النوم، أكبر همه في الحياة إدراك الثأر، ومجابهة الفرسان الأقوياء من أقرانه، يسير في الفلوات الموحشة لا ليصطاد الطرائد، وإنما ليصطاد أصحاب النعم فينقض عليهم، ويحضى بكل ما يملكون، يقول:

قَليـل غِرار الـنومِ أكبـر همـهِ ... دم الثـأرِ أو يلْقَـى كَمِيـّاً مقَنـعا
يمـاصِعـه كُـل يـشَجع قَومـه ... وما ضربـه هام الـعِدى لِيشَجعـا
رأين فَتـًى لا صـَيد وحش يهمه ... فَلو صافَحـتْ إنْسـاً لصافَحتَه معا
ولـكـن أرباب المخَاض يشُفهم ... إذا اقتَفَـروه واجِـداً أو مشَيـعا (٣)

لقد انعكست الشجاعة في حياة الصعلوك إلى إقدام، فرآى "أن الإقدام لا يدني الأجل، وأن الحياة الجديرة بالبقيا إنما هي حياة الفتوة والمجد والشجاعة"(٤)، فأصبح قويا لا يخاف المخاطر،

---

(١) السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٨-٨٩.(ضروب: كثير الضرب بالسيف، الهامة: الرأس).

(٢) عروة بن الورد، الديوان، ص١٥٢-١٥٣.(القابس: من يحمل شعلة من نار، المنيح: قدح من قداح الميسر لا نصيب له).

(٣) تأبط شرا، الديوان، ص١١٣/١١٧.(يماصعه: يقاتله، المخاض: النوق الحوامل، يشفهم: يهزلهم، اقتفروه: تتبعوا أثره، مشيعا: معه شيعة من صحبه).

(٤) الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٣٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكر في أشد المواقف، ويقبل على الأعداء بقلب صلب دون أن يتزعزع، فقد كان صَخْر الغَي قويا مقداما إذا اشتدت الحرب، يقول مخاطبا عدوه أَبَا المثَلم:

أَبـا المثَلـمِ إنـى ذُو مبادهـ ـةٍ ... ماضٍ على الهول مِقْدام الوغَى بطَلُ [١]

فإذا ما سمع أحدا يطلبه للمبارزة أقدم بكل ثقة لا يتثاقل ولا يتباطئ، يقول:

وكُنْـتُ إذَا سمِعـتُ دعـاء داعٍ ... أَجبـتُ فَـلا أَلـَف ولا مـَكِيـ ـثُ [٢]

وعروَة بن الوَرد يقدم على الحرب في أصعب الأوقات عندما يخاف الآخرون، ويتخاذل القوم وينهزمون فارين مذعورين، يقول:

لتَجعلُ إقدامي إذا الخيـلُ أَجحمـتْ ... وكَـري إذا لم يمنع الدبـر ملِنـع

سواء ومن لايقدم المهر في الوغى ... ومن دبره عند الهزاهِـز ضائـع؟ [٣]

ومَالِك بن حَريم يشبه إقدامه في الحرب بحية ضخمة، تسرع للفرسان الأشداء فتخيفهم، يقول مخاطبا عَمرو بن مَعدِي كَرب:

يا عـمـرو لـو أبصـرتَنِـي ... لَـرفَوتَنِـي فِـي الخَيـل رفْـ ـوا

للِفِيـ ـتَ مِنّـ ـي عـربـ ـ ـداً ... يقُطُـو إلـى الفُرسـ ـان قَطْـ ـوا [٤]

والسلَيك بن السلَكة إذا ما سمع نداء الحرب أسرع راكبا فرسه ومسابقا فرسان الحي لساحة الوغى، يقول آمرا عبده:

أَخْرِج النَحام واعجـلْ يا غُلامـا ... واقْـذُفِ السـرج عليـهِ واللِجامـا

واخْتِـر الفِتيـان أَنـي خائـض ... غَمرةَ المـوتِ فَمـن شـاء أقامـا [٥]

أما تَأبطَ شَراً فكان إذا اندلعت الحرب وحمِيَ وطيسها واشتعلت نيرانها، مقداما يتصدى للأعداء بقلب ثابت، يقول:

إنّي إذَا حمِي الوطِيس وأوقـدتْ ... نِيرانَها للْحرب نار كَريهةٍ لم أنكـُل [٦]

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ٢٧١.(ذو مبادهة: صاحب بديهة ورأي صائب، الهول: الخطر).

[٢] المصدر نفسه، ص٢٦٣.(ألفّ: ثقيل، مكيث: بطيء).

[٣] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨١.(أحجمت: نكصت، الدبر: الظهر، الهزاهز: الفتن).

[٤] ابن منقذ، أسامة، (ت٥٨٤هـ). لباب الآداب، ط٢، (أحمد محمد شاكر)، دار الكتب السلفية، القاهرة، ١٩٨٧، ص٢٠٣.

[٥] السليك بن السلكة، الديوان، ص٩٣.(النحام: فرس السليك).

[٦] تأبط شرا، الديوان، ص١٩٤.(الوطيس: المعركة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيكون متصديا لأولى الفرسان، مستلا سيفه البائر، يهزه في وجوههم ليطرحهم صرعى في الأرض، فيسعد الموت بفرائسه الجديدة، يقول:

إذَا طَلَعتْ أُولى العـدِي قَنَفْـره إلى سلـقٍ مِـن صـارِمِ الغَرب بِائِكِ

إذَا هزه في عظْمِ قِـرنٍ تَهلـلَـتْ نَواجذُ أفْـواهِ المنَايـا الضـواحِكِ (١)

ومن مظاهر بطولته الحربية النجدة والنصرة، فالبطل يستعمل كل ما يملك من قوة وشجاعة لنجدة المستغيث، أو القريب، أو الصديق، ويحرص الصعلوك البطل على النجدة، فإذا ما سمع مستغيثا يطلب العون سارع لنجدته وتخليصه من الخطر المحدق به، حتى وإن كان مذنبا أو ظالما، يسيره إلى ذلك عامل النخوة والمروءة، وخوفه من العيب والعار والهجاء.

لقد اعتاد الصعلوك أن لا يترك الصديق والقريب للهلاك، ويقبل عليه لينجده كما يقبل العطشان على الماء، يقول عروَة بن الوَرد أمير الصعاليك:

فَلا أترك الإخوان ماعِشْتُ لِلـردى كما أنـه لا يتْـرك الماء شاربـه (٢)

واعتاد أن لايترك الصديق إذا استنجد به، حتى لا يعير بتخاذله وكسله، يقول تَأبطَ شَراً:

وما كُنْتُ أباء على الخِل إذْ دعـا ولا المرءِ يدعوني ممِراً مداهِنَـا (٣)

لذلك أخذ عروَة بن الوَرد على بَني ناشِب من قومه تخاذلهم عن نصرة قومه، وتهربهم من تحمل ذنوب الجماعة، حين انسلخوا عن القبيلة فارين من النجدة، تاركين خلفهم الشيوخ والعجائز لتحمل ذنب الجماعة، يقول:

أيا راكِبـاً إمـا عرضـتَ فَبلغَـن بني نَاشِبٍ عني ومـن يتَنَشـب

أكُلـ ـكُم مخْتـار دارٍ يحلهـا وتارك هـدمٍ ليس عنهـا مذَنـب؟ (٤)

وكذلك فإن الصعاليك كانوا يسيرون وفق نظرية تعاهدوا عليها في حياتهم، وهي أن لا يهلك المستغيث من الصحاب والأقرباء، مادام الصعلوك على قيد الحياة وقادرا على خوض المغامرة وتخطي المخاطر، يقول عروَة بن الوَرد:

---

(١) تأبط شرا، الديوان، ص١٥٤-١٥٥.(العدي: أول من يحمل في الحرب، البائك: القاطع).

(٢) عروة بن الورد، الديوان، ص٩٢.(الردى: الهلاك).

(٣) تأبط شرا، الديوان، ص٢١٤.(الممر: المخادع، المداهن: المخاتل).

(٤) عروة بن الورد، الديوان، ص٨١-٨٢.(الهدم: الدم المهدور، المذنب: من يحمل الذنب).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَيهـلِك معتَـم وزيد ولَـم أَقُـم على نَدبٍ يوماً ولي نَفْس مخْطِرِ؟ [١]

فقد كان الصعلوك لا يتباطأ عن نجدة قومه إذا ذعِروا وتعرضوا لغزوٍ سلبوا فيه أموالهم، يقول مَالِك بن حَرِيم:

فَإن يك شَاب الرأْس مِني فَإنني أبيتُ علَى نَفْسِي مناقِب أربعـا

فَـواحِـدةٌ: أن لا أبيـتَ بِغِـرةٍ إذا ما سوام الحي حولي تَضوعاً [٢]

وإذا تعرضوا لحرب شُردت فيها النساء وتشتتن من الخوف، وزجرت فيها الخيول، وتعالت فيها النجدات بأصوات عالية، كان الصعلوك يقبل بشجاعة وحمية، سالا سيفه البتّار، يفلي به رؤوس الأعداء، يقول مَالِك بن حَرِيم:

لَـمـا رَأيـتُ نِسـاءنَـا يـدخُلْـن تَحـتَ البيتِ حبْـوا

وسمِعـتُ زجـر الخَيـل فِـي جـو الظـلامِ هبـي وهبـوا

فِـي فَيلَـقٍ مـلْمـومـةٍ تَعطُـو على النّجـداتِ عطْـوا

أقْبلـتُ أفـلـي بالحسَـا مِ معـاً رؤوس القـومِ فَلْـوا

والبيـض تَـلمَـع بينَنَـا تَعصـو بِها الفُرسان عصـوا [٣]

كما كان الصعلوك ينجد الأقرباء إذا ألمت بهم مصيبة، وتخلى عنهم زوجاتهم وباقي الأقرباء، فيمد لهم يد العون ويواسيهم أمام مصيبتهم، ويحميهم من خبث اللؤماء المحيطين بهم، يقول تَأبطَ شَراً:

وذِي رحِـمٍ أحـالَ الدهـر عنْـه فَلَيس لـه لَدى رحِـمٍ حرِيـم

أصـاب الدهـر آمـن مروتَيـهِ فَألْفَـاه المصـاحِب و الحمِيـم

مددتُ لَـه يمِينـاً مِـن جنَاحِـي لَهـا وفُـر وخَـافِيـةٌ رخُـوم

أُواسِيـهِ علَـى الأيـامِ إنـي إذَا قَعـدتْ بـهِ اللـؤَما أَلُـوم [٤]

---

[١] عروة بن الورد، الديوان ، ص١٥٣.(معتم وزيد: من جدود قبيلة عبس).

[٢] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم(١٥)، ص٦٤.(مناقب:مذاهب، تضوعا: تفرقا).

[٣] ابن منقذ، لباب الآداب، ص٢٠٣-٢٠٤.

[٤] تأبط شرا، الديوان، ص٢٠٤-٢٠٥.(ذي رحم: قريب، آمن مروتيه: أي آمن جانبيه، الوفر: الكثرة، الرخم: الحنان).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستمد الصعلوك القوة في الحرص على النجدة من قومه وأصحابه، فإذا ما أنجد أحدا وتعسر عليه واجبه تجاهه، بمواجهة بعض الصعوبات، استمد العون من قومه، فيقبلون لنصرته كالسيل الهائل، يقول صخر الغي:

أبـا المثلم إنّـى غيـر مهتضـمٍ إذَا دعوتُ تَميماً سالتِ المسـلُ [١]

لذا أكثر الصعلوك في مدح نصرة قومه والتفاخر بها، يقول صَخْر الغَي في قومه:

لو أن حولى مـن قُريـمٍ رجـلا بِيض الوجوهِ يحمِلـون النبـلا

لمنَعـونى نَجـــدةً أو رســـلا سفْع الخُـدودِ لم يكُونـُوا عزلا [٢]

ويقول عَمرو بن بَراقَة:

ناديتُ همدان والأبـواب مغلقـةٌ ومِثْلُ همدان سنّي فتحتة الباب

كالهندوانِـي لـم تُفْلل مضاربـه وجه جميلٌ وقلب غير وجـاب [٣]

ومن مظاهر بطولته الحربية أيضا الدفاع عن القبيلة والحمى، فكل فرد في الجاهلية ينتمي لقبيلة "تعيش على أرض تنزل بها وتعتبرها ملكا لها، تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب النزول أو المرور بها إلا بموافقتها أو رضاها" [٤]، وبحكم الحمية والعزة وروابط الدم، تمتلئ نفس الإنسان الجاهلي غرائز تحتم عليه الدفاع عن أرضه وحقوقها دون مِنّة.

إن الصعلوك البطل تمتلئ نفسه غيرة على حماه كغيره من الجاهليين، فحرص على صد الأعداء عن قبيلته وحماه، باذلا كل قواه وما يملك من عدة لردع الأعداء، ومتفاخرا بهذا التصرف لدلالته على البطولة والعزة.

فقد تصدى قَيس بن الحِدَادِية وقومه لغزو الضريس القشيري، موحدين صفوفهم، وثابتين؛ دفاعا عن القبيلة، فقاتلوهم بكل شراسة بسيوفهم ورماحهم ونبالهم، إلى أن هزموا منصرفين دون أن يغنموا شيئاً، فيقول قيس مادحا صمود قومه:

فِدى لبني قَيس وأفْنـاءِ مـالِكٍ لدى الشسع من رجلي إلى الفَرق صاعِدا

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٢٦٩.(مهتضم: مستذل، سالت المسل: جاؤوا كالسيل).

[٢] المصدر نفسه، ١م، ص٢٨٢.(النجدة:الشدة، الرسل:اللين،العزل: الذين لا سلاح معهم).

[٣] الخالديان، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، ج٢، ص٢٠٣.(سنّى: سهل، الهندواني:سيف مطبوع من حديد الهند، تفلل: تثلم، وجاب: خفاق).

[٤] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص٣٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غَداةَ أتى قَوم الضـريس كأنهم قطـا الكُـدر مـن ودان أصبـح واردا
فَلم أر جمعاً كـان أكرم غالِبـاً وأحمـى غُلامـاً يـوم ذلك أطـردا
رميناهم بالحـو والكُمتِ والقَنا وبِيـض خِفـافٍ يختَليـن السواعِـدا [١]

ويدافع مَالِك بن حَريم عن منطقة الجَوف التي تعد من حماه، مهددا عدوه إن فكّر في غزوها بأنه وقومه سيتصدون لهم بالجيوش العاتية المسلحة، ويشردونهم بأعراض اليَمَامَة والجَرَاد، يقول:

إذا سألتـك نفسـك إن نَـرانـا بِماك الجـوفِ فاغتَـرب النّجـادا
نَرانَـا بالقَـرارة غيـر شَـك نُقَـودهـا مسـومـةً جِيَـادا
علينـَا كُـل قَـضفَـاض دلاص وأسيـافٍ ورثنَاهـن عـادا
سنَحمي الجوفَ مادامت معِيـن بـأسفَلِـهِ مـقابِلَـة عَـرادا
ونُلحِـقُ مـن يزاحِمنـَا عليـه بـأعـراض اليمامـةِ أوجـرادا [٢]

ومن مظاهر بطولته الحربية خوض الحروب والمعارك، فقد كانت حياة الجاهلية "حياة حربية تقوم على سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سنّة من سننهم، فهم دائما قاتلون مقتولين، لا يفرغون من دم إلا إلى دم" [٣]، فكان لزاما على الصعلوك أن ينخرط في هذه الحياة حتى يحافظ على حياته، فاستغل هذا النمط من الحياة، وجعله ساحة لبطولاته، يحقق فيها ذاته وشخصيته، وينجز من خلالها أهدافه وغاياته.

لقد كان الصعلوك فارسا شجاعا، ابناً لهذه الحرب، يخوضها بفرسه القوي، فإن عقِر هذا الفرس ألقى بنفسه مقدما على الأعداء، صبور يصلى نار الوغى، يخرج من الحرب كنصل السيف مختضب الغرار منتصرا، تعرفه الفرسان لتمرسه المهارات القتاليه، لذلك تزور وتتراجع عنه خيولهم، لكنه يضاربهم ويطاعنهم فيصرع منهم من يصرع ويلوذ الآخرون بالفرار، يقول حَاجِز بن عَوف:

فأمـا تَعقِـروا قَـرسِـي فإنّـي أُقَـدمهـا إذا كَثُـر الثّغـازي

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص١٥٠.(الشسع:سير النعال، الفرق: وسط الرأس، الكدر وودان: موضعان، الحو والكمت: لونان بين السواد والحمرة).

[٢] الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، (ت٣٤٤هـ). صفة جزيرة العرب، ط١، (محمد بن علي الأكوع)، دار اليمامة، الريـاض، ١٩٧٧، ص٣١٣.(الجوف والقرارة ومعين والعراد واليمامة والجراد: مواضع).

[٣] ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، ص٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحمِلُـها علـى الأبطـال إنـي ... على يـومِ الكريهـةِ ذُو اصطِبـار
صلِيتُ بِغَمـرةٍ فَخَرجـتُ مِنْهـا ... كنَصل السـيفِ مخْتَضِـب الغِـرار
كأن الخَيـلَ إذْ عرقَـتْ مفاهِـي ... تَفادى عـن شَتِيـمِ الوجـهِ ضـار
أُكفُّهـم وأَضـربهـم ومِنـي ... مـشَلْشَلَـةٌ كـحاشِيـةِ الإزار
فَلَـم أَبخَـلْ عَـداتَئِـذٍ بِنَفْسِـي ... ولا فَرسِـي علـى طَـرفِ العِيـار
نُضارب بالصفائِح مـن أَنَـاسٍ ... وأُخْـراهـم تمـلأُ بـالفِـرار [1]

لذلك كان دائما مستعدا متهيأ لهذه الحروب، يخطط لمباغتة الأعداء، ومعتدا بكامل عدته الحربية، من سيوف صارمة، ورماح طويلة مسننة، يقول مَالِك بن حَرِيم مخاطبا عدوه عَمرو ابن مَعدِي كَرِب الملقب بأبي ثَور:

سلِئَـلْ بني ثَـورٍ فَهـلْ لاقاكُـم ... يـوم العروبـةِ جحفَـلٌ خَطـاب
متَشَنعـون لأن يشُنـوا غـارةً ... بيـض الصـوارِمِ فيهـم والغـاب [2]

فإذا ما شارفت الأشهر الحرم على نهايتها، واقبلت الأشهر الحل، كان الصعلوك يجهز فرسه ليحتل الأماكن الأولى في مقدمة المقاتلين، يقول مَالِك بن حَرِيم:

قَرب رباطَ الجـون منـي فَإنـه ... دنا الحِل واحتَل الجميع الزعلِـفُ [3]

ومن شدة كلف الصعلوك بالحرب أنه كان يقطع لها أطول المسافات، فيجلب لها أطيب الخيول اليمنية المشهورة بقوة التحمل، لكي يقطع هذه المسافات البعيدة، فيعبر بخيله الوديان الوعرة، إلى أن تتساقط من أرجلها النعال والعقُل، وتضع منها من كانت تحمل في بطنها السخال، أما المطايا التي تتخاذل وتتكاسل في السير ومواصلة الطريق معه، فإن الجيش يضحي بها ويذبحها ليأكلها الفرسان الجياع، يقول مَالِك بن حَرِيم:

ونَحن جلبنا الخَيلَ مِن سرو حِميرٍ ... إلى أن وطِئْنـا أرض خَثْعم أجمعـا
فَمـن يأْتِنا أويعتَـرض بِسبيلِنـا ... يجِد أثَراً دعسـاً وسخْـلاً موضعـا
ويأْقَ سفيطـاً مِن نِعـالٍ كثيـرةٍ ... إذا خَـدم الأوسـاغ يومـاً تَقَطعـا

---

[1] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٣٠١-٣٠٢.(الغرار: حد السيف والسهم والرمح، المقـام: المكانـة، شـتيم الوجه:صاحب شر، المشلشلة:السيالة كثيرة صب الدماء).

[2] الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس، (ت٢٣١هـ). كتاب الوحشيات، ط٣، (محمود محمد شاكر)، دار المعـارف، القـاهرة، ١٩٨٧، ص٢٥٤.(يوم العروبة: يوم الجمعة، جحفل:جيش، الغاب: الرماح).

[3] ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، (ت٢٧٦هـ). كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني، ط١، ج٢، (عبـدالرحمن بـن يحيـى اليماني)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤، ص٨٨٨.(الجون:فرسه، الزعانف: الزوائد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا ما بعيـر قَـام علـقَ رحلُـه وإن هـو أبقَـى ألحمـُوه مقطعـا [١]

ومن صور بطولة الصعلوك أنه لم يكن يبالي بأعداد الجيوش التي يهاجمها، أو يتصدى لها، فهو شجاع مقدام يتصدى لأي عدد يواجهه، وقد وضح البطل حَاجِز بن عَوف عدم اهتمامه بالجموع الهائلة التي هاجمتهم، يقول:

فَجـاءتْ خَثْعـم وبنُـو زبيـــدٍ ومذْحِـــج كُلُّهـا وابنـا صحـار
وجمع مِـن صـداءٍ قَـد أتانـا ودعمِـي وجمـع بنـي شِعـــار
فَلَم نَشْعـر بِهِـم حتّـى أتَونـــا كَحِميـر إذْ أنـاخَـتْ بالحِمـــار [٢]

وكان الصعلوك يحرص في هذه الحروب على اختيار أفضل الخصوم، ومبارزة الشجعان، لأنه يرى أن قتاله مع الضعفاء انتقاص لمكانته، وهيبته فلا فخر بقتلهم، عكس قتاله مع الشجعان فإنه يشعره بقيمة النصر، وقيمة التحدي، فيجد منه مادة يتفاخر بها، وهذا ما يظهره عروَة بن الوَرد، فكان إذا أقبل في الحرب لا يبارزه إلا الشجعان، فرحا بهذه المبارزة يقبل على عدوه بسيفه ذي الحديد الصلب المصقول، فيقاتله بكفاح إلى أن يتركه في ساحة المعركة طعاما للضباع الخاملة، التي لا تحب أن تتعب في صيد فريستها، يقول عروة:

إذا قِيلَ: يالبن الوردِأقْبِلْ الى الوغَى أجبـتُ قَلاقـانـي كمِـي مقَـارع
يكفي مِن المأثـور كالملح لونُـه حديثٌ بإخـلاص الذُكـورةِ قاطِـع
فَانـزلُـه بالقـاع رهنـاً لِبلـدةٍ تَعاوره فيهـا الضبـاع الخواضِـع
محالِفَ قاعٍ كـان عنـه بِمعـزلٍ ولكن حيـن المـرءِ لا بـد واقِـع [٣]

إن الصعلوك قضى حياته كلها في الحروب، وأبلى بها بلاء حسنا، ولكن هناك بعض الظروف المحيطة به تجعله يحد منها، ولا يفهم ذلك أنه جبن منه، فقد بين الشنْفَرَى أن الهم أحد هذه الظروف، هم الجنايات التي يرتكبها في الحروب، فهو يشفق على نفسه من هذه الهموم؛ لأنه لا ينام الليل بسببها، فهي تطارده في كل وقت، يقول:

فإن تَبتَئِس بالشنْفَـرى أم قسطـلٍ لما اغْتَبطَتْ بالشنْفَـرى قَبـلُ أطْـولُ
طَريـد جِنَايـاتٍ تَيَاسـرن لحمـه عقِيـــرتُـه لأيِـهـا حـــــم أولُ

[١] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٤-٦٥.(سرو وحمير: بلاد، الموضع: المتفرق، الخدم: السير الغليظ).
[٢] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٣٠٠.(خثعم وزبيد ومذحج وصداء ودعمي وبنو شعار وحمير: قبائل).
[٣] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨٢-١٨٣.(المأثور: السيف المحفوظ المتوارث، الخوامع: التي تعرج في مشيها).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَنَام إذا ما نـام يقْظـى عيونُهـا حِثـاثـا إلـى مـكْروهِـهِ تَتَغَـلْغَـلُ [١]

ومن مظاهر بطولته الحربية أيضا التنكيل بالأعداء، لأن التنكيل بالأعداء له أثر في النفس "يبعث الهلع، ويهول عيون الأواسي، ويضرب منه النساء نحورهن، ويسوء العدو، ويقر عين الشامت، ويفصل بين الحق والباطل، ويصد الأعداء، ويحمي الديار" [٢]، لذا حرص الصعلوك على أن يبصم بصمته على العدو بضرباته، حتى يملأ قلب العدو رعبا ورهبة، ويعلِم الجميع مدى الهزيمة التي تعرض لها هذا العدو، فكانت طعناته بالرمح شديدة، مروعة، قاضية، لا أمل في شفاء المطعون منها، وكانت ضرباته بالسيف تزيل الهامات عن سكناتها، وتبتر العظام عن مواضعها، يقول أبو الطمَحَان القَيني في طعنه، وضربه للأعداء:

بِضربٍ يزيلُ الهام عـن سكناتِهِ وطَعنٍ كتَشْهاق العِفا هم بِالنهـق [٣]

ويقاتل حَاجِز بن عَوف أعداءه الأشداء الأبطال بطعنات شديدة وضربات قاطعة سريعة، يقول:

يصِيب مفاصِلَ الأبطـال مِنْهـم قَحِيطُ الطّعـن والضـرب الخَذِيـم [٤]

لقد كان تنكيل البطل الصعلوك بأعدائه يثير الرعب في قلوبهم، فقد يدفعهم للفرار من المعركة، أو الحيرة، وعدم المقدرة على التفكير، والتخلص من المخاطر، أو أن يتصرفوا تصرفات غريبة تكون سببا في نهايتهم، كما فعل بنو عَامِر حين هاجمهم عروَة بن الوَرد ومن معه من الفرسان، فخوفهم من الضرب والطعن دفعهم لأن يقتلوا أنفسهم بلف الحبال على أعناقهم وخنق أنفسهم، يقول عروة:

ونَحن صبحنا عامراً إذْ تَمرسـتْ علالَـةَ أرمـاح وضربـاً مذكـرا
بِكُـل رقـاق الشَفْرتَيـن مهنـدٍ ولدنٍ مِن الخَطي قَـد طُـرَ أسمـَرا
عجِبتُ لهم إذْ يخْنِقون نُفُوسهـم ومقْتَلُهم تَحتَ الوغَـى كان أَعـذَرا
يشُد الحليم منهـم عقْـد حبِلـهِ ألا إنمـا يأتي الذي كـان حـذرا [٥]

---

[١] الشنفرى، الديوان، ص٦٧-٦٨.(أم قسطل: الحرب، اغتبط : سر، تياسر: اقتسم، حثاثا: سراعا).

[٢] الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص١٨٤.

[٣] ابن منظور، لسان العرب، مادة (شهق)، ص٢٣٠.

[٤] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٢٩٨.(طعن قحيط: شديد، ضرب خذيم: قاطع).

[٥] عروة بن الورد، الديوان، ص١٦٥-١٦٧.(تمرست: تعرضت، لدن: لين المهزة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذلك حرص الصعلوك على التنكيل بالأعداء، فكانت طعناته نافذة واسعة لا يمكن التئامها، ويصعب علاجها لتقطيعها موضع الطعن من كل الجهات، ويخرج منها الدم بشدة، فتلطخ صاحبها وملابسه، يقول تأبطَ شَراً في وصف طعنته للأعداء:

وطعْـنَةِ خَـلْسٍ قَـد طَعنْتَ مرشةٍ ... لَـها نَفَـذٌ تَضِـلُ فيـهِ المسَـايِر

إذَا كُشِفَتْ عنْهـا الستُور شَحا لها ... فَم كَفَـمِ العـزلاءِ فَيحـان فَـاغِر

يظَـل لَـهـا الآسِي يمـيد كأنـه ... نَزِيفٌ هراقَـتْ لُبـه الخَـمر ساكِـر [١]

كما لم يكن يكتفي الصعلوك البطل بضربات أو طعنات قليلة، بل أكثر منها، وجعلها متتابعة، ونوع في أماكن غرسها، فقد وجه السليك بن السلكة لعدوه عدة طعنات في أماكن مختلفة من جسمه، فأزال بطعناته هامة العدو، يقول:

دِمـاء ثـلاثـةٍ أَردتْ قَنَـاتـي ... وخَـاذِفُ طَعنَـةٍ بِقَفَـا يسـار

فهـذي مـدةُ خَمـس ولاء ... وسـادِسـةٌ علـى جنْبـي عِشـار

كـأن مفَالِـقَ الهـامـاتِ مِنهـم ... صـرايـاتٌ تَهـاداهـا الجـواري [٢]

ومن مظاهر بطولته الحربية شن الغارات، والغارة هي "ذلك النوع من الهجوم الذي يشنه قوم على آخرين بغتة، ويعملون كل ما في جهدهم لإخفاء أخباره خشية أن تتسرب إلى القوم المقصودين بالغارة"[٣]، ووقت الغارة عادة "يحدث أول النهار في الصباح المبكر، فيبدأ المغيرون السير للغارة ليلا لكي يصلوا إلى القوم المقصودين بالغارة صباحا"[٤].

لقد كانت الغارة بالنسبة للصعلوك عصب حياته وميدان بطولته ومصدر رزقه، يتحدث عنها "حديث المؤمن بقيمتها في حياته، المعجب بها، الفخور ببطولته فيها، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة"[٥]، فأصبح هدفه منها "إما للثروة، وإما للمتعة، وإما لإظهار الشجاعة والبأس والقوة وإضعاف الآخرين"[٦]، فأما كونها مصدرا للثروة،

---

[١] تأبط شرا، الديوان، ص٨٠.(مرشة: تنشر الدم، شحا: انفتح، العزلاء: القربة، فيحان: واسع، فاغر: منفرج، الآسي: المعالج).

[٢] السليك بن السلكة، الديوان، ص٧٩-٨٠.(القناة: الرمح، الولاء: التتابع، مفالق الهامات: الرؤوس المشقوقة، الصرايا: الحنظلة).

[٣] الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص٧٩.

[٤] المصدر نفسه، ص٨٢.

[٥] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص١٨٢.

[٦] الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد كان الصعلوك يغير يوما على الصحاري وأهل المواشي ليستاق أنعامهم، ويوما على الريف ليسلب طعامهم، يقول تَأبطَ شَراً:

ويوماً على أهـل المواشِي ونَـارةً لأهـل ركيبٍ مِـن ثَميـلٍ و سنْبـل [١]

وكان يغير أياما على نجد يحقق الغنائم والمكاسب، ويقضي يومه الآخر ينعم فيها بما غنم من غارته: يقول عروَة بن الوَرد:

فَيوماً على نَجـدٍ وغَاراتِ أَهلِهـا ويومـاً بِأَرضٍ ذاتِ شَـث وعرعـر [٢]

وأما كونها مصدرا للمتعة، فقد كانت بمثابة الدواء لعلاجه، وقد عبر الشنْفَرَى في هذا عن حبه للغزو طالبا من أصدقائه ألا يزوروه إذا مرض، فطلب الغزو كفيل بشفائه، قائلا:

ألا لا تَعدنـي إن تَشكيتُ خُلتـي شَفَاني بأعلى ذي البريقَيـن عدوتـي [٣]

وأما كونها مصدرا لإظهار الشجاعة والقوة، فقد كان تأبط شرا يغزو مرة مفردا، ومرة مع بعض أصحابه الشجعان، يقول:

فيوماً بِغُـزاءٍ ويومـاً بِسريـةٍ ويوماً بِخَشْخَاش مِن الرجل هيضـل [٤]

لقد كانت الغارة مجال فخر للصعلوك ببطولاته، خاصة إذا كثرت هذه الغارات، أو كانت بعيدة المسافة، أو في أوقات صعبة، فقد ظهر في شعره الكثير من التفاخر والحديث عن الغارات، بوصف دقيق لما جرى بها من أحداث لتوضيح مدى البطولة والكفاح فيها.

فقد خرج السليك مع رفيقين يريدون الغارة على خَثْعَم، في ليلة باردة ممطرة، حتى أتوا بيتا منفردا عن الحي، فتقدم السليك متربصا بالبيت إلى أن خرج رب البيت لإبله يعشّيها، فتبعه السليك يخطط للخلاص منه وسلب الإبل، فما أن نام الشيخ وغطى جسمه بثوبه حتى انقض عليه السليك مستلا سيفه، فقطع رأسه، ولطخه بالدماء، وصاح بالإبل فطردها إلى أن وصل صاحبيه، فطرداها معه للحي، وقد صور السلّيك بن السلّكة هذه الغارة قائلا:

وعاشيـةٍ رج بِطـانٍ ذَعرتُهـا بِصـوتٍ قَـتيـلٍ وسطَهـا يتَسيـفُ
كأن عليـهِ لـون بـردٍ محبـرٍ إذا مـا أتَـاه صـارخٌ متَلَـهـفُ

---

[١] تأبط شرا، الديوان، ١٧٧.(الركيب: المزرعة، الثميل: الحب، السنبل: البر والشعير).

[٢] عروة بن الورد، الديوان، ص١٥٥.(الشث والعرعر: نوعان من الشجر).

[٣] الشنفرى، الديوان، ص٣٨.(تعدني: تزرني في مرضي).

[٤] تأبط شرا، الديوان، ١٧٧.(الغزاء: جمع غاز، السرية: مسيرة الليل، الخشخاش: الرجل الجرئ، الرجل: الراجلون).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَبـاتَ له أهلٌ خـلاء فِناؤهـم ومـرتْ بِهـم طَيـْر فَلَـم يتَعيفُـوا [١]

كما أغار الشّنْفَرَى مع عدد من الصعاليك، فيهم تَأبطَ شَراً، والمسَيب، وعَامِر بن الأخْنَس، وعَمرو بن بَراقَة يقصدون العَوص -حي من بَجِيلَة- فخرجوا كالذئاب وجوههم مشرقة لا يعرفون الخوف ولا التعب، وكانوا بحال من التلهف والسرعة، حتى أنهم لم يعهدوا إلى أحد القيام على شؤون بيوتهم وأهلهم، فهم مسرعون إلى غايتهم، إلى حد أنهم لم يقفوا عند مصادر المياه التي اعترضتهم في الطريق مع أنهم كانوا بحاجة ماسة للماء، وكانوا لا يملكون من الزاد شيئاً بل كانوا يأملون في الحصول عليه بعد الغارة، فوصلوا هدفهم بعد مسيرة ثلاثة أيام على أقدامهم، يتقدمهم دليل شجاع خفيف، فأغاروا على الحي آخر الليل، فبادر تأبط شراً بمهاجمة القوم بسيفه في حين كان المسيب قد سدد سيفه في نحورهم، أما الشنفرى وبقية رفاقه فقد قاموا بعملية الدفاع وصد الهجوم، فلم تمض ساعة من الوقت حتى انتصر الصعاليك بفرار عدوهم خائفا مذعورا، تاركا خلفه قتلاه الأبطال، وعادوا إلى قومهم سالمين مبشرين بالانتصار، وقد وصف الشّنفَرَى الغارة، قائلا:

دعِيني وقَولِي بعد ما شِئْتِ إننـي سيغْـدى بِنَعـشِـي مـرةً فَأُعَيـب
خَرجنَا فَلَم نَعهـد وفاتْ وصاتُنَـا ثَملِنِيـةُ مـا بعـدهـا متَعتـب
سراحِين فِتْيـان كـأن وجوههـم مصـابِيح أو لون مِن المـاءِ مذْهـب
نَمر بِرهو الماءِ صفْحاً وقَد طَوتْ شَمـائِلَنَـا والـزاد ظَـن مغَيـب
ثلاثاً على الأقْـدامِ حتى سما بِنَـا على العوص شَعشاع مِن القَوم مِحرب
فَثَاروا إلينَا في السـوادِ فَهجهجوا وصـوتَ فِينـا بالصبـاح المثـوب
فَشَن عليهم هِـزةَ السيـْفِ ثَائِتٌ وصمـم فيـهـم بالحسـامِ المسيـب
وظَلْـتُ بِفِتْيَـانٍ معي أتقِيـهـم بِـهـن فليـلاً سـاعـةً ثـم خَيبـوا
وقَد خَـر مِنْهـم راجِلان وفَارس كَمِـي صـرعنَـاه وقَـرم مسـلَّـب
يشُـن إلَيـهِ كُـل ريع وقَلْـعـةٍ شملِنِـيـةً والـقَـوم رجـلٌ ومِقْـنَب
فلمـا رآنا قَومنَا فِيـلَ: أفْلحـوا قَفُلْنَا : اسـألـوا عـن فَلِئِـلٍ لا يكذب [٢]

[١] السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٢-٨٣.(البرد: كساء من الصوف الأسود، محبر: موشّى، الصارخ: المتفجع من أهل القتيل).

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٢٧-٢٨.(سراحين: ذئاب، الشعشاع: الطويل الحسن، المحرب: الشجاع شديد الحرب، هجهجوا: صاحوا، المثوب: الراجع، القرم:السيد، المسلب: الملقى، الريع: المكان المرتفع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأغار الشَنْفَرَى أيضا في أحدى الليالي المظلمة الممطرة، الشديدة البرودة التي قد يضحي الفارس فيها بأغلى ما يملك، كأن يشعل بقوسه ونباله نارا كي يستدفئ، وأتم الشّنفرى هذه الغارة بسرعة كسرعة البرق ناجيا بنفسه قبل الصباح، ومخلفا وراءه النساء الأيامي، والأطفال اليتامى، وعندما استيقظ أهل الحي تعجبوا متسائلين عما جرى، هل كلابهم عندما نبحت ليلا كانت تنبح على ذئب، أو ضبع دخل الحي، أم من قطاة أفزعها صقر، ولكن حين أدركوا أنها غارة شنت عليهم، ظنوا أن من قام بها من الجن وليس من الإنس لما كانت عليه من جرأة وحذر، يقول الشّنفرى واصفا الغارة:

ولَيلَةِ نَحس يصطَلي القَـوس ربهـا ... وأقْطُعـه الـلاّتـي بهـا يـتَنَبـَلُ
دعستُ على غَطْش وبغْش وصحبتي ... سعـار وإرزيـز ووجـر وأفكَـلُ
فأيمـتُ نِسـواناً وأيتَمـتُ إلـدةً ... وعـدتُ كمـا أبدأتُ في الليلُ أليـَلُ
وأصبح عنّـي بالغُميصـاءِ جالسـاً ... فَريقَـان: مسـؤُولٌ وآخَـر يسـأَلُ
فَقَالُوا : لقَـد هـرتْ بِليـلِ كِلابنَـا ... فَقُلْنَـا: أنِئْـب عـس أم عس فُرعلُ
فَلَـم يـك إلا نَبـْأةٌ ثُـم هـومـتْ ... فَقُلْنَا : قَطَـاةٌ رِيـع أم رِيـع أجـدلُ
فَإن يك مِن جِـن لأبـرح طـارفـاً ... وإن يك إنْساً ما كَهـا الإنـس تَفْعـلُ [1]

لقد كان الصعلوك البطل عادة يترأس هذه الغارات إن كانت جماعية، لما يمتاز به من صفات بطولية قيادية، فقد امتاز بالحزم في معالجة الأمور الحربية، يتصدى لأعدائه بثبات، ويدافع عن أصحابه بقوة وشراسة، وقد ضرب الشَنْفَرَى مثلا جميلا لقائد الغارة واصفا إياه بالأم الحنون التي تخاف على أبنائها، محملة بالسلاح لتصد به الأعداء عن أبنائها، قائلا:

وأُم عِيـالٍ قَـد شَهَـدتُ تَقُوتُهـم ... إذا أَطْعَـمتْهـم أَونَحَـتْ وأَقـلّـَتِ
تَخَافُ علينَا العيلَ إن هي أكْثَـرتْ ... ونَـحـن جِيـاع أي آلٍ تَـأَلـتِ
مصعلِكَةٌ لا يقْصر الستْـر دونَهـا ... ولا تُرتَجى لـلبيـتِ إن لـم تُبـيـتِ
لَها وفْضةٌ فيهـا ثلاثون سيحفـاً ... إذا آنـستْ أُولى العـدِي افْشَـعـرتِ
وتأْتِي العدِي بارزاً نِصفُ سافِـا ... تَـجـولُ كعيـر العانَـةِ المتـَقَـلـتِ
إذا فَزِعوا طارتْ بأبيـض صـارِمٍ ... ورامتْ بما في جـفْـرها ثم سـلـتِ [2]

---

[1] الشنفرى، الديوان، ص٦٩-٧١.(الغميصاء: اسم بلد قرب مكة، هرت: نبحت، الفرعل: ولد الضبع، النبأة: الصوت، الأجدل: الصقر).

[2] المصدر نفسه، ص٣٥-٣٦.(الوفضة: الجعبة، السيحف: السهم العريض النصل، العير: الحمار البري، العانة:أنثى الحمار).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مظاهر بطولته الحربية أيضا الفرار، وإن كان عاراً عند الجاهليين إلا أنه عند الصعاليك "نوع من البطولة، فيه مقدرة وشجاعة في ضبط الأعصاب وفي التصميم والإقدام على السلامة والنجاة بالنفس وبقاء الحياة، وهكذا أوجدوا لفرارهم عذرا اعتذروا به، فهم إن اختاروا الفرار لأن فيه أمل المعاودة إلى قتال جديد، ثم إنهم لا يرون سببا يدعو الإنسان إلى أن يرمي نفسه في المهالك، فالعاقل في نظرهم من نجى نفسه من الموت" [١].

إن فرار الصعلوك لا يدل على جبنه وإنما يدل على حكمته وخبرته التي استمدها من الحياة، فقد نهج الصعلوك فكرة الكر والفر في حروبه وغاراته، وهي فكرة البطل العاقل الذي يقاتل الأعداء بثبات وصلابة، فإذا ما أحس أن العدو كثر عليه، وصعب هزيمته، وأن الخطر محدق به لا محالة فر من أمام عدوه ناجيا من الخطر، ليعاود الكرة بالهجوم من جديد في وقت آخر، وفي فرصة أفضل يكون النصر فيها محققاً، يقول أبو خِرَاش الهذَلي رادا على عاذلته ومبينا لها خطته في القتال:

فَإن تَزعمِي أنـي جبنْتُ فَإنِنـي ... أَفِـر وأَرمِـي مـَـرةً كُـ ـل ذلِكِ

أُقاتِلُ حتى لا أرى لِـي مقَاتَـلاً ... وأَنْجو إذَا ما خِفْـتُ بعض المهالِكِ [٢]

لذلك كان الصعلوك يتفاخر بفراره من العدو دون خجل باعتباره إحدى البطولات الحربية، ولكنه كان يحرص أثناء تفاخره على تبيان السبب لفراره، وإلا عد هذا الفرار فضيحة له، ومنقصة لبطولته.

فقد نجا حَاجِز بن عَوف من عدوه بالفرار وليس بالقتال، حين هاجمه عدو كثير العدد، محمل بالسيوف والنبال، كأن صوتهم في لحاقهم حاجز حريق تدفعها الرياح تجاهه، فلم يستطع التصدي لهذا العدد الهائل من الفرسان، فلاذ بالفرار، لأن الوقوف أمام هذا العدد الكبير يعد من التهلكة، يقول حَاجِز:

فِدى لكُمـا رجلي أمـي وخَالتـي ... بِسعيكُمـا بين الصفـا والأثَلِئـبِ

أوان سمِعتُ القَوم خَلْفِـي كأنهـم ... حريقُ إباءٍ فـي الريـاح الذوابِـبِ

سيوفُهم تُغْشي الجبـان ونُبلُهـم ... يضِيء لدى الأفْواهِ نـار الحباحِـبِ

فَغَير قِتالـي في المضِيق أعَانَنـي ... ولكن صريح العدو غَيـر الأكـاذِبِ

---

[١] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦١٠.

[٢] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَجـوتُ نَجـاء لا أبيـك تَبثـه ويِنْجو بشِير نَجو أزعـر خَاضِـبِ [١]

ونجا الأعلم الهذَلي مع صاحبه بفرارهما من بَنِي كِنَانَة، حين طاردهم أسرع القوم، إضافة إلى الإمداد الذي طلبوه من قومهم، ففزع الأعلم من منظرهم، لكن فزعه لم يمنعه من حث صاحبه على الفرار، فقد فر خشية أن يقع في يد القوم ويقتلوه، فيصبح طعاما للذئاب، والضباع، والثعالب، والطيور الجارحة، يقول الأعلم:

لمـا رأيـتُ القوم بِالعلْيـاءِ دون فِـدى المنَاصِـبِ
وفَريتُ مِـن فَـزعٍ فَـلا أرمِى ولا ودعـتُ صاحِـبِ
يغرون صاحِبهـم بِنَا جهـدا وأُغْـرى غَيـر كـاذِب
أُغْـرى أبـا وهـبٍ لِيعجِزهـم ومـدوا بِالحلائِـبِ
وخَشِيتُ وقْع ضريبـةٍ قَـد جربـَتْ كـُل التجـارب
فَأكُون صيدهـم بِهـا لِلذئْـبِ والضبـع السواغِـبِ
جـزراً وللطيـر المربـةِ والذئَـابِ وللثعـالِـب [٢]

أما أبو خِرَاش الهذَلي فقد فر من بني نُفَاثَة حين أحس بوقوع الموت حين لاقاهم، فَكره أن يقتل بسيوفهم الحادة، فألقى ثيابه وأسرع في العدو، كأنه حمار وحشي ضامر البطن، يقول:

لمـا رأيتُ بنِـى نُفَاثَـةَ أقْبلُـوا يشْلُـون كُـل مقَلـصٍ خِنـابِ
فَنَشِيتُ ريح الموتِ مِن تِلْقَائِهـم وكَـرهـتُ كـُل مهنَّـدٍ فـضـابِ
ورقَعتُ سافاً لا يخَـافُ عِثَارهـا وطَرحـتُ عنـى بِالعـراءِ ثِيابِـى
أقْبلْـتُ لا يشْتَـد شَـدى واحِـد عِلْـج أقَـب مسيـر الأقْـرابِ [٣]

ومن مظاهر بطولته الحربية إدراك الثأر، وعدم التراجع عنه، فالثأر واجب على أقرب الناس للقتيل من قريب، أو جار، أو صديق، ومن يتراجع عنه يعد ذليلا مهانا، لذا حرص الصعلوك على تحقيق ثأره بكل فخرٍ وتباهٍ، فقد تفاخر قَيس بن الحِدَادِية بتحقيق ثأره من هَوَازن التي أغارت على قومه فقتلت وسلبت، يقول:

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص٢٣٨-٢٣٩.(الأثائب:شجر ينبت في الأودية، الحباحب:ذباب يطيـر، الأزعـر:القليـل الـشعر، الخاضب:الظليك إذا أكل الربيع فاحمرت قدماه).

[٢] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣١٢.(قدى المناصب: مجال رمي السهم، مدوا الحلائب:طلبوا الامداد بعدد من الفرسـان، الطير المربة: المعتادة على أكل اللحم).

[٣] المصدر نفسه، ٣م، ص١٢٤٠.(يشلون:يدعون، خناب:طويل،نشيت:شممت،أقب:ضامر، مسير الأقراب:فيه خطوط).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَرعنَـا قُشَيراً في المحـل عشِيةً ... فلَم يجِدوا في واسِعِ الأرض مسرحا
فَتَلْنـا أبا زيـدٍ وزيـداً وعامِـراً ... وعـروةَ أَقْصدنَـا بِهـا ومروحـا [١]

وتفاخر الشنْفَرَى بتحقيق ثأره من بني سَلامَان، فقتل قاتل أبيه في منى وسط جموع الحجيج، بقول:

فَتَلْنَـا قَتِيـلاً محـرماً بِملبـدٍ ... جِمار مِنًى وسطَ الحجِيج المصـوتِ
جزينَا سلامان بن مفْرج قَرضهـا ... بِمـا قَدمـَتْ أيـدِيهـم وأزلـتِ [٢]

ولم يكن الصعلوك يثأر لأقربائه فقط، بل كان يثأر لجاره إن استبيح، ويثأر لنفسه إن سعى له أحد بشر، فقد ثأر أبو جنْدب الهذَلي لجاره الخُزَاعِي حين قتلته وسلبته بَنُو لِحيَان، فصبح بني لحيان بخيل مغيرة كأنها جراد يتخلّلهم، فشردهم وشتّتهم في مواضع كثيرة، ما بين حَداء والحَشَا والأُثَيل وعَاصِم، واستاق أنعامهم كلها من الخيل والغنم، يقول:

على حنَـق صبحتُهـم بِمغِيـرةٍ ... كَرجـل الذبـا الصيفِى أصبح سائِما
بغَيتُهـم ما بين حـداء والحشَـا ... وأوردتُهـم مـاء الأُثَيـْل فَعاصِمـا
إلى ملـج القَيفَـا فَقُنـةِ عـازبٍ ... أُجمـع مِنْهـم جامِـلاً وأَغَـانِمـا [٣]

أما قَيس بن الحِدَادِيَة فقد ثأر لنفسه من بَنِي قُمَير، وهم من قومه، لأنهم أكثروا في التّحريض على خلعه، فأغار عليهم مع جماعة من شذاذ العرب، فقتل سيدهم ابن عشّ، واستاق أنعامهم، فلحقه رجل من قومه عزيز عنده يقال له ابن محَرق، وطلب منه أن يسترد الأنعام، فاسترد بعضها، قائلا:

فاقسم لـولا أسهم ابـن محـرق ... مـع اللهِ ما أكثـرتُ عـد الأقَـاربِ
تركتُ ابن عش يرفَعون بِرأْسِـهِ ... ينُـوء بِسـاق كعبهـا غَير راتِـبِ
وأنهاهم خلْعي علـى غير ميـرةٍ ... من اللّحمِ حتّى غُيبوا فـي الغَوائِـبِ [٤]

إن الصعلوك لا يتهاون عن ثأره أبدا، حتى وإن كان القاتل من أقربائه، أو كان القتل بالخطأ ودون قصد، ولا يقبل العوض بدية من المال، فقد رفض أبو جنْدب الهذَلي أن يقبل الدية

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص١٤٦.(أقصده: طعنه فلم يخطئه).

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٣٧.(سلامان بن مفرج: بطن من الأزد، أزلت: قدمت).

[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٥٣-٣٥٤.(حنق:غيظ، حداء والحشا والفيفا:مواضع، أثيل وعاصم:ماءان)

[٤] الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص١٤٣.(ما أكثرت عد الأقارب: أي لقلت عدد أقاربي، غير راتب: غير منتصب، الميـرة:الطعـام الذي يمتاره الإنسان).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي عرضت عليه من بني لُبنى أحد بني هذَيل لقتلهم أخيه خطأ، ساخرا منهم ومهددهم بذلّ عظيم على ما اقترفوه، فأخوه المقتول سيجلب لهم البلاء والذل كما جلب كُليب بن وَائِل وقُدَار بن عَاد الذلّ لقومهما، يقول:

فَمن كَان يرجو الصلْح فِيهِ فَإِنـه كَأَحمـر عـادٍ أَو كُلَيـبٍ لِـوائـل
أَذَلوا هذَيلاً بِابن لُبنَـى وجدعـوا أُنُـوفَهـم لِلوذَعِـى الحـلاَّحِـل [1]

بل كان دائم التحريض على تحقيق الثأر خاصة إن كان المقتول رجلا شجاعا، فقد حرض أبو خِرَاش الهذَلي قوم صاحبه المقتول على أن يثأروا له، أو يعاونوه في تحقيق ثأره، لما كان عليه من شجاعة وقوة، يقول:

فَما بالُ أَهل الدار لـم يتَحملـوا وقَد بان مِنْها اللوذَعِـى الحلاحِـلُ [2]

وكان الصعلوك يثأر للفارس الشجاع ثأرا يليق بمقامه، كما فعل المهَلهِل بنَي بَكْر حين ثأر لأخيه كُلَيب، فعلى قدر ما كان الفارس من شجاعة وشرف يكون عدد القتلى والخسائر، فقد وعد حَاجِز بن عَوف أن يغزو ويثأر لصاحبه ثأرا يليق بمقامه، أو يموت وهو عزيز كريم، فقام بغزوةٍ سريعة كسرعة الذئب حقق من خلالها وعده، يقول:

فَـتَلْنَـا ناجِيـاً بفتيـل فَـهـمٍ وخيـر الطالـبِ الثِّـرةَ الغَشُـوم
بغَزو مثـل ولْـغ الذئْـبِ حتّـى ينُـوء بـصـاحبـي ثَـأْر منِيـم
ينـوء بِصـَاحِبـي أُويفْتُلُـونِـي فَتِيـلٌ ماجِـد سمـح كَرِيـم [3]

لقد اعتبر الصعلوك الثأر شفاء لنفسه، فكان يستشفي بالقاتل مما في قلبه من غلّ وحزن، فتحقيق الثأر يشعره بالانتصار، ويملأ قلبه بهجة وسروراً، فقد شفى الشنْفَرَى غليله بتحقيق ثأره، يقول:

شَفَينا بِعبـدِ اللّـهِ بعض غَلِيلنَـا وعوفٍ لدى المعدى أَوان استَهلتِ [4]

ومَالِك بن حَريم أشفى غليله بثأره من بني الخَيفان وبني زَبيد ومن والاهم، حين قطع مسافات بعيدة متعبة ومجهدة بجيش من قومه يقوده الأشراف والأسياد، قائلا:

---

[1] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٤٦.(اللوذعي:الشهم الذكي البين اللسان، الحلاحل: السيد الرزين في مجلسه).

[2] المصدر نفسه، ٣م، ص١٢٢٢.

[3] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٢٩٦.(الترة:الظلم في الثأر، ولغ: لهث، ثأر منيم: ثأر فيه وفاء،ينوء: يليق).

[4] الشنفرى، الديوان، ص٣٧.(الغليل: العطش إلى القتال، المعدى: موضع القتال،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نُريد بنـي الخَيفـان إن دِماءهـم شِفـاء وما والـى زبيـد وجمعـا
يقُـود بِأرسـان الحِيـادِ سراتُنـا لِينْقِمن ونْـراً أو لِيدفَعـن مدفَعـا
تَرى المهرةَ الروعاء تَنْقُض رأسها كَـلالاً وأينـاً والكُميـتَ المقَزعـا [١]

أما حَاجِز بن عَوف فقد ثأر لقومه من بني هِلال، وشُفي حين رأى نساءهم يبكين، ويندبن قتلاهم، فقال مخاطبا ضَمر بن عَامِر سيد بني هِلال:

يـا ضمـرهـلْ نِلنَاكُـم بِدمائِنَـا أم هـلْ حـذَونَـا نَعلكُـم بِمِثْـال
تَبكي لِقَتْلَـى مِـن فُقَيـمٍ قُتلُـوا فَـاليـوم تَبكـي صادِقـاً لِـهـلال
ولقَد شَفَانِـي أن رأيتُ نِساءكُـم يبكِيـن مـردفَـةً علـى الأكْفَـال [٢]

ومن شدة كلف الصعلوك بالثأر أنه كان يحرم الخمر على نفسه حتى يحقق ثأره، فالخمر أفضل ملذات الجاهلي، لذا كان يسرع في تحقيق الثأر حتى تحل له من جديد، وكأنه بهذا كان يعاقب نفسه أو يحفزها، فقد حرم تَأبطَ شَراً الخمر وشراءها على نفسه، حتى وإن كانت ممزوجة بالعسل أو الماء العذب، إلى أن يغير على بطون هذَيل، من عتَير، وكعب، وقُرَيم، وسَيار، ليحقق ثأره بهم، فبعدها تحل له الخمر، يقول تَأبطَ شَراً:

وحرمـتُ السبَـاء وإن أُحِـلـتْ بِـشَـور أو بِـمِـزج أو لِصـَاب
حيـاتِـي أو أزور بـَنِي عتَـير وكَـاهِلهَـا بِـجمـعٍ ذِي ضبـاب
إذَا وقَعـتْ بِكَـعبٍ أو قُـريـْعٍ وسـيـار فـقَـد سـاغَ الشـراب [٣]

ومن مظاهر البطولة الحربية أيضا أخذ السبايا، فهي تشعر الصعاليك بالنصر الكبير، وإذلال العدو، لأن النساء هن شرف القبيلة، وعزها في الجاهلية، لذلك يسعى الفارس جاهدا فيبذل كل ما يملك للدفاع عنهن، فإذا فشل في حمايتهن خسر كرامته وعزته، لذا أكثر الصعاليك من التفاخر بأخذ السبايا.

لقد فخر الصعلوك البطل بانتقاء أجمل السبايا، فقد تفاخر أبو الطمَحَان القَيني بانتقاء واختيارأجمل نساء العدو، ضاربا لنا مثلا جميلا في التصوير، فشبه نفسه بحمار الوحش الأسود القوي الذي يطوف على قطيع من الأتن الرشيقة التي في عنفوان شبابها وقوتها، لم تحمل من

---

[١] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٥.(الخيفان وزبيد: قبيلتان، السراة: الأسياد، الوتر: الثأر، الروعاء:بها فزع).
[٢] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص٢٣٩.(المردفة: التي ركبت خلف الراكب، الأكفال: العجز).
[٣] تأبط شرا، الديوان، ص٦٨-٧٠.(السباء: الخمر، الشور: العسل، اللصاب: الماء البارد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبل، يطوف عليها وهي في المرعى فيختار أجملهن، ويسوقهن أمامه يدفعهن دفعا مبديا غضبه، يعض من تشاكسه أو تتخاف عنه، فينتظمن أمامه جميعا ويسرن على نسق واحد إلى أن يصل إلى هدفه، يقول:

إذاك أم جـأب النسالـةِ قـارح يطُوفُ على ورقٍ خِفَـافٍ حوائِـل
تَخيرهـنَ العـون إذْ هو راتِـع كما طافَ سرو الخَيل مدكِي القَنابِل
إذا ما شَحا فيهن فُـوه لِمسحـجٍ لِيعـدِلهـا كأنـه فـَرخُ زاجـل
رصفْـن رصافاً تهتَـدِي لِلبانِـهِ كما يهتَدي لِلكَيـدِ نَبـلُ المناضِـل [1]

وافتخر الصعلوك أيضا بجعل السبايا يمشين على كره بين الجبال والوديان، "يلطمن الوجوه ويذرفن الدموع، ويلتفتن يمينا وشمالا علّهن يجدن معينا، وينادين مستغيثات؛ تعضهن القيود، وتوجعهن فوق المعاصم والعراقيب، يقضين الوقت ساهمات" [2] يفكرن في مصيرهن، وقد افتخر بذلك عَمرو بن بَراقة فهو يسوق الأسرى كما تساق صغار البقر، ويسوق السبايا كأنهن قطيع من البقر يتعثرن في الأوحال والطين، لهن صيحات عالية يعرفها لأنه يرتبط ببعضهن بعلاقة النسب، يقول:

ونُسلِكُهـم مـدارج بطـن حـر إلـى قَـرن كمـا سقْـتَ الحسيـلا
كـأن نِسـاءهـم بقّـر مِـراج خِـلالَ شَقـائِـقٍ تَطَـأُ الـوحـولا
لهـن صواعـقٌ يعرِفـن فينـا بني الأخـواتِ والنَسـب الدخيـلا [3]

وافتخر عروَة بن الوَرد بغزوه وقومه جبال طَيء، عائدين يسوقون السبايا أمامهم من كل امرأة محصنة، أو حامل، أو حديثة الولادة، فقدن الأمل في العودة إلى ديارهن، وأصابهن الهلع فمزقن ملابسهن، يقول عروة:

رحلْنا مِن الأجبال أَجبـال طَـيءٍ نَسوقُ النساء عوذَهـا وعِشَارهـا
تَرى كُل بيضاءِ العوارضِ طَفْلَـةٍ تُفَري إذا شـالَ السِماك صِدارهـا
وقَد علِمتْ أن لا انقلاب لِرحلهـا إذا تَركَت مِن آخِـر الليـل دارهـا [4]

---

[1] ابن ميمون، منتهى الطلب من اشعار العرب، ٩م، ص١١٦.(جأب النسالة: حمار وحشي سقط منه وبره، الورق: الغزلان، العون: الأتان، شحا فمه: فتحه، حمار مسحج: معضض مكدم، اللبان: الصدر، الكيد: الحرب، المناضل: الذي يرمي النبل للسبق).

[2] الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص٢٠٥.

[3] ابن ميمون، منتهى الطلب من اشعار العرب، ٤م، ص٢٠٥-٢٠٦.(بطن حر وقرن: واديان، مراج: مضطربات).

[4] عروة بن الورد، الديوان، ص١٧٠.(العوارض: الثنايا، تفري: تشق، شال: ارتفع، السماك: نجم يطلع الفجر، انقلاب: عودة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما افتخر قيس بن الحِدَادِية بغزوه بني هَوَازن ثائرا لقومه، فاستاق السبايا النائحات على قتلاهن وجرحاهن، والنساء السمراوات الجميلات، قائلا:

وأُبنَا بِإبـل القَومِ تُحدى ونسـوةٍ ... يبكيـن شِلـواً أو أسيراً مجرحـا

عَداةَ سقَينَا أرضهم مِن دِمائِهـم ... وأُبنَا بِـأُدمٍ كُـن بِالأمس وضحـا [١]

وافتخر أيضا بزواجه من السبايا ليكون العدو أكثر إذلالا، فيخاطب عدوه بَكْر بن عَامِر بأنه يذود عن قبيلته، ويتزوج النساء بغير مهر؛ فهو يحظى بهن من غزوه على القبائل، يقول:

لقَد عِلمتْ أفْنَاء بكْـر بن عامـرٍ ... بِأنا نَـذُود الكاشِـح المتَزحزحـا

وأنا بِلا مهرٍ سِوى البيض و القَنَا ... نُصيـب بِأفْنَاءِ القَبائِـل منْكحـا [٢]

ومن مظاهر بطولته الحربية أيضا عدم الخوف من الموت، فالصعلوك لا يخاف الموت، ويرى أنه قدره المحتوم، ولا مفر منه، وقد تبينا ذلك في الفصل السابق، لذلك "هان الموت في نظره، فهو معه يتبعه مثل ظله وملازم له" [٣]، فإذا ما وقع الصعلوك في المخاطر أو في يد العدو، كان لا يبالي الموت، لأنه يرى الموت للأبطال، وبدلا من أن يتفجع على نفسه، كان يزري بالأعداء معددا فعاله فيهم.

فعندما وقع السلّيك بن السلْكة في يد أحد أعدائه من بني خَثْعَم، وقد أحاطوا به ولم يجد لنفسه مفراً، أدرك أن أجله قد حان، فلم يتفجع على نفسه، بل راح يزري ببني خثعم معددا فعاله فيهم، فما عليه إن مات بعد أن نهب أموالهم، وقتل أبطالهم، ونكح نساءهم، واستنقذ الأسرى من سجونهم، وصال وجال في أراضيهم، يقول:

من مبلِغٌ حربـاً بِأنّـي مقْتـولْ؟ ... يارب نَهـبٍ قَـد حويـتُ عنْكـولْ

ورب قِرنٍ قَـد تَركـتُ مجـدولْ ... ورب زوجٍ قَـد نَكحـتُ عطْبـُولْ

ورب عانٍ قَـد فَكَكْـتُ مكْبـولْ ... ورب وادٍ قَـد قَـطَعـتُ مشْبـولْ [٤]

أما الشنْفَرَى حين أُسر وقُطعت يده، وأدرك أن العدو سيقتله، لم يزر بالأعداء وإنما راح يعدد فعاله البطولية التي أنجزها في حياته، وكأنه كان سعيدا من موته بهذه الطريقة، فقد قطع

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص١٤٦.(الشلو: الباقي من كل شيء، الأدم: النساء السمراوات، الوضح: النساء البيض).

[٢] المصدر نفسه، ج١٤، ص١٤٦.(الكاشح: المبغض، المتزحزح: المتجافي عن مودتنا).

[٣] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦٠٧.

[٤] السليك بن السلكة، الديوان، ص٩٠-٩١.(حرب: ابن السليك، عثكول: عذق النخلة، مجدول: مصروع، عطبول: حسنة جميلة، واد مشبول: تسكنه الأسود وأشبالها).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوديان، والقفار الموحشة، وهزم الأبطال الشجعان، وتسلق قمم الجبال، وركب الجياد السريعة فسبق الوعل والنعام، وشرب الخمر، وغزا وسلب، وقطع الشعاب ناجيا منها بسلام، يقول:

لا تَبعـــدِي إِمـــا هـلكْـتِ شامـــه
فـــَرب وادٍ نَفـــرتْ حـمـــامـــه
ورب خَـــرق قَـطَعـــتْ قتـامـــه
ورب قِـــرنٍ قَـصلـــتْ عِـظامـــه
ورب وادٍ جـــاوزتْ أعـــلامـــه
ورب شَـهـــرٍ عـبـــرتْ أيـــامـــه
ورب قَفْـــرٍ قَـــد عـلَـــتْ آكـامـــه
ومضمـــرٍ قَـــد أَلَـكـــتْ لجـامـــه
وقَـطَعـتْ مِـن جـريـــهِ حِـزامـــه
فَسِـيـقَ جـري الـوعِـل و النّـعامـــه
ورب زق شَـربـــتْ أثـــامـــه
ورب حـــي فَـرقَـــتْ سـوامـــه
يـا رب عَـــورٍ جُـبْـتُ مِـن تهـامـه
وشَعـبٍ نَجـدٍ لَـم أَهـــب عـرامـــه [١]

نخلص إلى أن الصعلوك كان بطلا حربيا تتوافر فيه كل مظاهر البطولة الحربية، فكان فارسا يتمتع بقوة جسدية متينة، شجاعا مقداما في ساحات الوغى، ذا نجدة ونصرة لقومه ورفاقه، يدافع عن حِماه بكل شراسة، ولا يسمح لغريب باقتحامه، يخوض المعارك والغارات، يطاعن ويهاجم أعداءه أشد طعان، ويفر من أمامه إذا استلزم الأمر، عزيزاً لا يتأخر عن ثأره، يسعد بهزم عدوه، ويسر بسوق أكبر عدد من السبايا، يقبل على الموت دون خوف أو وَجَل.

[١] الشنفرى، الديوان، ص٧٥-٧٦.(القتام: الغبار الأسود، الأعلام: الجبال، الآكام: التلال، المضمر: يقصد فرسا ضامرا، الزق: وعاء من الجلد توضع فيه الخمرة، الأثام: الخمر، الغور: ما انخفض من الأرض، تهامه: ما ارتفع من الأرض، العرام: الكثرة والشدة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني: أدوات البطولة الحربية

عرض كثير من الدراسات التي بحثت في الشعر الجاهلي إلى ذكر الأسلحة والأدوات الحربية التي استخدمها الشعراء في حروبهم وغزواتهم، ونحاول في الآتي أن نعرض لأهم الأسلحة والأدوات التي أسهمت في تكوين بطولة الصعاليك، مع محاولة للوقوف على طبيعة الصلة والعلاقة التي كانت تربط بين الصعاليك وأسلحتهم، وهي علاقة تختلف عن تلك التي نجدها عند غيرهم من الشعراء .

وقد تظافرت مجموعة من العوامل الاجتماعية والبيئية سبق بيانها في صبغ حياة الصعاليك بصبغة الخوف والترقب، ولم يعد ممكنا للصعاليك التخلي عن أسلحتهم، أو وضعها، "فليست في حياتهم ساعة تخلو من خطورة أو خوف أو توقع المكروه" [(١)]، ولما ثبت للناظر أن حياة الصعلكة الجاهلية كانت تستوجب قدرا كبيرا من البطولة التي تضمن لمالكها البقاء والاستمرار، صار لزاما ذكر الأدوات التي استعان بها الصعاليك للوصول إلي الغاية والمبتغى من هذه البطولة، ويمكن أن نقسم هذه الأدوات إلى قسمين: الأدوات المعنوية، الأدوات المادية.

وأدوات البطولة المعنوية تتعلق بالجانب غير الحسي الذي يشكل جزءا من طبيعة الصعاليك الذاتية، وقد سبق الإشارة إلي هذه الأدوات عند عرض أبرز الصفات والأخلاق المتعلقة بفعل البطولة عند الشعراء الصعاليك، فالشجاعة والأقدام والجرأة من أسلحة البطولة التي ظهرت عند الصعاليك، بل إن هناك من النقاد من اعتبر هذه الأسلحة هي المعيار الحقيقي للتفاوت بين الصعاليك وسواهم، ودون هذه الأسلحة لا يكاد يصلح شخص لحياة الصعلكة الحقيقية مهما أتيح له من أسلحة مادية.

وأما أدوات البطولة المادية التي ظهر الحديث عنها، وكثر تصويرها في كثير من شعر الصعاليك الجاهليين، فإنها قد تعددت وتشابهت عند كثير منهم، أولها الأسلحة، فقد ظهر السيف، والرمح، والقوس، والفرس وغيرها من الأسلحة التي أجاد الصعلوك -بما أوتي من بطولة- استخدامها، واستعان بها لتسجيل مفاخره وغزواته وحفاظه على حياته التي هي الوجود كله .

لقد اتخذت العلاقة التي تربط بين الشعراء الصعاليك وأسلحتهم شكلا يختلف عن تلك العلاقة التي نجدها عند غيرهم، فإن كان لسلاح العربي الجاهلي قيمة كبري في حياته، فإنه كان

[(١)] حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عند الصعاليك معادلاً موضوعياً للوجود والحياة لا يمكن أن نتصور أن يتقدم عليه شيء في الأهمية، "لأن به يحمون حياتهم، ويغيرون على أعدائهم، ويكسبون أرزاقهم، ويثأرون ويغنمون"[١]، ولعل هذا ما يفسر كثرة الحديث عن السلاح وتصويره في شعرهم ، حتى لا تكاد تخلو قصيدة أو مقطعة من إشارة صريحة أو غير صريحة لأدوات البطولة التي بالغ الصعاليك في الاحتفاء بها.

لقد كان السلاح بالنسبة للصعاليك مصدر سعادتهم في الحياة، يفرج همومهم ويصرف أحزانهم، يقول تَأبطَ شَراً:

يفَـرج عنْـه غُـمةَ الروع عزمه ... وصفْـراء مِرنَـان وأبـيض بتِـر
وأشـْقَر عَـيداقُ الجِـراءِ كأنه ... عقَـاب تَدلـى بيـن غِيقيـْن كـاسِر [٢]

ولأن الصعاليك كانوا يصدون به غزو الأعداء وتهديدهم، فإذا أطلق العدو تهديدا للصعلوك، كان لا يباليه، لأنه مجهز بأسلحة كفيلة بأن تردع هذه التهديدات، أو الهجمات، يقول حَاجِز بن عَوف:

ألا زعمـتْ أبنَـاء يشكُـر أننَـا ... يِربِعِهـم بـاؤُوا هنَـالِك نَاضِـلُ
ستَمنَعنَا مِنكُم ومِن سوءِ صنْعِكُـم ... صفَائِح بِيض أخْلصتْهـا الصياقِـلُ
وأسمـر خَطـي إذَا هـز عاسِـلٌ ... بِأيـدِي كُمـاةٍ جربتْهـا القبـائِـلُ [٣]

ويقول عَمرو ذُو الكَلْب كذلك في رده على تهديد ابن ترنا:

على أن قـد تَمنانِـي ابـن ثُرنَـا ... فَغَيـري ما تَمـن مِـن الرجـال
فَـلا تَتَمنِـي وتَـمـن جِـلْفـاً ... جـراهِمـةً هِـجِفّـاً كـَالخَيـال
تَـمنانِـي وأبيـض مـشْرِفـيـاً ... وشـاح الصدر أُخْلِـص بِالصقـال
وتُجـراً كـالرمـاح مسيـرانٍ ... كُسيـن دواخِـلَ الريـش النسـال
وأسمـر مجنَـأً مِـن جِلـدِ ثَـورٍ ... أصـم مـُقَلـلاً ظُـبـةَ النصـال [٤]

---

[١] الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص٢٤٣.

[٢] تأبط شرا، الديوان، ص٨١-٨٢.(الصفراء المرنان: القوس المرتة الوتر، الأبيض البائر: السيف، غيداق الجراء: شديد الجـري، النيق: موضع أعلى الجبل).

[٣] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص٢٣٦.(باؤوا: فخروا، الناضل: الغالب، العاسل: الرمح المهتز، الكمي: الشجاع).

[٤] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٢م، ص٥٦٨-٥٦٩.(جراهمة:ضخم، الهجف:الذي لا لب له، ثجراً:نصال عراض الأوساط، مجنأ: أحدب مقبب، الظبة: الحد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمادام الصعاليك بحاجة ملحة للأسلحة، فقد حرصوا على اقتنائها أكثر من حرصهم على المال، فلا حاجة لهم في مال إن لم توجد الأسلحة لتحميهم، وقد بين عروة بن الوَرد هذا الحرص بأنه لايورث المال لوارثه، وإنما يورثه الفرس والسيف، قائلا:

متَى مايجِيء يوماً الى المال وارِثي يجِد جمع كف غير ملأى ولا صِفر

يجِد فَرساً مثـلَ الفنـاةِ وصارمـاً حساماً اذا ما هـز لم يرض بالهبر [١]

إن استقراء قصائد الصعاليك ومقطعاتهم يبرز لنا مجموعة من أهم الأسلحة التي استعان بها الصعاليك لترسيخ البطولة، والتي أكثر الصعاليك من ذكرها، لذلك نحاول في الآتي أن نقف عليها لرصد طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بينها وبين الشعراء الصعاليك، وأبرزها الآتي:

السيف

أقدم سلاح، وأهم سلاح ظهر ارتباطه بالبطولة، ولا تقف أهميته على الصعاليك، بل على الجاهليين وسواهم، وقد تفنن الصعاليك في ذكر السيف، وتكرر الحديث عنه، وتعددت أسماؤه، وتنوعت صوره، واختلفت تشبيهاته، بل إن السيف عند كثير من الصعاليك تجاوز الذكر المجرد، والحديث البطولي ليصبح معادلا موضوعيا للحياة والوجود لديهم، فنجد كثيرا منهم يصرح بأنه قد استغنى بأسلحته –والسيف منها– عن الناس، والأهل، والأصحاب، ونجد ذا عند الشنْفَرَى الذي يقول:

وإنّي كفَانـي فقْد من ليس جازِيـاً بِحسنَـى ولا فـي قُـربِهِ متَعـلّ

ثَلاثَـةُ أصحـابٍ : فُـؤَاد مشَيـع وأبيـض إصلِيتٌ وصفْراء عيطَـلُ [٢]

وإن كان السيف عند الشّنفَرَى بديلا عن الأهل والأصدقاء، فإن امتلاكه عند عروة بن الوَرد يعادل امتلاك المال، بل إنه رأس ماله كله، يقول:

وما لِي مـالٌ غيـر دِرعٍ ومِغْفَـرٍ وأبيض مِن مـاءِ الحـديدِ صقيـلُ [٣]

وأكثر الشعراء الصعاليك من الحديث عن البطولة والقوة التي حققتها سيوفهم التي تعددت أسماؤها، وصفاتها كالأبيض، والصارم، والمهند، والحسام، وغيرها، وبها هددوا أعداءهم، وتوعدوهم بالهلاك والموت، يقول عَمرو بن بَراقة:

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص٢٢٩.(صفر: فارغة، الهبر: اللحم).

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٦٠.(المشيع: الشجاع، الإصليت: السيف المجرد من غمده، الصفراء العيطل: القوس الطويلة).

[٣] عروة بن الورد، الديوان، ص٢٢٧.(المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكيف ينـام الليلَ من جـل مالِـهِ ... حسام كلون المِلـج أبيض صـارم
غَموض إذا عض الكريهة لم يـدع ... له طمعـاً طـوع اليمـين مـلازم
ألم تعلمـي أن الصعاليك نومهـم ... قليـلٌ إذا نـام الخَلـي المسالِـم
كذبتـم وبيـتِ الله لا تأخُذونَهـا ... مـراغمـةً مـادام للسيـفِ قائـم
فلا صلح حتّى تُقرع الخَيلُ بِالقنـا ... وتُضـرب بالبيض الخِفَافِ الجماجم
ولا أمـن حتّى تَغشِم الحرب جهرةً ... عبيدةَ يومـاً والحـروب غَواشِـم [1]

وذات الفكرة عن تهديد الأعداء بقوة السيف نجدها عند صَخْر الغَي في قوله:

إنـي سينْهـى عنـى وعِيـدهـم ... بِيـض رهـاب ومجنَـأٌ أُجـد
وصـارم أُخْلِصـتْ خَشِيبتُـه ... أبيـض مهـو فِـى متْنِـهِ ربـد
فَلَـوتُ عنْـه سيـوفَ أريـح إذْ ... بـَاء بِكفـى ولـم أكـَد أجِـد
فَهـو حسـام تُتـر ضـربتُـه ... سـاقَ المذكـي فَعظْمهـا قِصـد [2]

ونلاحظ غياب الحديث عن مواضع الجمال أو الزينة في السيف أو الغمد، والتركيز على ذكر النصل وحد السيف القاطع، ولونه الأبيض، وهذا ما يتناسب مع بطولة الصعاليك التي ارتبطت بحياة الفقر والقسوة والقتال الدائم .

القوس والسهم

على الرغم من أن السيف يأتي في المرتبة الأولى عند العرب الجاهليين –ومنهم الصعاليك– إلا أن السهام أخدت مكانا هاما لا يقل في بعض الأحيان عن السيف، ولعل هذا يرجع إلى طبيعة حياة الصعلوك الذي وجد القوس يتناسب مع حياة الترصد، والصيد، وأسلوب الإغارة الفردي الذي غلب على كثير منهم، وهو "يحتاج إلى سلاح بعيد المدى في الإصابة، بحيث لا يضطره إلى الاصطدام المباشر مع أعدائه أو ضحاياه" [3]، وتفاخر الصعاليك بسهامهم وأقواسهم لأنها صنعت بإتقان، ولها صوت مميز يعرفه الصعاليك عندما يطلقونها، يقول الشّنْفَرَي في هذا السياق :

---

[1] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٤م، ٢٠٠-٢٠٢.(الخلي: الخالي من الهموم، مراغمة: قسراً، تقرع:تضرب وتردع).

[2] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٢٥٦-٢٥٨.(رهاب:سهام رقاق،أجد: شديدة، خشيبته: طبيعته، مهـو: رقيـق الـشفرتين، ربد:لمعان، فلوت:بحثت عنه وانتقيته، تتر:تطن، قصد:قطع).

[3] حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص٢٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَـأَتْ أم قيس المربعيـن كِليهمـا ... وتَحـذَر أن ينْـأى بها المتَصيفُ
وإنكِ لو تَدريـن أن رب مشْـربٍ ... مخُوفٍ كداءِ البطْن أو هو أخْوفُ
وردتُ بِمأْثُـورٍ يمـانٍ وضالـةٍ ... تَخَيرتُهـا مِما أَريشُ وأرصـفُ
أُركبهـا فـي كُـل أحمـَر غاثـرٍ ... وأَنْسِـج لِلولْدان ما هـو مقْرفُ
وتابعتُ فيهِ البـري حتّـى تَركْتُـه ... يـرن إذا أَنْـقَـذْتُـه ويزفْـزفُ
بِكفـي مِنْهـا لِلبغِيـض عراضـةٌ ... إذا بعـتُ خـلا ما لـه متَعرفُ [١]

وهذا الوصف المستفيض للقوس بدءا من الحديث عن الشجر الذي أخذت منه، وكيف قطعت، وكيف بريت، وصوتها إذا انطلقت، وغير ذلك من دقاق التفاصيل يشي بطبيعة العلاقة بين الصعلوك والقوس والأهمية التي كانت القوس تلقاها منه، ويقول الشَّنْفَرَى في موضع آخر :

وحمـراء مِن نَبعِ أبـي ظهيـرةٌ ... تُـرن كإرنان الشجِـي وتَهـتِـفُ
إذا آلَ فيها النزع تأْبـى بِعجسِها ... وتَرمـي بِذَرويهـا بِهـن فَتَقْـذِفُ
كأن حفِيفَ النيل مِن فوق عجسِها ... عوازب نَحل أخطأَ الغـار مطْنِـفُ [٢]

وعَمرو ذُو الكَلْب من الذين ذكروا القوس والنبال، وتحدث عن النبال التي تستقر في الكنانة، فهي مرهفة، حادة، كأنها شوك السيال، يقول :

وصفْـراء البرايـةِ عـود نَبْـعٍ ... كـوفْـفِ العـاج فـي ورِكٍ حـدال
يسلـون السيـوفَ لِيقْتُلُـونـي ... وقَـد أبطَنْـتُ مـحدلَـةً شِمـالـي
وفِـي قَعـر الكِنانَـةِ مرهفـاتٌ ... كـأن ظُبـاتِهـا شَـوك السيـال [٣]

ويذكر صَخْر الغَي أن في الرجال الأشداء الذين يحملون النبل عونا له في حروبه، ونجدة ومنعة، يقول:

لو أن حولِي مِـن قُريـعٍ رجـالا ... بِيـض الوجـوهِ يحمِلُـون النبـالا
لمنَعـونِـي نَجـدةً أو رسـلا ... سفْـع الخُدودِ لم يكُونُوا عـزلا [٤]

---

[١] الشنفرى، الديوان، ص٥٤-٥٥.(يزفزف: يحدث صوتا حين يدار على الظفر، العراضة: الهدية التي يهديها المسافر بعد عودته).
[٢] المصدر نفسه، ص٥٤.(الإرنان الشجي: الصياح الحزين، العجس: مقبض القوس، الذروان: طرفاها، العوازب: التي ابتعدت في المرعى، الغار: الكهف، المطنف: رأس الجبل).
[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٢م، ص٥٦٩-٥٧٠.(محدلة:يقصد القوس، مرهفات:سهام رقاق، ظباتها:حدها،السيال: من الشجر).
[٤] المصدر نفسه، ١م، ص٢٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكر أبو كَبِير الهذَلي سهامه بأنها عراض النصل، كأنها في سرعتها جمر مشتعل، ريشها ليس بكز، إذا مست سمعت لها صوتا كصوت الريح الجنوبية، يقول:

ومعلبِـلاً صلْـع الظبـاتِ كأنهـا جمـر يمسهكةٍ تُشَـب لِمصطلِـي
نُجفًا بذَأتُ لهـا خَوافِـى نَاهِـض حشْر القَـوادِمِ كاللفَـاعِ الأطْحَـل
فَـإذَا تُسـل تَخَلْخَلَـتْ أرياشُهـا خَشْفَ الجنُوبِ بِيابِسٍ مِن إسحِـل [1]

وارتبطت السهام بالقوس التي ترمى عنها، وأكثر الصعاليك من الحديث عن القوس ومتانتها، وشدة صقلها، وذكروا لونها، وكيف يتأثر هذا اللون بطول الرمي والتعرض للشمس، وافتتن بعضهم بالصوت الذي يصدر عن رمي السهام، ولعل الشَّنْفَرَي أجاد التعبير عن كثير من المعاني السابقة كتلك التي نجد بعضها في قوله :

هتُـوفٌ مِن المأس المتُون تَزينُها رصائِع قد نِيطَتْ إليهـا ومِحمـلُ
إذا زل عنهـا السهم حنتْ كأنهـا مـرزأةٌ عجلـى ثُـرن وتُعـولُ [2]

ويرى صَخْر الغَي في رنين قوسه صوتا مدويا حادا كأنه صوت من يعدو في طلب حاجة ويتردد الصدى حوله، يقول:

وسمحـةٌ مِن قِسِى زارةَ صفْراء هتُـوفٌ عِـدادهـا غَـرد
كـأن إرنَـانَهـا إذا رِدِمـتْ هـزم بغَاةٍ فـي إثـر مـا فَقَـدوا [3]

ويظهر لنا أن القوس تحتاج لوقفة تأملية أكبر لاستكناه حقيقة العلاقة، ودقة الدلالة التي كانت تربطها بالشاعر الجاهلي، والصعاليك على وجه الخصوص، فلا يمكن أن تكون هذه الوقفة الدقيقة المتأنية من بعض الصعاليك خالية من إيحاء عميق يرتبط بقوة بوجود الشاعر .

الرمح

ذكر الصعاليك الرماح في حديثهم عن حياة الصعلكة التي تطلبت ذكرا للسلاح وأدوات البطولة، لكّن الرماح لم تحظ بذات المكانة والأهمية التي بلغها السيف، أو القوس والسهام، ونكاد نلمح أن غالبية ذكر الرماح عند الصعاليك ارتبط بوقائع الصيد التي وصفوها، مع ملحظ آخر أن

---

[1] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٠٧٨-١٠٧٩.(المعابل:سهام عراض النصل،صلع الظبات:تبرق،مسهكة:موضـع شـديد الريح،كاللفاع الأطحل: الكساء الأحمر، الإسحل: شجر).

[2] الشنفرى، الديوان، ص٦٠.(هتوف: قوس لها صوت، نيطت: علقت، مرزأة: كثيرة المصائب، تعول: ترفع صوتها بالبكاء).

[3] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٢٥٨.(زارة:حي من الأزد،عدادها:صوتها،هزم: صوت).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الوصف اتسم بالإيجاز والبساطة، وخلا من الوقفات المتأنية التي وجدناها في الأدوات السابقة، يقول صَخْر الغَي:

وقَـد لَقِيـا مع الإشْـراق خَيـلاً تَسـوفُ الوحـشَ تَحسِبها خِيامـا
يِكُـل مقَلـص ذَكـرٍ عنُـودٍ يبـذ يـد العشَـنـق واللجـامـا
فَشَامتْ فِـى صدورهِما رماحـا هِـن اليزنِـى أُشْـرِبتِ السمـامـا [١]

فلا يكاد ذكر الرماح يتجاوز بيان استخدامها في صيد الحمار الوحشي، بل إن كثيرا من الصعاليك أتى على ذكر الرماح في معرض ذكره للأسلحة التي حقق بها البطولات، وهذا ما نجده عند عروَة بن الوَرد، يقول :

وما لِي مالٌ غيـر دِرعٍ ومِغْفَـرٍ وأبيـض هِـن مـاءِ الحديدِ صفيلُ
وأسمر خَطـي القَنَـاةِ مثقَّـفٌ وأجـرد عريـان السـراةِ طَويـلُ [٢]

ونجد ذات الذكر العام للرماح عند عَمرو بن بَراقة في قوله :

وكُنتُ إذا قَـوم غَزوني غَزوتُهم فَهـل أنا في ذا يالَهمـدان ظالِـم
فَلا صلح حتّى تُقدع الخَيلُ بِالقَنـا وتُضرب بالبيض الخِفَافِ الجماجم
ولا أُمن حتّى تَغشِم الحرب جهرةً عبيدة يومـاً والحـروب غَواشِـم [٣]

وكذلك عند عروة بن الوَرد في قوله :

ستُفْـرع بعد اليأس من لا يخَافُنَا كَواسِع في أُخْرى السوامِ المنَقَّـر
يطاعِـن عنْها أولَ القـومِ بالقَنَا وبيض خِفافٍ ذاتِ لَـونٍ مشَهـر [٤]

ونخلص مما سبق إلى أن الصعاليك أجادوا صنع الرماح، وأكثروا من استخدامها في الصيد والحرب، إلا أن العلاقة التي تربط بين الشاعر والرمح لا ترقى إلى مستوى تلك التي نجدها بينه وبين السيف أو القوس، وهذا ما يفسر قلة التركيز على تفاصيل الرماح و دلالتها عند الصعاليك.

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٢٩١.(تسوف:تصيد، يبذ:يغلب، العشنق:الطويل).

[٢] عروة بن الورد، الديوان، ص٢٢٧-٢٢٨.(مثقف: مقوم، الأجرد: فرس قصير الشعر، السراة: الظهر).

[٣] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٤م، ص٢٠٢.

[٤] عروة بن الورد، الديوان، ص١٥٤.(الكواسع: الخيل التي تطرد الإبل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدرع والترس

تختلف حاجة الصعاليك للدروع والتروس عن غيرهم من الفرسان، وذلك أن حاجتهم للدروع كانت قليلة لما في حملها من مشقّة وتعارض مع حياة الصعلكة التي غلب عليها خفة الحركة، وسرعة العدو، وكثرة التنقل، التي قد تعيقها الدروع، ومع ذلك فإن منهم من استخدم الترس لأنه أخف كثيرا من الدرع، وكانوا يتقون بها السهام، يقول عَمرو ذو الكَلْب:

تَمنـاني وأبيـض مشْـرفيـاً وشاح الصـدر أخْلـص بالصقـال
وثُجـراً كـالرمـاح مسيـَراتٍ كُسيـن دواخِـلَ الريـش النسـال
وأسمر مجنَـأً مِـن جِلْـدِ ثَـورٍ أصـم مقَـللاً طُبـةَ النبـال [1]

فهذه الترس مصنوعة من جلد ثور، ومهمة عند الصعلوك في صد النبال والسهام التي يتعرض لها في حروبه وغزواته، يقول صَخْر الغَي:

إنـي سينْهـى عنـى وعِيدهـم بِيـض رهـاب ومجـنَـأٌ أجـد
وصـارم أخْلصـتْ خَشِـيبتُـه أبيـض مهـو فِـى متْنِـهِ ربـد [2]

ولا تكاد الصورة تختلف عن سابقتها في التركيز على صلابة الترس، والحديث عن مادته التي غلب عليها أن تكون مصنوعة من جلد ثور قوي .

الخيل

مع أن العدو كان من مفاخر الصعاليك وأدوات بطولتهم المتميزة، فإنهم لم ينفصلوا تماما عن ركوب الخيل التي عرفت في الجاهلية، بل نجد أن كثيرا منهم قد أجاد في وصف الفرس، وأظهر خصوصية العلاقة التي تربطه بها، فكانت سلاحه في الصيد، وفي المطاردة، والإغارة، وفي النجاة.

والحديث عن الخيل وصفاتها، وأصلها، وسرعتها، ولونها حديث طويل لم يختص به شعر الصعاليك الأبطال، بل كان موضوعا رئيسا من موضوعات الشعر العربي، وحاجته عند بعض الصعاليك مهمة كأهمية غيره من الأسلحة.

---

[1] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٢م، ص٥٦٨-٥٦٩ .

[2] المصدر نفسه، ١م، ص٢٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد وصف السلَيك بن السلَكة فرسه النحام، بطول أرجلها، وبياض غرتها، واتساع مناخرها التي تساعدها على سهولة التنفس، وتقلل من ارهاقها، يقول:

كـأن قـوائـم النَحـــام لمـــا تَحمـَل صحبتـي أُصـلاً محـــار
عـلا قـرمـاء عـاليـةً شَـواه كـأن بيـاض غُـرتِـهِ خِمـــار
كـأن منَـاخِـر النَحـــامِ لمـا دنَـا الإصبـاح كِيـر مستَعـــار
ومـا يدريـك مـا قَفْـري إليـهِ إذا ما الركْـب في نَهِـأ غـاروا [١]

ووصف مَالِك بن حَريم سير فرسه، فهو متزن لا يتعرج ولا يتمايل في السير، وإذا ما كان سيره في أرض غير مستوية، سيطر على أرجله لتكون خطاه متساوية، يقول:

وتَهدي بِي الخَيلَ المغيـرةَ نَهـدةً إذا ضربتْ صابـَتْ قَوائِمها معـا
إذا وقَعتْ إحـدى يديهـا بِثَنـرةٍ تَجـاوب أُثْنـاء الثلاثِ بِدعدعـا [٢]

وقال السلَيك بن السلَكة في سير فرسه في التضاريس المتنوعة:

إذا أَسهلتْ خَبتْ وإن أَحزنَتْ مشَتْ ويغشَى بها بين البطون وتَصدفُ [٣]

أما أبو خِرَاش الهذَلي فقد تحدث عن سرعة فرسه، فهو سريع الجري يتجاوب مع فارسه، يقول:

جمـوم نَهـدةٌ نَبـتْ شَطَـاهـا إِذَا ركِبـتْ علَـى عجـلٍ نَصِيـد [٤]

لقد رفع الصعلوك البطل من شأن الخيل، فاهتم بأصلها ونسبها، وحرص على اقتناء أطيب الخيول، وسماها بأسماء تتناسب مع قوتها، حتى يحفظ سلالتها، وتشتهر بين العرب بقوتها، فلعروَة بن الوَرد فرس يسمى "القَرمَل" [٥]، وللسلَيك فرس يسمى "النحام" [٦]، وللشَّنْفَرَى فرس يسمى "اليَحموم" [٧]، كما بلغ اهتمامهم بالخيول أقصى حدوده، فاهتموا بطعامها وشرابها كما يطعمون أبناءهم، حتى تألفهم، وتخلص لهم في غزواتهم وأسفارهم، فقد بالغ عَمرو بن بَراقَة في

---

[١] السليك بن السلكة، الديوان، ص٧١-٧٣.(المحار: الصدف، المنخر: الأنف، الكير: الزق الذي ينفخ فيه الحداد).

[٢] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٦.(تهدي الخيل: تتقدم، نهدة: غليظة شديدة، ثبرة: هوة في الأرض).

[٣] السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٥.(بطن الأرض: ما غمض منها واطمأن، تصدف عن البطون: تميل وتنصرف عنها).

[٤] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٣٥.(جموم:يقصد خيل كثيرة الجري، الشطا:عظم بجانب وظيف اليد).

[٥] الزبيدي، تاج العروس، مادة (قرمل).

[٦] ابن الكلبي، أبو المنذر هشام. أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، ط٤، (تحقيق أحمد زكـي)، دار الكتـب المـصرية، القاهرة، ٢٠٠٣. ص٦١.

[٧] علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص٦١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حديثه عن الاهتمام بها، فكان يقاسمها قوته، ويسقيها قبل أبنائه، لكي تتفاعل معه في غزواته، يقول:

عَبـرتْ خيلُنـا نُقاسِمهـا القـو تَ ولم يبـق حاصد المحل عـودا
شَتوةً توسِع الجِمالُ لهـا الرسـ ـلَ ونَسقـي عِيالنـا تَصريـدا
ذاك حتّى إذا الربيع نَفـى الأزمـ ـة قُدنـا بِهـا شَياطيـن قـودا
ورمينـا بِهـا ديـار الأعـادي فَـأنابـت لِـكُـل قَعـبٍ قَعـودا [١]

ونخلص مما سبق إلى أن الصعلوك اهتم بالسلاح كما يفعل كل فارس، حرص على اقتنائه، وتفنن في صنعه أو شرائه، وحافظ على صلابته، وقرر ملازمته، "فهو الذي يعزز وجوده، ويحمي قيمه، ويصعد رفضه لما هو عليه، ويمكنه من إعادة النظر في صياغة حياة جديدة تنسجم مع إحساسه، ويحل أهم مشكلاته" [٢].

لم يكن اعتماد الصعلوك البطل على الأسلحة فقط في تحقيق البطولة، بل استعان بأدوات أخرى، تندرج تحت الأدوات المادية، وقد أكثر من الحديث عنها في أشعاره أيضا، ومنها الآتي:

سرعة العدو

ارتبطت سرعة العدو في الشعر الجاهلي بالصعاليك ارتباطا وثيقا حتى قل أن نجد من الصعاليك من لم يفاخر بسرعة عدوه التي وصل الحديث عنها في بعض المواضع حداً يستشعر المرء فيه مبالغة، وهذه الظاهرة لا مجال للوهم فيها، إذ كانت حقيقة مؤكدة بل إنها ارتبطت أحيانا بالقبائل – كهذيل مثلا – كما ارتبطت بالأفراد.

وشكلت ظاهرة العدو عند الصعاليك في كثير من وقائع حياتهم معادلا موضوعيا للوجود، وسببا قويا من أسباب البقاء، وهذا ما دفعهم لرسم صور متعددة معبرة عن هذه السرعة التي فاقت سرعة الخيل، والطير، والوحش، والنعام، .. ، حتى أن تَأبطَ شَراً الذي يضرب المثل في سرعته وصل حدا يرى فيه أن لا شيء أسرع منه، يقول:

لا شيء أسرع مِني لَيس ذَا عـذَرِ وذَا جنَاحٍ بِجنْـبِ الريـدِ خَفـاق

---

[١] الشمشاطي، أبو الحسن علي بن محمد، (ت٣٧٧هـ). الأنوار ومحاسن الأشعار، ط٢، (تحقيق صالح مهدي العزاوي)، دار الشؤون والثقافة العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص١٣٧.(الرسل: اللبن، التصريد: الشرب دون الري، الأقود: طويل الظهر).

[٢] الزعبي، منذر محمد، (١٩٨٩). الإنسان عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، رسالة ماجـستير غيـر منـشورة، جامعـة اليرموك، إربد، الأردن، ص٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى نَجوتُ ولَـما ينْزِعوا سلَبِـي بِوالِـهٍ مِن قَبِيضِ الشـد غَيـداق [١]

فأصبح العدو سلاحا يتفوق به الصعاليك على سواهم، وكثيرا ما عبر الشعراء الصعاليك عن نجاتهم من أعدائم بفضل هذا السلاح، يقول تَأَبطَ شَراً من القصيدة السابقة:

نجوتُ مِنْها نَجائِى من بجِيلـةَ إذْ ألْقَيـتُ لَيلَةَ خَبتِ الرهطِ أرواقِـي

ليلَةَ صاحوا وأغْروا بِي سِراعهم بالعيكَتَين لَدى معـدى ابن بـراق [٢]

ويظهر لنا أن الشاعر ورفيقيه قد كتب لهم النجاة من قبيلة بَجِيلَة ليس بالسيف أو الرمح، بل بسرعة الجري والحيلة، وقد وردت الأقوال بأن تَأَبطَ شَراً والشنْفَرَى وعَمرو بن بَراقَة كانوا ممن لا تلحق الخيل بهم، وفي ذا يقول تأبطَ شَراً:

تَـقُـولُ سلَيمـى لِجـاراتِهـا أَرى ثَـابتـاً يـقَنـاً حـوقَـلا

لَها الويـلُ مـا وجـدتْ ثَابِتـاً ألـف اليديـن ولا زمـلا

ولا رعِـشَ السـاق عِنْد الجِراءِ إذَا بـادر الحمـلَـةُ الهيضـلا [٣]

بل يصل الأمر عند تأبطَ شَراً أنه يكاد يسبق الريح في عدوه، يقول عن نفسه:

يظَل بِمومـاةٍ ويمسِـي بغَيـرِها جحِيشاً ويعروري ظُهور المهالِكِ

ويسبِقُ وفْد الريحِ مِن حيثُ ينْتَحِي بِمنْخَـرِقٍ مِن شَـدهِ المتَـدارِكِ [٤]

وكان يسبق الجياد بخفته وسرعته، فيثير من حولها الغبار ويكسوها به، ويسبق النعام، وحمار الوحش، والأتان، يقول:

يفـوتُ الجِيـاد بِتَقْـرِيبِـهِ ويكْسـو هوادِيـها القَسطَـلا

ويعتَـرِقُ النقْنَـقَ المسبطِـر والْجـأْب ذَا العانَـةِ المِسحلا [٥]

وتظهر سرعة العدو وشدة البأس في صورة واحدة عند الشّنفَرَى، فهو سريع لا يعوقه شيء حتى أن الشرر يتطاير عندما تلامس أقدامه حجارة الصوان التي تعترضه في عدوه، يقول في اللامية :

---

[١] تأبط شرا، الديوان، ص١٣٣-١٣٤.(ذا عذر: أي ذا عرف ويعني الفرس، ذا جناح: يعني الطير الجارح، الريـد: ذروة الجبـل، الواله: الذاهب العقل، قبيض: سريع، الغيداق: الكثير الواسع).

[٢] المصدر نفسه، ص١٢٩-١٣٢.(الأرواق: الجهد، العيكتين: موضع).

[٣] المصدر نفسه، ص١٦٢-١٦٣.

[٤] المصدر نفسه، ص١٥٢.(ينتحي: يقصد، المنخرق: السريع الواسع، المتدارك: المتتابع المتلاحق).

[٥] المصدر نفسه، ص١٦٣-١٦٤.(النقنق: الظليم، المسبطر: المسرع، الجأب والمسحل: حمار الوحش).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا الأمعز الصوان لاقى منَاسِمِـي تَطَايـر مِنْـه قـادِح و مفَـالُ [١]

وهذا ما مكنه من قطع القفار الموحشة بسرعة، فكان يستسهل التنقل بين الأماكن البعيدة، والمراقب العالية، يقول:

وخَرق كظَهر الترس قَفْرٍ قَطَعتُـه بِعاملَتَين ظَهـره لَيـس يعمـلُ
فألحقْـتُ أُلاه بـأُخْـراه موفيـاً على قُنـةٍ أُفْوِي مِراراً وأمنُـلُ [٢]

وتُعَد هذه الصور الفنية محاولة من الصعاليك لإظهار شدة بأسهم وتحملهم، ولبث الخوف في نفوس أعدائهم .

المرقبة

أبدى الشعراء الصعاليك اهتماما كبيرا بذكر الأماكن التي مروا بها أو سكنوها أو أغاروا عليها، وأسهبوا في الحديث عن أماكن لها خصوصية، وصفات لا يقوى على التواجد والبقاء فيها إلا من اتصف بالجَلَد والقوة التي تغنى بها الصعاليك وأكثروا من ذكرها، وكانت المرقبة من الأدوات التي استعان بها الصعاليك الأبطال في حروبهم وفرارهم من القتل، وفي توفير الأمن والحماية لجماعاتهم، إذ كانوا يعلونها ويرصدون حركة الأعداء، ويكشفون عن الأخطار التي تحيط بهم .

واتصفت هذه المواقع بالوعورة، والإقفار الشديد، إذ إنها كانت في كثير من الأحيان صخورا ملساء حادة، لا يستطيع أن يرقى فوقها إلا الشجعان من الصناديد، فكانت خطورتها بابا ولج منه الصعاليك لتعداد مفاخرهم وبطولاتهم، والتغني بشدة بأسهم، يقول حَاجِز بن عَوف:

ومـرقَبـةٍ نَميـتُ إلـى ذُراهـا يقَصر دونَهـا السِـطُ الوسِيـم
علوتُ ذَرَالهـا وهبطْـتُ مِنْهـا إلـى أُخْـرى لِقُلَتِهـا طَمِيـم
فَلَم يقْصـر بِهـا باعِـي ولَكِـن كَمـا تَنْقَـض ضـارِيـةٌ لَحـوم [٣]

---

[١] الشنفرى، الديوان، ص٦٢.

[٢] المصدر نفسه، ص٧٢.(الخرق:الأرض الواسعة، العاملتان: رجلاه، أمثل: أنتصب قائما).

[٣] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٢٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرسم تَأبطَ شَراً صورة للمرقبة لا تختلف عن تلك التي وجدناها عند سابقيه، كالارتفاع والصخور الملساء المحرقة من شدة أشعة الشمس القريبة منها، متحديا أصحابه في الوصول إليها، يقول:

وقُلةٍ كسِنَـان الـرمح بـ ـارزةٍ ضحيانَةٍ في شهور الصيفِ محراق
بادرتُ قُنتَها صحبي وما كسِلُـوا حتى نَميتُ إليـها بعـد إشْـراق
لا شَـيء في ريـْدِها إلا نَعامتُها مِنْها هـزيـم ومِنْها قَـائِم بـاق (١)

لقد استخدم الصعلوك المرقبة في أفعال كثيرة ساعدته في إتمام بعض البطولات، خاصة البطولات الحربية، فقد استخدمها للاختباء من أعين العدو أثناء الفرار أو الهجوم، فذات المرقبة التي تتصف بالوعورة والصعوبة، والتي لا يقدر الطير على الاقتراب منها لارتفاعها في السماء، قضي عَمرو ذو الكَلْب فوقها يوما كاملا للاختباء، يقول:

ومرقَبـةٍ يحـار الطـرفُ فِيهـا تـُزل الطيـر مشْـرفَـةِ القَـذَال
أقمـتُ بِريدِهـا يومـاً طَـويـلاً ولـم أُشْـرفْ بِها مِثْـلَ الخَيـال
ولم يشْخَص بِها شَرِفـي ولكِـن دنَـوتُ تَحـدر المـاءِ الـزلال (٢)

واستخدم الصعلوك المرقبة أيضا للمراقبة والترصد للعدو، يقول أبو كَبِير الهذَلي:

ولقَد ربأْتُ إِذَا الرجـالُ تَواكلُـوا حم الظهيرةِ فِى اليفَـاع الأَطْـول
فِى رأْس مشْرِفَةِ القَـذَال كأنمـا أَطُر السحابِ بِها بياض المِجـدل (٣)

ويقول أبو خِرَاش الهذَلي أيضا:

لستُ لِمرةَ إن لـم أُوفِ مرقَبـةً يبدو لِى الحرثُ مِنْهـا والمقَاضِيب
فِى ذَاتِ ريدٍ كذَلْق الفَأس مشْرِقَةٍ طَرِيقُهـا سـرب بِالناس دعبـوب
بِصاحِبٍ لا تُنَالُ الدهـر غِرتُـه إِذَا افْتَلَى الهدفَ الِقـن المعازِيـب
بعثْتُـه بِسـوادِ اللِيـل يرقُبِنِـى إِذْ آنَر النـوم والدفْء المنَاجِيـب (٤)

---

(١) تأبط شرا، الديوان، ص١٣٨-١٣٩.

(٢) السكري، شرح أشعار الهذليين، ٢م، ص٥٧١.

(٣) المصدر نفسه، ٣م، ص١٠٧٦.(ربأت:راقبت، المجدل: القصر).

(٤) المصدر نفسه، ٣م، ص١٢٣٢-١٢٣٣.(المقاضيب:موضع، ريد:حرف الجبل، ذلق الفأس:حدها، دعبوب:موطوء، القن: ابن لوالدين عبيد، المناجيب: الضعفاء).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما تَأبطَ شَراً فقد استخدمها للهجوم على أعدائه، لينتصر ويغنم من غزوه، أو يحقق ثأره؛ لأن المكان المرتفع يكشف العدو، ويسهل النصر، يقول:

ومرقـبـةٍ شَماء أقْعـيتَ فَوقَها لِيغْنَـم غَـازٍ أو لِيـدرك ثَـائِـر [١]

وهذا يكشف لنا أن من ينتدب للمراقبة يتحتم فيه أن يحمل صفات وقدرات عز أن توجد في غيره، وهذا نوع من البطولة ضمه الصعاليك إلى البطولات المتعددة التي عبروا عنها في قصائدهم ومقطعاتهم.

الرفاق

لقد أكثر الصعلوك البطل من الحديث في شعره عن الرفاق، وحرص على التفنن في اختيارهم، وإعطاء كل واحد منهم دوراً يقوم به في المغامرة، فبعضهم يقوم بالهجوم، وبعضهم الآخر يدافع عن رفاقه، ويحمي ظهورهم، أما البقية فيتولون مهمة جمع الغنائم والسبايا، فهم جماعة متكاملة تغزو بانتظام، لذا حرص الصعلوك عليهم، "فهم عونه على هذه الحياة، يستعين بهم عليها، ويستغيث بهم إذا أفزعه أمر" [٢]، وجعلهم إحدى أدواته التي يستعين بها في بطولاته.

لقد حرص الصعلوك على اختيار الرفاق، حرص على اختيارهم من شباب مازالوا في قوتهم، أعزاء، وأصحاب نسب طيب، يتمتعون بالنجدة والنصرة، مسلحين غير عزل، لا يتخلفون عن حماية الضيف، يقول أبو كَبير الهذَلي:

فَلَقَد جمعتُ مِن الصحابِ سريـةً خُدبـاً إِـداتِ غَير وخْـش سخّـَل
سجراء نَفْشِى غَير جمع أُشَابـةٍ حشُـدا ولا هـاكِ المفَـرش عـزل
لا يجفِلُون عن المضافِ ولو رأوا أُولى الوعـاوع كَالغَطَـاطِ المقْبـِل [٣]

وحرص أن يكونوا شديدي البأس، يقول أبو كَبير الهذَلي:

ومعِـى لبـوس لِلبئِـيس كَأنّـَه روقٌ يجبهـةِ ذِي نِعـاجٍ مجفِـل [٤]

وأن يكونوا أقوياء ممن اعتادوا الغزو، ومهاجمة الناس الهاجعين، يقول عَمرو ذو الكَلْب:

---

[١] تأبط شرا، الديوان، ص٨٢.(أقعيت: تساند الرجل إلى ظهره).

[٢] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٢٠٩.

[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٠٧١.(خدبا:الذين يركبون رؤوسهم لا يردهم شيء، لدات:متقاربي الأعمار،وخش:نـذل، سخل: ضعاف،سجراء:صافين، هلك المفارش: أمهاتهم سوء،أولى الوعاوع:أول من يغيث في القتال).

[٤] المصدر نفسه، ٣م، ص١٠٧٨.(لبوس:يعني صديقه تأبط شرا، مجفل: مخيف).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَأبـرح غَازِيـاً أهـدي رعِيـلاً أؤُم سـواد طَـودٍ ذِي نِجـال
بِفِتْيـانٍ عمـارِطَ مِـن هذَيـلٍ هـم ينْفُـون آنـاس الحِـلال [١]

وحرص صَخْر الغَي أن يكونوا من العدائين، المتميزين بالسرعة الفائقة، أصحاب الأرجل القوية، يقول:

معِـى صاحِـب داجِـن بِالغَـزا ةِ لَم يـك فِـى القَومِ وغْلاً ضعِيفَـا
تَـرى عـدوه صبـح إِقْـوائِـهِ إِذَا رفَـع المأْبِـضـان الحشِيفَـا [٢]

وقد وضح أبو كَبِير الهذَلِي في بعض أبياته المعايير الأساسية في اختيار الرفاق، وقد تكون هذه المعايير شاملة تقريبا، كأن يكون صلبا، قوي الجسم، معتاداً على قطع القفار الموحشة، أبيا، براق الوجه، لا يخضع لظلم، حذراً يستيقظ من نومه لأصغر الأخطار، صبورا على البلاء، حازماً، إذا عزم أمرا قضاه، يحمي أصحابه في الحرب، ويؤويهم للاستضافة في السلم، يقول أبو كَبِير:

ولَقَد سريتُ علَى الظلامِ بِمِغْشَـمٍ جلْـدٍ مِـن الفِتْيـان غَير مبهـل
وإِذَا رميتَ بِـهِ الفِجـاج رأَيتَـه ينْضـو مخَارِمهـا هـوى الأجـدل
وإِذَا نَظَـرتَ إِلَى أَسِرةِ وجهـهِ بـرقَـتْ كَبـَرق العارِضِ المتَهـلل
وإِذَا يهـب مِـن المنَـامِ رأَيتَـه كَرتُـوبِ كَعبِ الساق لَيْـس بِزمـَل
صعـب الكَرِيهةِ لا يـرام جنَابه ماضِى العزِيمةِ كَالحسـامِ المِقْصـل
يحمِى الصحابِ إذَا تَكُون عظِيمةٌ وإِذَا هـم نـَزلُـوا فَمـأْوى العيـَل [٣]

استفاد الصعلوك البطل من الرفاق في بعض بطولاته كالغزو وتحقيق النهب، لأنهم أشداء يتحلون بالمميزات التي اختارها، مدججين بالسلاح دائما، يثورون للنجدة، يقول تَأَبطَ شَراً:

لأطـْرد نَهبـاً أو نَزور بِـفِتْيـهٍ بأيمانِـهم سمـْر القَـنَا والـعقَائِقُ
مساعِـرةٌ شُعـتٌ كـأن عيونَهم حرِيقُ الغَضا تُلْقَى علَيها الشـقَائِقُ [٤]

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين ، ٢م، ص٥٦٧.(الرعيل:الجماعة، عمارط:صعاليك، ينفون آناس الحلال: أي يمرون بالحلة العظيمة فيهربون من خوفهم).

[٢] المصدر نفسه، ١م، ص٣٠١.(داجن الغزاة:معتاد الغزو، الوغل:النذل، المأبضان: باطن الركبتان).

[٣] المصدر نفسه، ٣م، ص١٠٧٢-١٠٧٥.(مغشم:فارس يغشم الناس ويظلمهم، الفجاج: الطرق،الأجدل:الصقر،الزمل:الضعيف).

[٤] تأبط شرا، الديوان، ص١٢٣.(العقائق: السيوف، مساعرة: الرجال الذين تشتعل بهم الحرب وتحمى،الشقائق:زهور شديدة الحمرة).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستفاد منهم بالتحديد في خوض المعارك الصعبة، التى حمي وطيسها، يقول حَاجِز بن عَوف:

ومعـتَـركٍ كـأن القَـوم فِيهـم ... تَمـل جلُـود أوجههـم حجِيـم
صلِيـتُ بِـحـرِهِ و تَـجنّبتْـه ... رجـالٌ لا ينَـاطُ بِهـَا التمِيـم [١]

فقد كان يوزع على رفاقه المهام، مهام الهجوم، والدفاع، وجمع الغنائم، وهذا يتبين عند الشنْفَرَى في قوله:

خَرجنَا قَلم نَعهد وقلـتْ وصاتُنَـا ... تَمايِيـةُ مـا بـعـدهـا متَعتـب
سراحِين فِتْيان كأن وجوهـهـم ... مصابِيـح أو لون مِن الماءِ مذْهب
.....
فَثَاروا إلينَا في السوادِ فَهجهجوا ... وصـوتَ فِينـا بالصباح المثـوب
فَشَن علَيهم هِـزةَ السيفِ ثَابِـتٌ ... وصمـم فيهـم بالحسامِ المسيـب
وظَلْتُ بِفِتْيَـانٍ معـي أتقِيـهـم ... بِهـن فليـلاً ساعـةً ثـم خَيبـوا [٢]

لذلك احتل الرفاق منزلة عالية في قلب الصعلوك البطل، فهو يقدرهم "ويرى أن فقد أحدهم خسارة لا تعوض، وإضعاف للجماعة التي تشق طريقها في الحياة بقوة أبنائها، وكسر لسلاح من أسلحتها يستحق الأسف" [٣]، مما جعل الصعلوك يحزن ويبكي أي عنصر يفقد من الجماعة، لما كانوا عليه من ترابط وتوحد، خاصة إن تميز المفقود بصفات قتالية عالية، يقول تَأبطَ شَراً:

لكِنمـا عِولـي إن كُنْت ذَا عولِ ... علَـى بصِيرٍ بِكسبِ الحمـْدِ سباق
سباق غَاياتٍ مـجدٍ في عشِيرتِهِ ... مرجع الصوتِ هـداً بين أرقَـاق
عـاري الظنَابِيب ممتَـد نَواشِره ... مِدلاج أدهم واهِي الماءِ عَسـاق
حمال ألـويةٍ شَـهـادِ أنْـدِيةٍ ... قَوال محكمةٍ جـواب آفّـاق
فَذَاك همي وغَزوي أستَغِيثُ بِهِ ... إذّا استَغَثْتُ بِضافِـي الرأس نَغـاق [٤]

---

[١] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٢٩٨.(المعترك: موقع المعاركة في القتال، تملّ: تحرق، يناط: يعلق).

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٢٧-٢٨.

[٣] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٢٠٩.

[٤] تأبط شرا، الديوان، ص١٣٥-١٣٧.(مرجع الصوت: يصيح آمراً ناهيا، الأرفاق: الصحبة، شهاد أندية: فصال في الأمور، جواب آفاق: قطاع للمفاوز، النغاق: ذو الصوت الشديد الذي يصيح في أثر الطرائد يسوقها).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مما سبق يتبين أن الصعلوك اهتم بالرفاق، واختيارهم، وتوزيع المهام عليهم في الغزوات، ويدل ذلك أن غزو الصعلوك مع الرفاق كان غزوا منظما، يحقق له النصر وكسب الغنائم.

ونخلص إلى أن شعر البطولة عند الشعراء الصعاليك لم يكد يخل من ذكر واحدة أو أكثر من أدوات البطولة التي سبق بيانها، ويبدو هذا أمرا منطقيا في شعر كانت البطولة والقوة فيه تعادل معنى الوجود عند أصحابه، وهذا يعكس بالضرورة صدق العلاقة وواقعيتها بين الصعاليك وتلك الأدوات التي ذكروها .

لم تكن العلاقة التي تختزن في المقطعات والقصائد التي أكثر فيها الصعاليك من ذكر أدوات البطولة ذكرا مجردا، وإنما كانت تختلف عن تلك العلاقة التي تظهر في أشعار غيرهم من الفرسان، فإن هذه الأدوات كانت ملازمة للصعلوك في كل لحظة من حياة الخوف والترقب والإغارة التي كان يحياها، فنشأت بينه وبين سلاحه علاقة حميمة بلغت حدا يفوق الإحساس بمقدارها وأهميتها.

ويبدو لنا أن هذا الإصرار الشديد على ذكر السلاح ووصفه جاء في بعض الأحيان ليلبي حاجة نفسية في داخل الشاعر تتمثل في محاولة تعويض المجتمع الذي افتقده الشاعر من جهة، وفي محاولة للترفيه عن نفسه، والتخفيف من حالة الخوف، ورائحة الموت، والإحساس الدائم بالخطر الذي صبغ كل لحظة في حياته، فحاول أن يواسي نفسه، ويبث في ذاته قدرا من الطمأنينة من خلال التهديد، وذكر السلاح، والتغني بالبطولة، ولعل هذا الإحساس هو ما يفسر لنا أيضاً حال اللامبالاة بالحياة التي كان الشاعر يعبر عنها في بعض الأحيان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البطولة المثلى عند الشعراء الصعاليك في الجاهلية

جاء هذا الفصل في مبحثين، المبحث الأول منه كان مكملا للفصل السابق، فاستكمل بحث الصور البطولية في شعر الصعاليك، مسلّطا الضوء على البطولات النفسية والخلقية، التي تمثل البطولة المثلى، أما المبحث الثاني بحث الخصائص الفنية لشعر البطولة، ووضح مدى تميز وقوة هذا النوع من الشعر عن بقية الأشعار في تحقيق الهدف.

المبحث الأول: صور البطولة المثلى في شعر الصعاليك

عرف العرب القدماء ومنهم الصعاليك – كغيرهم من الشعوب – أن البطولة وأفعالها لا تقتصر على حد البطولة الحربية ومهاراتها القتالية، والتفتوا بشكل كبير إلى أهمية القيم النبيلة، والأخلاق العليا التي تسهم في تكوين الصورة المثلى للبطل، وهذا ما جعل كثيرا من الصعاليك يلتفت التفاتة جادة إلى بيان الجانب البطولي غير الحربي (النفسي والخلقي) في شعرهم، فأكثروا من ذكر الكرم، والإباء، والحزم، والحلم، والصبر، والعفة، والوفاء، وغيرها من صفات البطولة المثلى وأدواتها.

لقد تحقق لدى الصعاليك يقينا بأن الرجل وإن كان شديد الفتك فإنه لا يرقى بمنزلته إن لم يصحب ذاك نفي مطلق لكل معتقد سلبي حول سلوكاتهم قد يداخل نفس من يذكرون عنده، فأثبتوا أنهم وإن أغاروا فمنهم الوفي، وإن سلبوا فمنهم الكريم، وأيا ما فعلوا فعندهم عفة، وصبر، ومكارم أخلاق.

ويمكن القول إن البطولة الحربية وأدواتها قد ارتبطت ارتباطا وثيقا في شعرهم مع البطولة المثلى وأدواتها، فاقترن – واختلط أحيانا – حديث القوة مع حديث القيم المثلى في مقطعاتهم وقصائدهم بشكل مضموني وفني لا يقل أهمية وجمالا عن الموضوعات والأغراض الرئيسة التي ظهرت في أشعارهم.

وتحاول الدراسة تاليا الوقوف على أبرز صور البطولة المثلى في شعر الصعاليك وإبراز الصورة التامة للبطولة التي كانوا عليها، ومن أبرزها:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطولة الكرم

ارتبط الكرم بالعرب ارتباطا وثيقا، وشكّل سلوكا ومذهبا ضربت به الأمثال، وتناقلت أخباره الركبان، وتزخر كتب التراث العربي بأخبار وأحاديث كثيرة عن الكرم والكرماء، ولا نبالغ إن قلنا إن هناك من كان يتسابق نحو المكارم، بل ويبالغ في الكرم ؛ ليكتب اسمه في سجل تاريخ الكرماء، وكان حريا بالأبطال والفرسان أن يسعوا للاتصاف بالكرم قبل سواهم وهو ما نجده صريحا مؤكدا في أشعار الصعاليك التي وصلت إلينا.

وعند النظر في شعر مَالِك بن حَريم نجده يتغنى بفضله وكرمه، ويحرص على أن ينأى بنفسه عن البخل والضن بالمعروف، خشية أن يلحقه بالبخل عار، وهذا الأمر قد توارثه عن أبيه، يقول:

تَدارك فَضلي الألمعِـي ولـم يكُـن ... بـذِي نِعمـةٍ عِنْـدِي ولا بِخَـلِيـل
فَقُلْـتُ لَـه قَـولاً فَألفِيـتُ عِنْـده ... وكُنْـتُ حـرِياً أن أُصـدقَ فِيـلِـي
أجود علـى العافِي وأحـذَر ذَمـه ... إذَا ضـن بِالمعـروفِ كُـل بخِيـل
بذلِـك أوصانِـي حرِيـم بن مـالِكٍ ... بـأن قَلِيـلَ الـذم خَيـر قَلِـيـل [1]

ويفصل مَالِك بن حَريم في بيان مذهبه في الكرم، فهو يجود للضيف بأفضل ما يملك، حتى لا يترك ضيفه الغريب يطلب أي طلب، أو يسأل عما سيقدم له، فكل شيء يتمناه يجده، وكان يسابق القوم في إكرامه للضيف، دون أن يسعى لمدح أو ثناء، يقول:

ولا يسألُ الضيفُ الغَرِيب إذا شَتَـا ... بِما زخَـرتْ قِدري له حِين ودعـا
فَإن يـك غَثّـاً أو سمِينـاً فَإننـي ... سأجعـلُ عينَيـهِ لِنَفْسِـهِ مقْنَعـا
إذا حل قَومِي كُنْتُ أوسطَ دارهـم ... ولا أبتَغِـي عِنْـد الثنِيـةِ مطْلَعـا [2]

ويفخر مَالِك بن حَريم بخصاله، ويوضح حرصه على ألا يبخل بشيء، ولا يصمت كلابه إذا ما نزل الضيف ليلا، يقول:

فَإن يك شَاب الرأْس مِنـي فَإننـي ... أبيتُ على نَفْسِـي مناقِـب أربعـا
.....
وثَانِيـةٌ : أن لا أُصمـتَ كَـلْبنـا ... إذا نَزلَ الأضيافُ حِرصاً لِنُودعـا

---

[1] الطائي، كتاب الوحشيات، ص١٦٨.

[2] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٧.(الثنية: الطريق في الجبل، المطلع: موضع الطلوع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

.....

ورلبعـةُ : أن لا أُحجـلَ فِـدرنـا على لحمها حِين الشتاءِ لِنَشْبعـا [١]

ومن كرمهم فك العاني، فالفارس الحقيقي منهم يعرف الكرماء ولا يدع سواهم إن وقع في أسر أو حجز، لأنه متيقن منهم باستجابة دعوته، يقول قَيس بن الحِدَادِية:

دعـوتُ عديـاً والكُبـولُ تَكُبنـي ألا يا عـدي يا عـدي بن نَوفَـل
دعوتُ عديـاً والمنـايـا شَـوارع ألا يا عـدي للأسيـر المكبَـل
فَما البحر يجري بِالسفين إذا غـدا بأجود سيباً منه في كُـل محفـل [٢]

وخير الكرم ماكان في وقت يقل فيه الكرماء، ويعسر فيه الأجواد، وفرق كبير بين من يكرم وهو في سعة ومن يجود وهو في جهد، يقول أبو الطمَحَان القَيني:

فإن بنِـي لأمِ بن عمـرو أَرومـةٌ علَتْ فـَوقَ صعبٍ لا تُنالُ مراقِبـه
أضاءتْ لهم أحسابهـم ووجوههـم دجى الليل حتّى نَظْم الجزع ثاقبـه
لهم مجلِس لا يحصرون عن النُدى إذا مطْلَب المعروفِ أَجدب راكِبـه [٣]

ويقول في المقام السابق ذاته:

أرقتُ وآبتْنِـي الهمـوم الطّـوارقُ ولم يلْـقَ ما لا قيتُ قبلي عاشِـقُ
إليكُـم بنِـي لأمٍ تَخُـب هِجـانُها يِكُـلّ طَريق صادقَتْـه شَبـارقُ
لكُم نائـلٌ عَمـر وأحـلام سـادةٍ وألسِنَـةٌ يوم الخِطـابِ مسـلِـقُ
ولـم يـدع داعٍ مثلكُـم لِـعظِيمـةٍ إذا وزمتْ بالساعِديـن السـوارقُ [٤]

أما عروَة بن الوَرد فإن له مع الكرم خبرا وحديثا يطول بسطه، وأخباره طارت بها الركبان، وتناقلتها كتب التراث، وفيه يقول عَبد المَلِك بن مَروَان: "من زعم أن حَاتِماً أسمح الناس فقد ظلم عروَة بن الوَرد" [٥]، ولُقب عروة الصعاليك لقيامه على شأنهم، وكرمه معهم،

---

[١] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٤.(نودع: نترك، أحجل قدرنا: لا نستر قدرنا).

[٢] الأصفهاني، الاغاني، ج١٤، ص١٥٢.(الكبول: القيود، تكبني: تصرعني، المنايا شوارع: مسددة).

[٣] المصدر نفسه، ج١٣، ص١٢.(الأرومة: الأصل، الجزع: ضرب من الخرز).

[٤] المصدر نفسه، ج١٣، ص١٣.(الهجان: كرام الإبل، الشبارق: شجر ينبت في نجد وتهامة، ألسنة مسالق: حادة، وزمت: عضت، السوارق: قيود الأسرى).

[٥] المصدر نفسه، ج٣، ص٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويفخر عروة بكرمه فخرا شديدا، ويذم البخل، ويبغض البخلاء، ويظهر كراهة شديدة للفقر، ويذكر هذا في أكثر من مناسبة فيقول :

وقـد علِمـتْ سليمى أن رأْيـي ... ورأي البخـل مختلِفٌ شتيـتُ
وأنـي لا يـريني البخْـلَ رأيٌ ... سـواء إن عطِشْـتُ وإن رويـتُ (١)

ويتجلى كرمه، وفناؤه في سبيل الآخرين في قصيدة يعبر فيها عن نظرته للحياة، ومشاركته للناس في همومهم حتى لو أضر ذاك به، يقول:

إنّي امرؤٌ عافي إنائـي شِركـةٌ ... وأنتَ امرؤٌ عافي إنائِكَ واحِـد
أتهزأُ مِنّي أن سمِنْـتَ وأن تَـرى ... بوجهي شحوب الحق والحق جاهِد؟
فلا تَشْتُمنـي يـا ابن وردٍ فإنني ... تَعود على مالي الحقوقُ العوائِـد
أُقسـم جِسمي في جسـومٍ كثيـرةٍ ... وأحسو قَراح الماءِ والماء بـارد
ومن يؤْثِر الحق النَؤُوب يكُـن بـهِ ... خَصاصةُ جِسمٍ وهو طيان ماجِـد (٢)

وتتكرر النظرة ذاتها، والموقف ذاته في قصيدة أخرى يقول في أبيات منها:

وربـتَ شُبـعةٍ آثـرتُ فيـها ... يداً جـاءت تُغيـر لهـا هتيـتُ
يقُـولُ : الحـق مطلبه جميـلٌ ... وقـد طلبـوا إليـك فلم يقيتُـوا
فقلـتُ لهُ : ألا احـي وأنتَ حـر ... ستَشبع في حياتِـكَ أو تَمـوتُ
إذا مـا فاتنـي لـم أستَقِلْـه ... حياتـي والمـلائِـم لا تَفُـوتُ (٣)

ويذهب عروَة بن الوَرد إلى أبعد من ذلك عندما يتوحد مع الضيف، فلا يؤثر عليه شيئا، ويشركه في ثوبه، وفراشه، وبيته، ويعطيه من فكره، ويحرص على أن لا ينشغل عنه بشيء، ويحادثه لعلمه أن المحادثة والمؤانسة للضيف لا تقل أهمية عن إطعامه وإكرامه، يقول:

فإنّكَ والأضيـافَ في بـردةٍ معـاً ... إذا ما تبِص الشمس ساعةَ تَنْـزع
فِراشِي فِراشُ الضيف والبيتُ بيتُه ... ولـمْ يلهِني عنْـه غـَزالٌ مقنـع
أُحدثُـه إن الحديـثَ مِـن القِـرى ... وتَعلم نفسي أنه سـوفَ يهجـع (٤)

---

(١) عروة بن الورد، الديوان، ص١٠١.(شتيت: متباعد).

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٣-١٢٥.(شحوب الوجه: اصفراره، قراح الماء: الصافي منه، الخصاصة: الفقر، طيان: جائع).

(٣) المصدر نفسه، ص٩٨-١٠٠.(الشبعة: مقدار ما يشبع مرة، الهتيت: كثرة الكلام، لم يقيتوا: لم يطيقوا).

(٤) المصدر نفسه، ص١٨٩-١٩٠.(البردة: العباءة، تبص: تلتمع، تنزع: تجري إلى المغرب، يهجع: ينام).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيرا ما يقف عروَة بنفسه على القِدر التي يعد الطعام فيها للجياع والمعوزين، ويفخر بما لها من قيمة عند محتاجيها وفي ذلك يقول:

وإذْ ما يريح الحي صرماء جونَـةً ... ينوس عليهـا رحلُها مـا يحلـلُ
موقعةُ الصفْقَيـن حدباء شـارفٌ ... تُقَيـد أحيانـاً اديهـم وتُرحـلُ
عليها من الولـدان ما قد رأيتُـم ... وتَمشي بِجنبيهـا أَراملُ عيـلُ
وقلـتُ لها : يا أُم بيضـاء فِتيـةٌ ... طَعامهـم مِـن القُدور المعجـلُ
مضِيغٌ مِن النيبِ المسان ومسخَن ... مِن المـاءِ نعلوه بِآخَر مِن عـلُ (١)

ويربط الأعلَم الهذَلي بين سيد القوم والكرم، وينفي عن السيد أن يكون بخيلا، ويكشف عن جوده بالذي يضن به البخلاء، يقول:

فَـإن السيـد المـعلُـوم فِينَـا ... يجـود بمـا يضـن بِـهِ البخِيـلُ
وإن سِيـادةَ الأقْـوامِ فَـاعلَـم ... لهـا صعـداء مطْلعهـا طَويـلُ (٢)

ويبدي زهده بالمال، ويرى أنه وجد لغايات وأمجاد، وتلبية دعوات، ولم يوجد ليحبس ويخزن، يقول:

أَحبشِـى إنا قَـد يمتعنَـا الغِنَـى ... بِأَمـوالِنَـا نُـريحهـا ونُسِيمهـا
ونَحبِسها علَـى العظَائِـمِ نَتقِـى ... بِها دعـوةَ الدعِيـن إنا نُقِيمهـا (٣)

ويقف أبو خِرَاش الهذَلي معددا لمكارم ومآثر جَمِيل بن مَعمَر، بعد أن كان وقف على بيان قوته وفروسيته وشجاعته، يقول:

فَجـع أضيافِى جمِيـلُ بن معمـرٍ ... بِذِى فَجـرٍ تأْوى إِليـهِ الأَراملُ
طَويـل نِجـادِ البز ليس بِجيـدرٍ ... إِذَا اهتَز واستَرخَتْ عليهِ الحمائِـلُ
إِلى بيتِهِ يأْوى الغَريـب إِذَا شتَـا ... ومهنَّاك بالإِـى الدريسيـن عائِـلُ
تَـروح مقْروراً وراحـتْ عشِيـةٌ ... لهـا حـدب يحتَثـه فَيـولُـلُ
تَكَـاد يـداه تُسـلِمـان رداءه ... مِن الجودِ لما استَقْبلتْـه الشمائِـلُ (٤)

---

(١) عروة بن الورد، الديوان، ص٢٠٨-٢١٠.(المضيغ: كل عصبة ذات لحم، المسخن: الماء الساخن، النيب المسان: الناقة المسنة).

(٢) السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٢٣.(صعداء: ارتفاع).

(٣) المصدر نفسه، ١م، ص٣٢٨.(نريحها: بالعشي إلى مباتها، نسيمها: بالغداة إلى مراعيها، نقيمها: نعدها).

(٤) المصدر نفسه، ٣م، ص١٢٢١-١٢٢٢.(طويل البز: طويل السيف، الجيدر: القصير، الدريسان: الثوبان الخلقان، عائل: فقير).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الخصال التي يذكرها أبو خِرَاش الهذلي ما هي إلا صفات البطولة المثلى التي تسابق الأبطال إلى التحلي بها، ونجده يذكر طائفة منها في قصيدة يقول فيها :

كريـم سجِيـاتِ الأمـور محببـاً ... كثِير فُضـول الكف ليس بِذِى وصـمِ
أشَم كنَصل السيفِ يرتَـاح لِلنّدى ... بعِيـداً مِن الآفَـاتِ والخُلُـق الوخْـمِ
جمعتَ أموراً ينْفِذُ المـر بعضهـا ... مِن الحِلْمِ والمعروفِ والحسبِ الضخْمِ (١)

أما صاحب الغرائب تَأبطَ شَراً فإن له كرما قد لا يكون لأحد سواه من الصعاليك، فنرى هذا الكريم يقتسم الزاد سواء بينه وبين ذئب من الذئاب، يقول:

لطِيفُ الحوايا يقْسِم الـزاد بينَـه ... سواء وبين الذئْـبِ قَـسم المشَارِكِ (٢)

ولن يكون غريبا بعد تلك الصورة من الكرم أن نجد تَأبطَ شَراً يقول إنه قد خلع نعله وجاد بها على صاحب له حاف، يقول:

ونَعـلٍ كأشْلاءِ السمانَى نَبذْتُهـا ... إلى صاحِبٍ حـافٍ وقُلْتُ له: انْعـل (٣)

وهو في المقابل لا ينسى مواقف البخلاء ممن نزل بهم وصحبه ولم يحسنوا إكرامهم، يقول :

أقْسمتُ لا أنْسـى وإن طَالَ عيشُنَا ... صنِيـع لُكيـزٍ والأحـل بن قُنْصـل
نَزلنَـا بهِ يوماً فَسـاء صباحنَـا ... فإنك – عمري – قد تَرى أي منْـزل
بكَـى إذْ رآنَـا نَازلِيـن بِبلِيـهِ ... وكَيفَ بكَـاء ذِي القَلِيـل المسبـل
فَـلا وأبِيـك مـا نَزلْنَـا بعامِـرٍ ... ولا عامِر ولا الرئـيس ابن قَوقَـل (٤)

ولمن سبق ذكرهم من الصعاليك وغيرهم شعر كثير في الكرم والجود، وذم البخل، والتسابق نحو الإيثار، ولا تكاد هذه الخصلة تغيب عن واحد منهم، وعلى الأخص أولئك الذين سعوا لتحقيق البطولات، وتخليد ذكرهم.

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٢٥.(وصم: عيب).

(٢) تأبط شرا، الديوان، ص١٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٨١.

(٤) المصدر نفسه، ص١٦٧-١٦٩.(المسبل: المباح المتاح لكل طارق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطولة الإباء

وهذه البطولة من البطولات المكملة لصور البطولة المثلى التي حرص الصعاليك على الظهور بها، وهذه البطولة لا يقدر عليها إلا أصحاب القوة والجلد، والنفس العزيزة التي ترفض كل ما من شأنه أن يلحق بها ذلا أو هوانا، أو ذكرا مشينا، وهذا الحرص لم يكن حكرا على الصعاليك وحدهم بل قيمة ثابتة من قيم المجتمع العربي.

يتحدث الأُحَيمِر السعدِي عن صورة من صور إبائه مبينا أنه يأبى ويخجل من الله أن يكون متخاذلا، ويأنف عن سؤال الرجل اللئيم حاجة، يقول:

وإني لأستَحيي مِن اللـهِ أن أُرى ... أَطـوفُ بحبـلٍ ليـس فيـهِ بعِيـر
وأن أَسـأَلَ المـرء اللئيم بعيـره ... وبعـران ربِّـي فـي البـلادِ كثيـر [1]

ويبين عَمرو بن بَراقة أن المرء الحر إذا ما تعرض للظلم فإنه يأبى أن يبيت مظلوما، وما للظالم أن يأمن الدهر قط، يقول:

فـلا تَأمنَن الدهـر حـراً ظَلَمتَـه ... فمـا ليـلُ مظلـومٍ كريـمٍ بنائـم [2]

ومن الإباء عند عَمرو بن بَراقة أن يرد على من اعتدى عليه، ويغزو من غزاه، وما في هذا الفعل ظلم، بل لا يرضى بالصلح إلا بعد أن يقع القتال ويكثر، يقول:

وكُنْتُ إِذا قَـوم غَزونِي غَزوتُهـم ... فَهـلْ أَنا في ذا يالهمـدان ظالِـم
فَلا صلح حتّى تُقْـرَع الخَيلُ بِالقَنا ... وتُضرب بالبيض الخِفَافِ الجماجم
ولا أَمن حتّى تَغشِم الحرب جهـرةً ... عَبِيدةَ يومـاً والحـروب غَواشِـم [3]

ويظهر الإباء والعزة في قصيدة له يفخر فيها بقوته، ويعلن رفضه لكل ذل أو هوان مادام السيف قائما بيده، يقول:

كَذَبتُـم وبيـتِ اللّـهِ لاتَأخُذونَهـا ... مراغَمـةً مـادام للسيـفِ قائِـم
تَحالَـفَ أَقـوام عَلَـيَ ليسلمـوا ... وجـروا علي الحـرب إذ أَنا سالِم
أَقالِيـوم أُدعـَى للهوادةِ بعـدمـا ... أُجيلَ على الحي المذاكي الصـلادِم

---

[1] الطائي، كتاب الوحشيات، ص٣٤.

[2] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، (ت٣٩٥هـ). كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢، ص١٠٨.

[3] ابن ميمون، منتهى الطرب من أشعار العرب، ٤م، ص٢٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإن حريمـاً إذْ رجـا أن أردهـا ... ويذْهب مالـي يا ابنَة القَيل حالِـم
متى تَجمع القَلب الذكي وصارمـاً ... وأَنْفـاً حمِيـا تَجتَنِبـك المظالِـم [١]

ويمتدح أبو الطمَحَان القَيني بني تميم، ويتغنى بإبائهم وقوتهم عند اشتداد الخطوب، مؤكدا على أن من كان جارا لهم فهو أعز الناس وأكرمهم، يقول:

يبِيـع ويشْتـرى لهـم سِواهـم ... ولكـن بالـرمـاح هـم تِجـار
إذا مـا كُنْتَ جـار بنِـي تَمِيـمٍ ... فـأَنْـتَ لأكْـرمِ الثقلَيـن جـار [٢]

ومن الإباء عند عروَة بن الوَرد أن يرفض الذل والمهانة، وأن يعامل الآخرين كما عاملوه وأكثر، فيرد لهم الصاع صاعين، يقول:

إن تَأْخُذُوا أسماء موقِفَ ساعـةٍ ... فَمأْخَـذُ ليلى وهي عذْراء أعجـب
لِبسنا زماناً حسنـَها وشَبابهـا ... وردتْ إلى شَعواء والرأس أَشْيَـب
كمأْخَذِنا حسنـاء كُرهاً ودمعهـا ... غداةَ اللوى مغْصوبـةً يتَصبـب [٣]

ويظهر إباء عروَة في تحوله ورحيله عن قومه إن هم بخلوا عليه بالعون وطيب الفعال، يقول:

وسائلةٍ : أين الرحيـلُ؟ وسائلٍ ... ومن يسأَلُ الصعلوك أين مذَاهِبـه؟
مذَاهِبه: أن الفِجـاج عريضـةٌ ... إذا ضن عنْه بالقَـعال أقاربـه [٤]

ولعروَة شعر في الإباء والثورة، والتمرد على حياة الهوان والذل بكل طريقة جعلت بعض الصحابة كعَبدِاللهِ بن جَعفَر يوصي معلمي أبنائه بألا يعلمهم هذا الشعر لما فيه من تحريض على التمرد والترحال [٥]، يقول:

ذَريني أُطَوفْ فـي البلادِ لعلنـي ... أُخلّيكِ أو أُغنيكِ عن سـوءِ محضر
فإن فـاز سهم لِلمنيةِ لم أكُـن ... جزوعاً وهلْ عن ذاك مِن متأَخـر؟

---

[١] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٤م، ص٢٠١.(الهوادة: السكون والموادعة، المذاكي:الحسن من الخيل، الصلادم: الشديد).

[٢] البصري، الحماسة البصرية، ج١، ١٣٢.

[٣] عروة بن الورد، الديوان، ص٨٧-٨٨.(شعواء: يقصد قومها).

[٤] المصدر نفسه، ص٩١.(الفجاج: الطرق الواسعة، ضن: أمسك وبخل).

[٥] الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن فاز سهمي كفكُم عن مقَاعِدٍ لكُم خَلْفَ أدبار البيوتِ ومنْظَـر [١]

وتظهر هذه البطولة في حديثه عن حياة الصعلكة، ووصف سلوك الصعاليك، يقول:

لحا اللّه صعلوكاً اذا جن ليلُـه مصافـي المشاش آلفاً كل مجـزر
يعد الغِنى مِن نَفسِهِ كـل ليلـةٍ أصـاب قِراها مِن صديـق ميسر
ينَام عِشاء ثم يصبـح ناعِسـاً يحث الحصـى عن جنْبِهِ المتَعفِـر
قَليلُ التِماس الزادِ إلا لِنَفْسِـهِ إذا هـو أمسى كالعريش المجـور
يعين نِساء الحي ما يستَغِنـه ويمسِي طَليحـاً كالبعير المحسـر [٢]

ويظهر إباؤه أيضا في قوله:

أقيموا بني لُبنَى صدور ركابِكُم فكُل منَايا النفس خير من الهـزل
فإنّكـم ان تَبلُغـوا كل هِمتـي ولا أربي حتى تَروا منْبِتَ الأثْـل [٣]

ولا يختلف الشّنْفَرَى كثيرا عن عروة بن الورد في التفاخر بالإباء، والعزة، ويظهر في أشعاره الكثير التي يعدد فيها بطولاته، يقول:

أبي لِمـا يأبى سريـع مبـَاعتي إلى كُل نَفْس تَنْتَحِي في مسرتـي [٤]

ويبرز الإباء بشكل قوي وبارز في لامية الشّنفَرَى التي يبدأها بالتحول والرحيل عن قومه طلبا للنأي بنفسه عن الأذى والهوان، ويمتد في فكرته حين يستبدل الذئاب وحيوانات الصحراء بأهله، وهم-الذئاب- الذين يستودعهم سره فلا يذيعونه، وينصرونه، ولا يخذلونه إذا ما جر عليهم جنايات، يقول:

أقيمـوا بني أمـي صدور مطِيكُـم فإنّـي إلى قَـومٍ سِواكُـم لأميـلُ
فَقَد حمتِ الحاجاتُ والليـلُ مقْمِـر وشُدتْ لِطِيـّاتٍ مطَايـا وأرحـلُ
وفي الأرض منأًى لِلكَريمِ عن الأذَى وفيها لِمن خَـافَ القِلى متَعـزلُ
لعمرك ما بالأرض ضِيقٌ على امرئٍ سرى راغِباً أو راهِباً وهو يعقِـلُ
ولي دونَكُم أهلُون : سِيـد عملـس وأرقَـطُ زهلُـولٌ وعرفَاء جيئَـلُ

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص١٤٤-١٤٦.(سوء المحضر:المقام في ظروف سيئة، جزوعا: مشفقا، كفكم: صرفكم).

[٢] المصدر نفسه، ص١٤٩-١٥١.(لحا: قبح ولعن، المشاش: كل عظم لا مخ فيه، المتعفر: المتمرغ في التراب، المجور: المتهدم، المحسر: الجمل الذي تعب).

[٣] المصدر نفسه، ص٢٠١-٢٠٢.(همتي: رغبتي، أربي: مرادي).

[٤] الشنفرى، الديوان، ص٣٨.(المباءة: الرجوع، تنتحي: تعتمد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـم الأهلُ لا مستَودع السر ذائـع لديهم ولا الجاني بما جر يخْـذَلُ [١]

بل إن عند الشّنْفَرَى من الإباء وعزة النفس والأنفة ما يجعله يستف تراب الأرض على أن يجد من الناس من يتفضل عليه بالزاد أو غيره، يقول:

وأستَف تُرب الأرض كيلا يرى له علـي مِن الطول امرؤٌ متَطـولُ [٢]

ويقف صَخْر الغَي في بعض شؤونه وقفة إباء وفخر وأنفة، مصرحاً أنه امرؤ حر، لا يرضى أن يستعبده شيء، ولا يقبل الضيم ولا يرتضيه، ولا يفعل إلا فعل الأبطال الذين لا يقبلون تهديدا، يقول :

ولسـتُ عبـداً لِلموعِدِيـن ولا أَقبَـلُ ضيمـاً يُلْقِـى بِـهِ أَحـد
جـاءتْ كَبِيـر كيمـَا أُخَفرهـا والقَـوم صِيـد كـأنمـا رِمِـدوا
فِى المزِيـي الذِي حشَشْتُ بِـهِ مـالَ ضـرِيـكٍ تِـلاده نَكِـد [٣]

ويؤكد صَخْر الغَي في قصيدة أخرى على إبائه ومنعته، فلا يلتفت لقول عدو، ولا يضطر للتضرع طلبا لعون، ويعتز بقوم لا يرضون له هوانا، يقول:

لستُ بِمضطَر ولا ذِى ضراعـةٍ فَخَفض عليك القَـولَ يابا المنَـلِم
وخَفض عليك القَولَ واعلم يَأنِنى مِن الأنَس الطاحِى الحلُول العرمرِمِ
أَبتْ لِى عمرو أَن أُضام ومازِن وفِـرد ولِحيـان وسهـم قَسلـم [٤]

وما أكثر القصائد التي تفاخر فيها الصعاليك بالإباء والأنفة، حتى أن منهم من لا يكاد يخلو شعره من هذا الفخر، ويظهر لنا أن هذا مجالاً تسابق فيه الفرسان من الصعاليك، وحاول كل منهم أن يظهر المواقف العظيمة التي تشهد على إبائه، وهو أمر نرى أنه بعيد عن الادعاء والمغالاة، بل من المنطقي أن يعزو كثير منهم بعض فعاله للإباء والأنفة، ورفض الذل والهوان الذي أحس بعضهم أنه قد لحق به بين قومه.

---

[١] الشنفرى، الديوان، ص٥٨-٥٩.(حمت: دبرت، الطية: الحاجة، المنأى: المكان البعيد، القلى: الكراهية، السيد العملس: الذئب القوي، العرفاء: الضبع الطويلة العرف، جيئل: اسم للضبع).

[٢] المصدر نفسه، ص٦٢.(الطول: المن).

[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٢٥٩-٢٦٠.(أخفرها: أمنعها، حششت به:قويت به، ضريك: فقير).

[٤] المصدر نفسه، ١م، ص٢٦٦.(الضراعة: الخضوع، العرمرم: الشديد، عمرو ومازن وقرد ولحيان وسهم: قبائل من هذيل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطولة الحزم

عرفت العرب الحزم منذ القدم، وارتبط ارتباطا وثيقا بالعزيمة القوية، والشجاعة في إنفاذ الأمور، ومن المسلم به أن يكون الحزم ذا حضور بارز عند الأبطال الصعاليك، ولعل هذا ما اقتضته طبيعة الحياة التي عاشوها بين كر وفر، وتعرض لمواقف لم تكن في الحسبان تحتاج إلى سلامة تقدير، وسرعة قرار، وحزم وثبات، وهكذا فإن الحزم اختلفت صوره باختلاف المواقف التي تعرض لها الصعاليك والأحوال التي تقلبوا فيها.

وفي هذا السياق يصرح عَمرو بن بَراقّة عن حزمه في أمور الغواية، ويظهر وعيا تاما لكل المعطيات التي ترافق هذا الموقف، يقول:

إذا الليلُ أدجـَى واكفَهرَ ظلامـه وصاح مِن الأفْراطِ بـوم جواثِـم
ومالَ بأصحابِ الكـرى غالِباتُـه فإني على أمـر الغَوايـةِ حـازم [1]

وأما الحزم عند قَيس بن الحِدَادِية فإننا ندركه من فعاله حين يقف على الحد الفاصل بين حياة الجد والحزم وحياة اللهو واللعب، يقول:

فَيوماي يوم في الحديدِ مسربـلاً ويوم مع البيض الأوانِس لاهِيـا [2]

ويظهر الحزم عند السلّيك بن السلّكة في إدراكه أن للغارة وقتا لابد من أن يحسن المرء اختياره، وأن الأمور تحتاج إلى إعمال العقل، والحذر قبل الإقدام، يقول:

يا صاحِبـي ألا لا حي بالـوادي إلاّ عبيـداً قِـيـامـاً بيـن أذْوادِ
أتَنْظُـران فليـلاً ريثَ غَفْلَتِهـم؟ أم تَغْـدوان فإن الريـح للغـادي [3]

أما عروَة بن الوَرد فإن حزمه مقترن بالشجاعة والبطولة، ويفخر بحزمه وقدرته على اتخاذ الرأي في المواقف الصعاب، وعند احتدام الخطب بفضل علمه، ويبدي استعدادا للسؤال إذا ما عميت عليه الأمور، يقول:

وأني حيـن تَشْتَجِـر العـوالي حوالِـي الـلـب ذو رأْيٍ زهِـيتُ
وأكفَـى ما عِلمتُ بِفَضل عِلْـمٍ وأسـألُ ذا البيـان إذا عمـيتُ [4]

---

[1] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٤م، ص٢٠٠.(أدجى: أظلم، اكفهر: تراكب، الجواثم: الرابضة، الكرى: النوم).

[2] الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص١٥٦.(مسربل: لابس).

[3] السليك بن السلكة، الديوان، ص٦٨.

[4] عروة بن الورد، الديوان، ص١٠١-١٠٢.(تشتجر العوالي: تتشابك الرماح، حوالي: ذو الحيلة، زميت: رزين).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحزم عند الشّنْفَرَى أمر ملازم له للتعبير عن قوة إرادته، ولا ينفك يبديه تصريحا وتلميحا في إطار من الفخر والاستعلاء على الأقران، وفي ذلك يقول:

أنـا السمـع الأزل فَلاَ أُبَـالِـي ... ولَو صعبـتْ شَنَاخِيـب العِقَـابِ

ولا ظَمَـأٌ يؤَخـرنـي ولا حـر ... ولا خَـمص يقَصـر مِن طِـلاَبِ [1]

ونجد الأمر مفصلا عنده في عدد من أبيات اللامية التي تكشف عن مدى اعتزازه بنفسه، وحزمه في كل الأمور، وترفعه عن كثير من الصفات التي لا يليق بمن كان فارسا شجاعا وبطلا مقداما أن ينعت بها، يقول:

ولَستُ بِمِهيافٍ يعشـي سوامـه ... مجدعـةً سقْبانُهـا وهي بهـَلُ

ولا جبـإٍ أكْهـى مرب بِعِرسِـهِ ... يطَالِعها في شأْنِـهِ كَيفَ يفْعـَلُ

ولَستُ بِعـل شَـره دون خَيـرِهِ ... ألَف إذا ما رعتَه اهتَاج أعـزلُ

ولَستُ بِمِحيارِ الظلاَمِ إذا انْتَحـتْ ... هدى الهوجل العِسيفِ يهماء هوجلُ [2]

ويصرح تَأبطَ شَراً بأهمية الحزم للمرء إذا ما نزل به الأمر الجلل، بل إن على المرء أن يحتال في كل أمر كي لا ينتهي به الحال إلى الخسران، فالإنسان البصير بالأمور وعواقبها من كان الحزم والاحتراس دائماً حاله، يقول:

إذَا المرء لَم يحتَلْ وقد جد جِـده ... أضاع وقَاسى أمره وهـو مدبِـر

ولكن أخو الحزمِ الذي لَيس نَازِلاً ... بِـهِ الأمر إلا وهو للأمرِ مبصِـر

فَذَاك قريع الدهرِ ما عاشَ حولٌ ... إذَا سد مِنْه منْخِـر جاشَ منْخِـر [3]

ويكشف حديث آخر له عن حزمه في التعامل مع كل الأمور، ويبدو شديد الحذر، لا يعدم طريقا إلى الحيلة، يقول:

فَإنك لَوقَـاسيتَ بِاللصبِ حِيلَتِـي ... بِلِحيان لَم يقْصر بِك الدهر مقْصر

أَقُـولُ لِلِحيانِ وقَـد صفِـرتْ لَهم ... عِيابِي ويومي ضيقُ الحِجرِ معور

لَكُم خَصلَـةٌ : إِمـا فِـداء ومِنـةٌ ... وإما دم والقَتْـلُ بالمرءِ أجـدر

وأُخْرى أُصادِي النفْس عنْها وإنها ... لَخُطةُ حزمٍ إن فَعلْـتُ ومصـدر

---

[1] الشنفرى، الديوان، ص٣٠.(السمع الأزل: ولد الذئب السريع، الشنخوب: أعلى الجبل، العقاب: الصعاب من الجبال).

[2] المصدر نفسه، ص٦١-٦٢.(مجدعة: سيئة الغذاء، السقب: ولد الناقة الذكر، الجبأ: الجبان، الأكهى: الذي لا خير فيه، المرب: المقيم، العلّ: الذي لا خير عنده، الهوجل العسيف: الرجل الطويل الذي يمشي على غير هدى، اليهماء: الصحراء).

[3] تأبط شرا، الديوان، ص٨٦-٨٨.(جد جده: ازداد، قريع الدهر: من جرب وتبصر بنوائب الدهر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَرشْتُ لها صدري قَزل عن الصفَا ... بِهِ جؤْجوء عبـلٌ ومتْن مخَصر
فَخَالطَ سهلَ الأرض لم يكْدح الصفَا ... بِهِ كَدحـةٌ والموتُ خَزيان ينْظُر
فَأبتُ إلـى فَهـمٍ وما كِـدتُ آيِبـاً ... وكَم مِثْلِهـا فَارقْتُها وهِي تَصفِر [1]

ويفخر تَأبطَ شَراً بحزمه في المضي بكل أمر يهم به، أو يعزم عليه، وما قال قولا إلا وأتبعه بالفعل، يقول:

وكُنْتُ إذَا مـا هممـتُ اعتَزمـتُ ... وَأحـر إذَا قُلـتُ أن أفْعـلا [2]

ويبدو جليا للدارس أن الحزم من صفات البطولة التي وجدت عند الصعاليك، وارتبطت ارتباطا وثيقا بحياة الصعلكة التي كان لها من السمات والخصائص ما يميزها عن حياة غيرهم، كما أنها ارتبطت بشكل وثيق بكثير من الصفات التي سيأتي بيانها تاليا.

بطولة الصبر

الصبر من أجلّ الأخلاق التي عرفها العرب قديما، وتحلى بها الرجال والنساء على حد سواء، ويمكن القول إن حياة العربي القديم في الصحراء القاسية في أجواء قبلية في ظروف شديدة جعلت الصبر زادا لمن أراد أن يستمر في الحياة، ولن نجد من هو أحوج للصبر من الصعاليك، وقد أسهمت طبيعة ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والبيئية التي عاشها الصعاليك في ترسيخ قيمة الصبر كبطولة مثلى هامة في حياتهم، وظهر صبرهم على الجوع والعطش، وعلى القر والحر، وصبروا على الترحال والخوف والترقب، وصبروا على فراق الأحبة والأهل، وصبروا على الموت والحياة.

ونجد الأُحَيمِر السعدِي يشكو إلى الله صبره على فراق الأحباب، وتبدل الأحوال ومضاء زمن الوصال، ويدعو اللصوص إلى ترك ما مضى خلفهم بعد لم يعد بإمكانهم أن يعيشوا حياة الراحة والتنعم، يقول:

قُلْ للّصوص بني الّحنْاءِ يحتَسِبـوا ... بز العراق وينْسوا طُرفـةَ اليمـن
ويتْركُـوا الخَـز والدّيباج يلْبسـه ... بيض الغَواني ذوى السراةِ والعِكَن
أَشْكُو إلى اللهِ صبري عن زوامِلِهم ... وما أُلاقِـي إذا مروا مِن الحـزن

[1] تأبط شرا، الديوان، ص٨٨-٩١.(اللصب: المضيق في الجبل، معور: مخوف حرج، أصادي النفس: أداريها وأتدبرها، الجؤجؤ العبل: الصدر الممتلئ، الخزالية: الاستحياء).

[2] المصدر نفسه، ص١٦٦.(أحر بالشيء: جدير به).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَرب ثَـوبٍ كريـمٍ كُنـتُ آخـذُه مِن القطـار بـلا نَقْـدٍ ولا ثَمـن [١]

ويتحدث حَاجِز بن عَوف عن صبره وتحملة للظروف البيئية الصعبة التي كان يتعرض لها كالبرد مثلا، يقول:

وليلـةٍ قِـرّةٍ أدلجـتُ فِيهـا يحـرّقُ جِلْـد ساقـي الهشِيـم
فأصبحتِ الأنـامِـلُ قَـد أُبينَـتْ كـأن بنـانَهـا أنْـفٌ رثِيـم
تَراها مِـن وثـامِ الأرض سـوداً كـأنّ أصابِـع القَدميـن شِيـم [٢]

ويفخر عَمرو بن بَراقَة في صبره على نصرة الإخوان إذا ما جر بعضهم عليه جريرة ويساذه لعلمه أن الناس تقع أحيانا في الجرم، يقول:

إذا جـر مولانـا علينا جريـرةً صبرنـا لها إنّا كِـرام دعائِـم
ونَنصـر مـولانـا ونَعلـم أنّـه كما النّاس مجروم عليهِ وجارم [٣]

ومن افتخر بالصبر مدح به محبيه، يقول أبو الطمَحَان القَيني في بني لأمِ بن عَمرو:

إذا قِيـلَ: أي الناس خَير قَبيلـةً وأصبـر يوماً لا تَوارى كواكبه
فإن بني لأمِ بن عمـرو أرومـةٌ علَتْ فَوقَ صعبٍ لا تُنالُ مراقِبه [٤]

ويظهر أبو الطمَحَان حكمته في وصاياه التي تكشف عن خبرة وتجربة كبيرة أساسها الصبر على الحوادث لأن الزمان دائم التبدل لا يدوم على حال، يقول:

بنيَ إذا ما سامـك الـذل فاهِـر عزيز فَبعض الـذل أبقَى وأحرز
ولا تَخْـز مِن بعض الأمور تَعززاً فَقَد يورثُ الـذل الطويلَ التّعزز [٥]

ويظهر الصبر جليا في ثبات عروَة بن الوَرد على ما سيلقى، فلا يشتكي مما جرت الحرب، ولا يجزع من حوادث الدهر، ولا هو أهوج مندفع دون عقل أو ترو، يقول:

فَلا أنَا مِما جرتِ الحرب مشْتَـكٍ ولا أنَا مِما أحدثَ الدهر جـازع

---

[١] البصري، الحماسة البصرية، ج٢، ص٣٧٨-٣٧٩.(الخز والديباج:أنواع من الأقمشة، الشزات:الشئ اليابس).

[٢] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٢٩٧.(القرة: البرد، الهشيم: النبت اليابس المتكسر، أنف رثيم: مشقوق يقطر الدم منه، الأشيم: وهو من الدواب الذي به شامة).

[٣] المصدر نفسه، ٤م، ص٢٠٢-٢٠٣.(الجريرة: الجناية).

[٤] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص١١-١٢.(تَوارى: تستر).

[٥] هارون، عبدالسلام، (١٩٩٢). مجموعة المعاني، (ط١)، ج٢، بيروت، دار الجيل، ص٧٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بصري عِند الهياج بِطامِـحٍ كأني بعير فارقَ الشـولَ نَـازِع [١]

أما الشّنْفَرَى فإنه يكثر من الصبر على نفسه وعلى حاجاته، فيكشف لنا صبره الشديد على الجوع وحاجته للطعام، يقول:

أُديم مِطَـالَ الجـوعِ حتّى أُمِيتَـه وأضرِب عنْه الذكْر صفْحاً فأُذْهلُ
وأغْدو على القُوتِ الزهِيدِ كما غَدا أزل تَهـاداه التنَـائِـفَ أَطْحـلُ
غَدا طَاوِياً يعارِض الريـح هافِيـاً يخُوتُ بأذْنَابِ الشعابِ ويعسِـلُ
فَلَما لواه القـوتُ مِن حيثُ أَمـه دعـا فَـأَجابتْـه نَظَائِـر نُحـلُ [٢]

بل إن صبر الشّنْفَرَى وجلده يكاد يظهر في كل تفاصيل حياة الصعلكة التي عاشها، ومنه ما نرى في صبره على الهموم التي تعوده دوما، يقول:

وإلْفُ همـومٍ مـا تَـزالُ تَعـوده عِياداً كَحمى الربعِ أو هِي أثْقَـلُ
إذا وردتْ أصـدرتُهـا ثـم إنّهـا تَثُوب فَتَأتي مِن تُحيتُ ومِن علُ [٣]

كما تفاخر الصعاليك بصبرهم وثباتهم على الخطوب العظيمة والأهوال، فنجد تَأبطَ شَراً يرسم صورة لبطولته يظهر فيها الصبر على الخطب العظيم، وشدة البأس والقوة، وقلب شجاع جِلِد على الوقائع، يقول:

ألا هـلْ أتَى الحسنَـاء أن حلِيلَهـا تَأبطَ شَراً واكْتَنيـْتُ أبـا وهـبِ
فَهبـه تَسمي اسمِي وسمانِي اسمه فَأين لَه صبرِي علَى معظَمِ الخَطْبِ؟
وأيـن لَه بـأْس كَبأسِي وسورتِي؟ وأين لَـه في كُـل فَـادِحةٍ قَلْبِي؟ [٤]

ونراه يسأل نفسه عن الصبر فيقول:

ألَـم تَشِل اليـوْم الحمولُ البواكِـر؟ بلَى فاعتَرفْ صبراً فَهلْ أنتَ صابِر؟ [٥]

وأعظم الصبر عند الصعاليك ما كان صبرا على مصيبة الموت إذا ما حلت بهم وفقدوا بعض الأحبة والأصحاب كما يظهر لنا في تصبر أَبِي جنْدب الهذَلِي، يقول:

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨٤.(الهياج: الحرب، طامح: مرتفع، الشول: النوق، نازع: مشتاق).

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٦٣-٦٤.(أذهل: أنسى، الهافي: الذي يذهب يمينا وشمالا من شدة الجوع، يخوت: ينقض، الناحل: الهزيل).

[٣] المصدر نفسه، ص٦٨.(الإلف: الاعتياد، أصدرتها: رددتها، تثوب: تعود).

[٤] تأبط شرا، الديوان، ص٦٤-٦٥.(هبه: أحسبه، السورة: الحدة، الفادحة: النازلة الشديدة).

[٥] المصدر نفسه، ص٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَلهفَى على عمرو بن مرةَ لهفَـةً ولهفَى على ميتٍ بِقَوسى المعاقِـل
فَقَدتُ بِنِـى لُبنَى فَلَمـا فَقَدتُهـم صبـرتُ فَلَم أَفْطَـع عليهم أَباجِلِى
رماح مِن الخَطـي زرقٌ نِصالُهـا جِـداد أعالِيهـا شِـداد الأَسافِـل [١]

ومن مظاهر الصبر التي عبر الصعاليك عنها أيضا في شعرهم الصبر على قسوة الحياة، وظروفهم المعيشية الصعبة في بيئة اتسمت في كثير من الأوقات بالقسوة، يقول أبو كَبِير الهذَلِي:

ولَقَد صبـرتُ على السمومِ يكُنِنى قَـرد على الليتَيـن غَير مرجـل
صديان أَخْذَى الطرفِ فِى ملْمومةٍ لـون السحـابِ بِها كلَون الأَعبل
مستَشْعِراً تَحتَ الـرداءِ وشَاحـةً عضبا عَموض الحـد غَير مفَـلل [٢]

ونخلص إلى القول إن الصبر كان من صور البطولة المثلى التي استعان بها الصعاليك كثيرا، وظهر الصبر عندهم في نواح عدة، فقد صبروا على النوائب والحوادث، وصبروا على فقد الأحبة، وصبروا على فراق المحبوبة، وصبروا على حياة الشظف والقلة، وصبروا على البيئة التي ألقت قسوتها عليهم، وصبروا على كل حال من أحوالهم.

ونخلص كذلك إلى أن هذا الصبر كان مبعث فخر واعتزاز في نفوسهم، وظهرت تجلياته كما عرضنا في كثير من أشعارهم بشكل صريح مباشر، وأحيانا يفهم ضمنيا في إطار الحديث العام عن تلك البطولات.

بطولة العفة

العفة خلق حميد افتخرت به العرب منذ القدم كغيره من الأخلاق التي سبق بيانها، وتفاخر به الرجال والنساء على حد سواء، وتناقلت كتب التراث والأمثال الكثير من القصص والأخبار التي تدلل على العفة والسمو الخلقي.

قد نجد في بعض الأحيان تداخلا بين صور البطولة المثلى التي نعرضها وهو أمر متوقع ولا يعنى عدم وجود فواصل وإن كانت أحيانا دقيقة بين تلك الصور، بل نضيف إن هناك صورا كثيرة قد تبدو جزئيات تكمل الصورة العامة للبطولة، وهذا أمر متوقع إذ لا يمكن أن نتصور أن

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٤٦.(الأباجل: عروق في اليدين).

[٢] المصدر نفسه، ٣م، ص١٠٧٨.(قرد: يقصد شعره الملبد، الأعبل: مكان مليء بالحجارة، ملمومة: هضبة مدورة، العضب: القاطع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البطولة تكمن في قوة الفتك وحده، أو في الصبر منفردا، أو في الكرم، أو في الحزم، بل إن البطولة الحقيقية تقوم على تعدد المناقب، وكثرة الخصال.

وتظهر العفة صورة من صور البطولة المثلى التي حرص الشعراء الصعاليك على التحلي بها، بل وإظهارها لتنسجم مع البطولات التي سبق أن تفاخروا بامتيازها، ولن نتوسع في عرض صورة هذه البطولة التي قد تُفهم ضمنا في كثير من النماذج التي سبق عرضها في صور البطولة السابقة، ونقف هنا على بعض النماذج التي تدلل على هذه البطولة.

يظهر تعفف مَالِك بن حَريم في حيائه من أن يسير في طريق لا يوصل للمجد، ويكرم نفسه بالترفع عن كثير من الأمور التي قد تجلبها عليه شهوات النفس، يقول:

وإني لأستَحيي مِن المشْي أبتَغِـي إلى غَير ذي المجدِ المؤَثل مطْمعا
وأُكْرِم نَفْسي عن أُمـورٍ كثيـرةٍ حِفاظـاً وأنْهى شُحها أن تَطْلعـا [1]

ويعف مَالِك بن حَريم نفسه عن أن يلحق بها الأذى والعار بصونها عن كل ما من شأنه أن يشينها من الأمور التي لا تنفعه، ويرى في كثرة الكلام، أو الزيادة عليه سبيلاً إلى إلحاق الأذى به، وقليل الذم عند الرجال أمر عظيم، يقول:

وما أَنَا لِلشّيءِ الذِي هـو نَافِعِـى ويغضـب مِنْه صاحِبِـي يِقُـول
يِزَاك أوصلِـي حريـم بن مـالكٍ فَـإن قَلِيـلَ الـذم عَيـر قَلِيـل [2]

ويعف الأَحَيمِر السعدِي لسانه عن فحش القول، والإكثار من الكلام، ويرى المكثار يسر في مسلك قد لا تحمد عقباه، يقول:

من القول ما يكفي المصيب قَلِيلـه ومِنْه الذِي لا يكْتَفِي الدهر قَائِلُـه
يصـد عن المعنَى فَيتْـرك ما نَجا ويذْهب فِي التّقصِير منه يطَاولُـه
فَلا تَكُ مِكْثَـاراً تَزيد علـَى الـذِي عنيتَ بِه فِي خَطْبِ أمرٍ تُزاولُـه [3]

---

[1] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٣.(المجد المؤثل: المجد المتمم المحسن).

[2] ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى، (ت٢٩١هـ). قواعد الشعر، ط١، (شرحه وعلق عليه محمد عبدالمنعم خفاجى)، الدار المصرية البنانية، القاهرة، ١٩٩٦، ص٦٥.

[3] ابن رشيق، أبو علي الحسن، (ت٤٥٦هـ). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط٣، ١م،(تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٤، ص١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعف عروَة بن الوَرد عن استراق النظر إلى جارته، فلا يستغل رياحا أو حالا من شأنه أن يكشف سترها، يقول:

وإن جـارتي ألوتْ رياح بِبيتِها ... تَغَافَلْتُ حتى يسـتُر البيتَ جانِبه [١]

وكذلك يعف عروَة عما في أيدي أصحابه، فلا يستكثر من طلبهم في اليسر، ويبتعد عن سؤالهم في حال الضيق، يقول:

بلْ لا أُكاثِر صاحِبي في يسـرِه ... وَأصـد إذْ في عيشِهِ تَصـريد [٢]

ويتحدث الشّنْفَرَى عن عفته وترفعه مؤكدا أنه ليس جشعا ولا نهما، فلا يعجل إلى الطعام، وكثيرا ما يعف عن الزاد مع الجوع حتى لا يجد أحدا يتفضل عليه، يقول:

وإن مدتِ الأيدِي إلى الزادِ لم أكُن ... بأعجلِهم إذْ أجشَع القَـومِ أعجـلُ
وما ذاك إلاّ بسطةٌ عـن تَفَضـلِ ... عليهـم وكان الأفْضـلَ المتَفَضـلُ
وأغْدو خَمِيص البطْن لا يستَفِزني ... إلى الزادِ حِرص أو فُؤاد مـوكلُ [٣]

وعن عفة الشّنْفَرَى يقول تَأبطَ شَراً:

فَضى نَحبه مستَكْثِراً مِـن جمِيلِهِ ... مِقلا مِن الفَحشَاءِ، والعِرض وافِـر [٤]

ومن المظاهر التي تدل على عفة الأبطال الصعاليك، إعجابهم بالنساء العفيفات، فكثيرا ما تغنى الصعاليك وامتدحوا عفة الحريم والنساء اللواتي عرفنهم، فكانت أعظم النساء من تعف نفسها، ولا تلحق بأبيها وأخوتها وقومها عارا، يقول السلّيك بن السلكة في هذا السياق:

لعمـر أبيـك والأنبـاء تَنْمِـي ... لَنِعم الجـار أُخْـتُ بنِي عـوارا
مِن الخَفِراتِ لم تَفضـح أَباهـا ... ولـم تَرفـع لإخـوتِهـا شَنَـارا
كـأن مجـامِـع الأردافِ مِنهـا ... نَقى درجتْ عليـهِ الريـح هـارا
يعافُ وصالَ ذاتِ البَـذْل قلبـي ... ويتبِـع الممنعـةَ النـوارا [٥]

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص٩٢.(ألوت: ذهبت).

[٢] المصدر نفسه، ص١١٥.(تصريد: قلة).

[٣] الشنفرى، الديوان، ص٥٩-٦١.(الجشع: شدة الحرص).

[٤] تأبط شرا، الديوان، ص٨١.

[٥] السليك بن السلكة، الديوان، ص٧٤-٧٥.(الخفرة: الحياء، الشنار: العيب والعار، النقى: الكثيب من الرمل، المرأة النوار: النافرة من الشر والقبيح).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمدح الشّنفَرَى محبوبته أميمة، ويتغنى بعفتها، وأخلاقها الكريمة، ويبين أنها تختلف عن كثير من النساء، فلا خزي ولا عار في ذكرها، ولها في حديث العفة بين النساء والرجال مكانة رفيعة، ولا يسألها بعلها حين يعود أين كانت؛ لثقته العظمى بها، يقول:

فَوا كبِـدا علـى أُميمـةَ بعدمـا ... طَمِعتُ فَهبها نِعمةَ العيش زلـتِ

فَيا جارتِـي وأنْتِ غَيـر مِليمـةٍ ... إذا ذُكِـرتْ ولا بِـذَاتِ تَـفَـلـتِ

لقَد أعجبتْنِي لا سقُوطاً فِنَاعهـا ... إذا ما مـَشَتْ ولا بِذَاتِ تَلَـفـتِ

تَبِيتُ بعيـد النومِ تُهدِي غَبوقَها ... لِجـارتِـهـا إذا الهدِيـةُ قَـلـتِ

تَحل بِمنْجاةٍ مِـن اللّـَومِ بيتَهـا ... إذا ما بيـوتٌ بالمـذَمـةِ حلـتِ

كأن لها في الأرض نِسياً تَقُصـه ... على أُمهـا وإن تُكـلمـك تَبلـتِ

أميمةُ لا يخزي نَثَاهـا حلِيلهـا ... إذا ذُكِر النّسـوان عفـتْ وجلـتِ

إذَا هـو أمسى آب قُـرةَ عينِـهِ ... مآب السعِيـدِ لم يسلْ: أين ظَلـتِ [1]

وكغيرها من صور البطولة المثلى، ارتبطت بطولة العفة ارتباطا وثيقا بالصعاليك، لحرص منهم على ألا تنتشر عنهم الأخبار التي تسيء إلى ذكرهم ، ولتقديرهم لهذا الخلق الذي يعد عند العرب من كرام الأخلاق.

بطولة الوفاء

وعكس الوفاء الغدر والخيانة، ويصعب أن نسمي من لم يتصف بالوفاء بطلا وإن كان أشجع الناس وأشدهم فتكا، وقد حفظ لنا التاريخ أخباراً عديدة دارت حول الأوفياء الذين ضحى كثير منهم بأغلى ما يملك في سبيل وفائه.

وللوفاء أشكال وأنماط عديدة، فمنها ما يكون في الوفاء للمستجير، وطالب النصرة، والوفاء للفضل وصاحبه، وحفظ المعروف والأعراض، بل إن من العرب من حفظ السباع والكواسر والهوام، وقِيل دخولها في حماه، وانتصر لها من أعدائها. وكان التكافل الذي قامت حياة الصعاليك على جوانب منه يستدعي منهم الوفاء والإخلاص – لبعضهم على الأخص - بعد أن قل الرفاق، وتكاثر الأعداء.

[1] الشنفرى، الديوان، ص٣٢-٣٣.(ذات ثقلت: ذات بغض، النسي: ما يسقط من الإنسان وهو لا يدري، تبلت: تنقطع في كلامها).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد مَالِك بن حَريم في الحديث عن مناقبه، وأفعاله الحميدة يبين وفاءه لنساء الحي وجاراته اللواتي غاب عنهن الرجال، يقول:

فَإن يك شَاب الرأس مِني فَإنني ... أبيتُ على نَفْسِي مناقِب أربعا

....

وثَالِثَةٌ: أن لا تُقَذع جارتِي ... إذا كان جار القَومِ فيهم مقذعا [١]

بل ويسعى جاهدا بكل ما أوتي من عزم وقوة ليأخذ الحق للضعاف إذا ما أمتنع أهل القوة عن الوفاء لهم بحقوقهم، يقول:

وآخُذُ للمولى إذا ضيم حقه ... مِن الأعيطِ الآبِي إذا ما تَمنعا

وإني لأعدي الخَيلَ تُقْدع بِالقَنا ... حِفاظاً على المولى الحريدِ لِيمنَعا [٢]

ويذهب مَالِك بن حَريم إلى أبعد من ذلك حين نجده في الخبر الذي روي عن أعشى همدان[٣] يمنع ثعبانا ويحميه بعد أن دخل إلى خباء مالك وأصحابه يطاردونه يريدون قتله، فيقسم عليهم أن يكفوا عنه، ثم ينساب الثعبان ويذهب، فيقول مالك:

وأوصاني الحريم بِعِزّ جارِي ... وأَمنَعه وليس بِه امتناع

وأدفَع ضيمه وأذُود عنه ... وأَمنعه إذا امتنع المناع

فِدى لكُم أَبِي عنه تَنحوا ... لأمر ما استَجارِ بِي الشّجاع

ولا تَتَحمّلُوا دم مستَجيرٍ ... تَضمّنَه أُجيرةُ فالتِّلاع

فإن لِما تَرون خَفِيّ أَمرٍ ... له مِن دون أَمركُم قِنَاع [٤]

ويتغنى قَيس بن الحِدَادِية بقومه خزاعة ويفخر بعلو نسبهم بين الناس، ويتباهى بوفائهم للمستجير بهم لو استجار الدهر كله، يقول:

خُزاعةُ قَومي فَإن أفْتَخِر ... بهم يزك معتَصري والنسب

هم الرأس والناس من بعدهم ... ذُنابى وما الرأس مثلُ الذنَب

يواسى لدى المحل مولاهم ... وتُكْشَفُ عنه غُموم الكُرب

---

[١] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٤.(تقذع جارتي: يفحش عليها).

[٢] المصدر نفسه، الأصمعية رقم(١٥)، ص٦٤.(الأعيط: المشرف المرتفع، الآبي: المتكبر، الحريد: المعتزل عن القبيلة لذلته وقلته).

[٣] الحموي، معجم البلدان، ١م، ص١٠٦.

[٤] المصدر نفسه، ١م، ص١٠٦.(أذود: أدافع، أجيرة والتلاع:مواضع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَجـ ـارهـم آمـ ـن دهـ ـره بِهـم أن يضـام وأن يغْتَصـب [١]

وقال في السياق ذاته:

وقـد حدِبت عمـرو علىَ بِعِزها وأبنائِها من كل أروع مـَ ـاجِدِ
مصاليتُ يوم الروع كسبهم العلا عِظام مقيل الهامِ شُعر السواعِدِ
أُولئِك إخْـواني وجـل عشيرتي ونَّروتُهم والنصر غير المحارِدِ [٢]

ونجد قَيس بن الحِدَادِية من أوفى الناس إلى المحبوبة التي تبكيه شوقا، وتفتديه بأهلها، فيؤكد لها أنه باقٍ على الوفاء لها، ومحافظ لعهد الود الذي بينهما، يقول:

يحث بِهم حادٍ سريـع نَجـاؤُه ومعرى عن الساقَين والثوب واسِع
فَقُلْتُ لها يا نُعم حلـي محلنـا فَإن الهوى يا نُعم والعيشَ جامِـع
فَقَالَتْ وعيناها تَفيضان عبـرةً: بِأهلِـي بين لي متَـى أنْتَ راجِـع
فقُلْـتُ لها: تَاللهِ يدري مسافِـر إذا أضمرتْه الأرض ما اللهُ صانِـع
فَشَدَتْ على فِيها اللثام وأعرضتْ وأمعن بِالكُحل السحيـق المداوِمـع
وإني لِعهـدِ الود راعٍ وإنِـي بِوصالِك ما لم يطْوني الموتُ طَاوِمـع [٣]

ويؤكد الأُحَيمِر السعدِي على وفائه من خلال نفيه الاتصاف بالغدر والخيانة، حتى أن الذئب المفترس يألفه ويدنو منه آمنا؛ فالأحَيمِر وفي لا يغدر من يأتمنه، فإن كان لا يغدر بذئب فكيف يستقيم أن يغدر بالناس ؟ يقول:

أرانِي وذِئْب القَفْر إلْقَين بعدمـا بدْأنـَا كِلانـَا يشْمِئـز ويذْعـر
تَـألّفَنِـي لَمـا دنَـا وَألِفْتُـه وَأمكنَنِي للرمي لو كُنْتُ أغْـدِر
ولكِنِني لم يـأْتَمِنّـي صاحِـب قَيرتـاب بي مـا دام لا يتَغَيـر [٤]

وهذا أبو الطمَحَان القَيني يتحدث عن غدر قوم بمن استأمنهم، وينفي عن نفسه أن يكون فيه شيء غير الوفاء، يقول:

أَجد بني الشّرقـيّ أوِلـعُ أنِني متَى أستَجِر جاراً وإن عز تَغْدر

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص١٤٧-١٤٨.(يزكو: ينمو، المحل: الجدب، المولى: الحليف).

[٢] المصدر نفسه، ج١٤، ص١٥١.(حدبت:عطفت، المصاليت: الماضون في الأمر، مقيل الرأس: مستقر الرؤوس،المحادر: المنقطع).

[٣] المصدر نفسه، ج١٤، ص١٥٥.(النجاء: السرعة في السير، أمعن: جرى، السحيق: المسحوق).

[٤] ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٧٢.(الإلف: الصاحب أو الصديق، يرتاب: يدخل الشك إلى نفسه).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا قُلتُ أوفى أدركَتْـه دروكـةُ فيا موزع الجيران بالغَيّ أقْصِر [١]

وقال يمدح قوما بالوفاء للجار:

فكَم فيهـم من سيّدٍ وابن سيدٍ وفي بِعفْدِ الجار حين يفارقُـه
يكاد الغَمام الغُر يرعد أن رأى وجوه بني لأمٍ وبنْهل بارقُـه [٢]

والوفاء عند عروَة بن الوَرد يظهر في إخلاصه لكل صاحب فضل وسيادة مؤكدا أن هذا الوفاء سيبقى عنده حتى الممات، لا يثنيه عن ذاك قول من قائل، يقول:

لِكـل أُنـاس سيـد يعرفونَـه وسيدنا حتى المـماتِ ربيـع
إذا أمرتْنـي بالعقوق حليلتـي فَلَـم أعصِها إنّي إذاً لمضِيـع [٣]

ويمدح أبو جنْدب الهذَلي أخا له فيتغنى بوفائه وترفعه عن الغدر، يقول:

فَتَأتَ قِتيلاً لا يحالِـفُ غَـدرةً ولا سوءةً لا زِلتَ أسفَلَ سافِلِ [٤]

ويقف أبو جنْدب الهذَلي في قصيدة له وقفة متأنية؛ لتعداد مفاخره، والتغني ببطولته وقوته، مؤكدا على أنه سيبقى على المجد والوفاء حتى يموت، يقول:

من مبلِـغٌ ملائِكـى حبشِيـا أخَـا بنِـى زليفَـةَ الصبحِيـا
أما تَرونِـى رجـلاً جونِيـا حفَـاج الـرجليـن أفْلجِيـا
سألـوا هذَيـلاً وسألوا عِلِيـا أمـا أسـل الصـارم البصريا
حتى أمـوتَ ماجِـداً وفِيـا إذَا رأيـتُ جـارنَـا مغْشِـيا [٥]

ويظهر وفاء أبي جنْدب الهذَلي في بكائه على بعض جيرانه، يقول:

إنى امرؤٌ أبكِي على جاريـه أبكِـى على الكعبِى والكعبِيـه
ولـو هلكْـتُ بكيـا عليـه كانَـا مكان الثوبِ مِن حقْويه [٦]

---

[١] الأصفهاني، الأغاني، ج١١، ص١٥٦.

[٢] الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص٣٣٧.

[٣] عروة بن الورد، الديوان، ص١٩٠.(ربيع: ربيع بن زياد أحد أسياد عبس، حليلتي: زوجتي، مضيع: محكوم بالضياع والتلف).

[٤] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٤٧.

[٥] المصدر نفسه، ١م، ص٣٥٠-٣٥١.(ملائكي: رسائلي، بنو زليفة الصبحي: حي من هذيل، جوني: أسود، حفلج:أفجح، أفلجي: قصير).

[٦] المصدر نفسه، ١م، ص٣٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر هذا الوفاء للجار في قصيدة أخرى يقول في أبيات منها :

وكُنْتُ إِذَا جـار دعـا لِمضوفَـةٍ ... أُشَمر حتى ينْصفَ الساقَ مِئْزرِى

فَلا تَحسِبن جارى لدى ظِل مرخَةٍ ... ولا تَحسِبنْـه قَعْـع قَاعٍ بِقَرقـَر

ولكِننِى جمـر الغَضا مِن ورائِـهِ ... يخَفرِنِـى سبقِـي إِذَا لم أُخَفـر [1]

أما أبو خِرَاش الهذَلي فإن الوفاء يظهر عنده في منعه المستجير به وقيامه على حمايته، وبذل القوة والبطولة لهذا الأمر، يقول:

منَعنَـا مِن عدِى بنِى حنَيـْفٍ ... صِحاب مضرس وابنَى شَعوبا

فَأَنْنُوا يابنِـى شِجـع علينَـا ... وحق ابنَى شَعـوبٍ أَن يثِيبـا

فَسائِلْ سبرةَ الشجعِـى عنّـَا ... عَـداةَ تَخَالُنَـا نَجـواً جنِيبـا

بِأَن السلِيـقَ الفِردِى أَلقَـى ... عليهِ الثـوب إِذْ ولـى رِيبـا

ولولا نَحن أَرهقَـه صهيـب ... حسام الحـد مذُروباً خَشِيبـا

بِهِ نَـدع الكمِـى على يديـهِ ... يخِـر تَخَالُـه نَسـراً قَشِيبـا [2]

ويكشف لنا أبو خِرَاش الهذِلي أن الوفاء مرتبط بالحزم والإرادة، وأنه ما قال قولا إلا ووفى به، وهذا هو مذهب أهل الحزم، يقول:

وكنْتَ إِذَا ما قُلْتَ شَيئاً فَعلتَه ... وفت بِذَاك الناس مجتَمِع الحزمِ [3]

والوقوف على بطولة الوفاء عند الشعراء الصعاليك أمر كبير ومرتبط بالعديد من الصفات البطولية المثلى التي فضلنا أن نفرد لها حديثا منفصلا عن الوفاء، ولا عجب في هذا الارتباط إذا ما تحقق لدينا استحالة وجود بطل لا يملك بطولة الوفاء.

بطولة الحلم

مع أن كثيرا من الصعاليك قد تغنى بشدة بطشه بأعدائه، وعبر عن شدة فتكه، إلا أن كثيرا منهم أظهروا الحلم، ودللوا على حوادث تثبت حلمهم، فمنهم من أبدى حلمه على من جهل عليه من قومه، أو إخوانه، أو المرأة – أيا كان صفتها -، أو حتى مع أعدائهم.

---

[1] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٥٨.(المرخة: شجرة صغيرة ظلها قصير جدا، القفع: ضرب من الكمأة، قرقر: أرض صلبة يكون فيها القفع).

[2] المصدر نفسه، ٣م، ص١٢٠٦-١٢٠٧.(النجو: السحاب، المذروب: الحديد، الخشيب: الصقيل).

[3] المصدر نفسه، ٣م، ص١٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحلم من الأخلاق والصفات التي تأتي بالطبع، ويصعب على المرء أن يتكلفها، ذلك أنها تظهر في مواطن الإساءة، ومقابلة للجهل والسفاهة، وكان الحلم من البطولات التي اهتم بإظهارها الصعاليك.

ومن الذين افتخروا ومدحوا بالحلم مَالِك بن حَريم، يقول :

ومِنا رئِيس يستَضاء بِنُورِهِ سناء وحِلماً فيهِ فَاجتَمعا معاً [١]

وكثيرا ما تحدث الصعاليك عن حلمهم وأظهروا أسباب هذا الحلم كي لا يعده البعض ضعفا منهم، وفي هذا يقول حَاجِز بن عَوف:

أبا ثورِ سجـاح فإن دعـوى نُخَالِفُ ما أبيتَ عصِيم عـار
فَلولا أن تَدارك جري صهوي كُلُـوم مِنْـلُ غائِلَـةِ النّفـار
لَـرد إليك شـاكِلَـةً بتيـراً حسام غَيـر مستلـمٍ قُطـار [٢]

وكثيرا ما كان الحلم يعد دليلا على بعد النظر عند الصعاليك، وحسن التبصر بعواقب الأمور، كأن يدخره بعضا ليوم تدور في الدوائر، وتتبدل الأحوال، وفي ذلك يقول حَاجِز بن عَوف:

وإنّي لأستَبقِـي إذَا العسر مسنِـي بشَاشَةَ وجهي حِين تُبلى الطّبائِـع
فَأعفِي ثَرى قَومِي ولو شِئْتُ نُولوا إذا ما تَشَكّى الملحفُ المتَضـارع
مخَافَةَ أن أفْلِي إذَا جِئْـتُ زائِـراً ونُرجِعني نَحو الرجـال المطامِـع [٣]

وأولى الناس بالحلم عند الصعاليك ذوو القربى، والأرحام، ومنه الصبر على ما في نفوسهم، واجتناب استثار العداء، والعفو خير وأبقى، يقول أبو الطمَحَان القَيني:

إذَا كـان فِي صدر ابن عمك إحنَـةٌ فَلا تَستَثِرها سوفَ يبدو دفِينُهـا
وإن حمأةَ المعروفِ أعطَاك صفْوها فَخُذْ عفْوه لا يلتَبِس بِك طِينُهـا [٤]

وخير الأمور، وأكرمها عواقب ما كان رأي الحليم فيها مقدما على كلّ رأي، والتبصر بها مفتاح الظفر، وفي ذلك يقول عروَة بن الوَرد:

---

[١] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقو(١٥)، ص٦٦.

[٢] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٣٠٣.(عصيم عار: بقيت عار عليه، غائلة: داهية، شاكلة: مماثلة).

[٣] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، (ت٣٩٥هـ). ديوان المعاني، ج٢، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص٢٢٨

[٤] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص١٥.(الإحنة: الحقد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبلغْ بني عوذٍ بن زيدٍ رسالـةً ... بِآيةِ مـا إن يفْصِبوني يكْذِبـوا
فَإن شِئْتُم عني نَهيتُم سفيهكُـم ... وقَالَ له ذو حِلمِكُم : أين تَذْهب؟
وإن شِئْتُم حاربتُموني إلى مدى ... فَيجهدكُم شأْو الكِظَاظِ المغَـرب
فَيلْحقُ بِالخَيراتِ من كان أَهلَها ... وتَعلم عبس رأس من يتَصـوب [1]

ونجد الفارس الشديد تَأبطَ شَراً يتحدث عن حلمه، وعفوه، وصبره على الأذى الذي طاله، ويبين أنه يترفع عن اللجاجة في الجهل، ويدخر ما عنده من أسباب لعلمه بأنه غير عاجز، ولا ضعيف، ويقدر على الانتصار لنفسه، يقول:

ولمـا أبـى اللئِـيم إلاّ انتِهاكَنَـا ... صبرتُ وكان العِرض عِرضِي أوفَرا
فَقُلْـتُ له : حـق الثنَـاء فإننِـي ... سأَذْهـب حتى لـم أجِـد متأخـرا
ولمـا رأَيتُ الـجهلَ زاد لجاجـةً ... يقُـول قَـلا يـألُـوك أن تَتَـشَورا
دنَـوتُ له ...حتَّى كـأن قَميصـه ... تَشَرب مِن نَضـج الأَخَادِع عصفُرا
فَمن مبلِغٌ ليثَ بـن بكْـرٍ بأننـا ... تركْـنا أَخاهـم يوم قَـرن معفـرا [2]

ولم تكن البطولة تعني السعي وراء الحروب والقتال إن لم يكن لها بد، ولم يدفع إليها أمر جلل، بل إنهم عرفوا أن للحرب ويلات وشروراً يكون الحلم في محاولة تجنبها، ومن البطولة الحقيقية محاولة السعي لوقف الحرب لا إشعالها وعلى الأخص إن كانت بين ذوي القربى والأرحام، يقول قَيس بن العَيزَارَة في هذا المقام:

مهلاً أبا سفْيـان لسـتَ بِجاهِـلٍ ... فَـلا تَبعثَـن حربـاً أراك تَؤُومهـا
تُلام وتُلْحـى يوم تَفْتـُلُ عصبـةٌ ... وتَرجِـع أُخْـرى لا تَفِـر كُلُومهـا
وأُرسِـلُ فُوقـاً يعثُر القَوم تَحتَـه ... كما تَعثُـر النحـزى إذا ما نُقِيمهـا
بنـي كاهِـلٍ لا تُنْغِلـُن أديمهـا ... ودع عنْك أقْصى ليس مِنْك أَدِيمهـا
فَدعنا ونَحصي حولَ بيتِك بِالحصى ... ونَلْخـاك ألفاً نَفْس سلمى زعيمهـا
حمِدتُ بني عمرٍوعلى أن تَصالحوا ... وإنـي سألحـى كاهِـلاً وأَلومهـا
فَحرب الصديق تَتْرك المرء قائِمـاً ... يطَـل يسـل نَبلَـه ويشِيمهـا

---

[1] عروة بن الورد، الديوان، ص٨٣-٨٥.(يقصبوني: يشتموني، الشأو: الشوط، الكظاظ: الشدة والتعب، المغرب: البعيد المنال، يتصوب: ينكس).

[2] تأبط شرا، الديوان، ص١٠١-١٠٣.(يألوك: يقصر، يتشور: يخجل ويستحي، الأخدعان: عرقان في جانبي العنق، العصفر: نبات أحمر يشبه الدم، قرن: اسم موضع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسِلام الصديـق ولِيـلٌ ومسيلـه ومرعـاه وادٍ لا يفَجـى عمِيمهـا [١]

وكثيرا ما مدح الصعاليك وفخروا بالحلم، ومن أولويات الحلم عندهم أن يحلم ذوو العقول والنهى على ذوي الجهالة وإخوانها، يقول أبو خِرَاش الهذَلي:

يعود على ذِى الجهل بِالحِلمِ والنهى ولم يك فَحاشاً على الجار ذَا عذْمِ

ولـم يـك قَطـا قاطِعـا لِقَرابـةٍ ولكِن وصـولاً لِلقَرابـةِ ذَا رحـم

وكُنْتَ إِذَا ساجرتَ مِنْهم مساجِـراً صفَحتَ بِفَضلٍ فِى المروءةِ والحِلْم [٢]

وأجمعت العرب على أن الحلم من القوي دليل قوة، ولم يكن يوما يعنى الضعف أو الخوف، وقلة من الرجال هم أولئك الذين يقدرون على الجمع بين الشدة والحزم والحلم عند الخطوب، ولم تقتصر صور البطولة المثلى التي ظهرت في أشعار الصعاليك على ما سبق رصده، وإن كان ما سبق أبرزها.

لم يكن من السهل الفصل المطلق بين البطولات السابقة فصلا تاما، وهنا ظهر تداخل كثير منها في بعض القصائد والمقطعات، وهذا أمر يعزى للحرص الذي أظهره الصعاليك على رسم الصورة المثالية، والغاية في البطولة التي تصدت الدراسة للوقوف عليها، فجاءت مكملة لبعضها، مجتمعة في أحيان كثيرة.

---

[١] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٢م، ص٦٠٥-٦٠٦.(تؤومها: تسومها، الذوق: الرشق، نلخاك: نوجرك، زعيمها: كفيلها، لا يفجي: لا يفرج، عميمها: عشب طويل).

[٢] المصدر نفسه، ٣م، ص١٢٢٤.(ذا رحم: ذا رحمة، ساجرت: خاللت).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني: الخصائص الفنية لشعر البطولة عند الصعاليك في الجاهلية

تكاد الخصائص الفنية والأساليب اللغوية لشعر البطولة عند الصعاليك تتوافق مع النمط العام لخصائص الشعر الجاهلي الفنية ككل، وتكاد تنسحب على خصائص شعر الصعاليك جميعه، و"قد أُعجب ذواقو الشعر بقصائد الصعاليك، وحرارة صورها الفنية وجزالة أسلوبها، وصدق تجربتها" [١]، إلا أن هناك بعض الصفات الفنية التي تحمل ارتباطات وثيقة بالبطولة والغالب فيها أن تكون "محسوسة أو مدركة إدراكا عقليا يسيرا " [٢]، ويبدو لنا ضرورة الإشارة إليها والوقوف السريع على أبرزها، ونؤكد مجددا أنهم "كانوا يتمسكون بكثير من صفات البطولة والشهامة" [٣]، فالذي ننظر فيه هنا هو الخصائص الفنية لتلك القصائد والمقطعات الشعرية التي نصطلح عليها اسم "شعر البطولة"، وسنقتصر على أبرز تلك الخصائص ونتخذ من تلك التي شاعت في الشعر العربي الجاهلي، وتاليا أبرزها:

اتجاه التصوير الواقعي

لم يجنح الشعراء الصعاليك في أشعار ومقطعات البطولة كثيرا نحو الخيال، أو التأمل، فأشعارهم كانت واقعية، يصف فيها الشاعر الوقائع التي خاضها، فيبدأ بالتصوير الواقعي مكانيا وزمانيا، فتتردد أسماء الأماكن التي تردد عليها ويجهد في بيان صفاتها، ويجعل الشاعر منها شاهدا على أفعال البطولة التي قام بها، وتسجيلا لمآثره، ويقرن الرصد المكاني بجانب واقعي آخر يتمثل في الزمان، فنجد الزمان بتفاصيله، وتقاسيمه يحضر حضورا مؤثرا ومكملا لصورة البطولة التي يلح عليها الصعاليك في كثير من أشعارهم ومقطعاتهم.

وهذا الإلحاح على البطولة وإثبات الذات هو ما يفسر لنا كثرة ورود أسماء الأماكن، من جبال، وشعاب، ووديان، وكهوف، ومغاور، ومفاوز، وعيون ماء، وغيرها، كل ذلك في الإطار الزمني لمختلف فترات اليوم والليلة، فظهرت شمس الظهيرة الحارقة، وساعات الصبح الأولى، وذكرت الليالي الظلماء الباردة بهدف يكمن داخل الصعلوك يتمثل في التأكيد على فعل البطولة الذي يفخر به الصعلوك، ونفي احتمال الشك في صحة الخبر الذي ينقله الشاعر عن تلك البطولة، يقول الشَّنْفَرَى:

---

[١] الصائغ، الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، ص٣٩١.

[٢] هدارة، محمد، (١٩٨٥). الأدب العربي في العصر الجاهلي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ص٥٢.

[٣] الجندي، علي، (١٩٩١). في تاريخ الأدب الجاهلي، (ط١)، المدينة المنورة، مكتبة دار التراث، ص٤٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإن لا تَزرِني حتْفَتي أو تُلاقِني ... أُمش بِدهـرٍ أو عِـدافٍ فَنَـورا
أُمشي بِأطـرافِ الحماطِ وتَـارةً ... ينَفض رجلِـي بسبطاً فَعصنْصرا
أُبغي بِني صعبِ بن مر بلادهـم ... وسـوفَ أُلاقِيهـم إن اللهُ أخـرا
ويوماً بِذَاتِ الرس أو بطْن مِنْجلٍ ... هنَالِك نَبغِـي الفاصِي المتَغَـورا [١]

إن الأبعاد الواقعية التي تعج بها الأبيات السابقة تعود لذاك الحشد من أسماء الأماكن التي اتصلت بأفعال البطولة التي يبديها الشاعر، بل كثير من تلك الأماكن حافظت على خلودها عبر الرصد الشعري لها، ويقول عروَة بن الوَرد:

فَيوماً على نَجدٍ وغَاراتِ أَهلِهـا ... ويوماً بِأرضٍ ذاتِ شَث وعرعـر
ينَاقِلُن بالشمطِ الكِرام أُولي القُوى ... نِقاب الحِجاز في السريحِ المسيـر [٢]

ونجد السلَيك بن السلَكة يخشى أن تدركه المنية ولم يصل في غاراته لأماكن نائية تبلغ اليمن وبلاد الأزد، يقول:

أَمعتَنِقي ريب المنون ولـم أَرع ... عصافيـر وادٍ بين جَأش ومأرِبِ
وأَذْعـر كـلابـاً يفـود كِلابـه ... ومرجـةُ لمـا أَلتَمسهـا بِمِقْنَـبِ [٣]

ونجد كذلك ذكرا لبعض الأماكن في شعر حَاجِز بن عَوف، يقول:

ولمـا أَن بـدتْ أَعـلام تَـرج ... وقَـالَ الـرائِدَان بـدتْ رئُـوم
وأعرضتِ الجِبالُ السود خَلْفِـي ... وخَينَـفُ عـن شِمالِـي والبهيـم
أَممتُ بِها الطريقَ فُويـقَ نَعـلٍ ... ولـم أُقْسِـم فَتَـربِتَنِـي القُسـوم [٤]

وقد عالَجَت كثير من الدراسات الاتجاه الواقعي في الشعر الجاهلي وفي شعر الصعاليك، كتلك التي قام بها يوسف خليف في كتابه "الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي" حين توقف عند مظاهر الواقعية، وكذلك دراسة عبد الحليم حفني "شعر الصعاليك منهجه وخصائصه"، وغيرها.

---

[١] الشنفرى، الديوان، ص٤٦-٤٧.(دهر وعداف ونوار: أماكن في ديار بني سلامان، الحماط: ضرب من النبت، أسبط وعصوصر: جبلان، القاصي: البعيد).

[٢] عروة بن الورد، الديوان، ص١٥٥.(يناقلن: يقصد فرسه الذي يتقي الحجارة في عدوه، الشمط الكرام: النوق الأصيلة، المسير: فيه خطوط أو سيور).

[٣] السليك بن السلكة، الديوان، ص٦٤.

[٤] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٨م، ص٢٩٦-٢٩٧.(ترج ورتوم وخنيف والبهيم: مواضع، تربثني القسوم: تحبسني).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التنويع في الصور الفنية

أكثر الشعراء الصعاليك من حشد مختلف أنماط الصور الفنية فظهرت الصور اللونية، والسمعية، والشمية، والحركية، وغيرها بأسلوب شعري متناغٍ، وارتبطت هذه الصور في الغالب بمظاهر الحياة وأفعال البطولة التي فاخر الصعاليك بها، ولعل أبرز الحركات التي ظهرت هي حركة العَدو، والخيل، والضرب، والطعان، و ..، في إطار بطولي يظهر شدة الصعاليك وبأسهم، وتفاعلهم مع المحيط الذي عاشوا فيه، وأثروا أو تأثروا بمعطياته كافة .

ومازج شعر البطولة عندهم بين الصور الحركية والصور اللونية بمختلف عناصر اللون ومصادره التي جاءت مكملة لعناصر الصورة الفنية الدلالية، وكثر استخدام الألوان الموحية أو تحولاتها الدالة، ذات الصلة بالفعل البطولي كاللون الأحمر، والأسود، والرمادي، والأبيض، وما اشتق من اللوحة البطولية التي شغلت الصعاليك .

ومن استخدامات اللون المرتبطة بالبطولة قول عَمرو بن بَراقة:

وكيف ينام الليلَ من جـل مالِـهِ حسام كلون الملِـحِ أبيض صـارم
عَموض إذا عض الكريهة لم يدع لـه طَمعـاً طَـوع اليمين مـلازم
ألم تَعلمي أن الصعاليـك نَومهـم قليـلٌ إذا نـام الخَلـي المسلِـم [1]

فالشاعر عندما يحدثنا عن سيفه الذي هو رأس ماله، يحدد له لونا أبيض كلون الملح وهو لون مأخوذ من البيئة التي لم يألفوا فيها شيئا أشد بياضا من الملح، وبهذا السيف الصقيل فقط، يحفظ الصعلوك وجوده .

ويظهر استخدام اللون في التشبيه الذي نراه في قول الشَّنْفَرَى :

خَرجنَا فَلم نَعهد وفلـتْ وصاتُنَـا ثَمـانِيـةٌ مـا بـعـدها متَعتـب
سراحِين فِتْيـان كأن وجوههـم مصابِيح أو لون مِن الماءِ مذْهـب [2]

وتظهر البراعة الفنية عند عروَة بن الوَرد في البناء الشعري الذي يمزج فيه الصور الحركية، والسمعية، واللونية في ذات النص ليشكل لوحة معبرة أقوى تعبير عن فعل البطولة الذي أصبح هاجس الشاعر، يقول:

---

[1] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٤م، ص٢٠٠.

[2] الشنفرى، الديوان، ص٢٧-٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أتَجعـلُ إقدامي إذا الخيلُ أحجمـتْ ... وكـري إذا لم يمنع الدبـر مانِـع
سواء ومن لايقدِم المهر في الوغى ... ومن دبره عنـد الهزاهِـز ضائـع
إذا قِيلَ: يالابن الوردِ أقْبِلْ إلى الوغَى ... أجبـتُ فَلافـانـي كمِـي مقَـارع
يكفـي مِن المأثـور كالملح لونُـه ... حـديثٌ بإخلاص الذُكـورةِ قاطِـع
فَانـزكُـه بـالفـاع رهنـاً بِبلـدةٍ ... تَعـاوره فيهـا الضبـاع الخواضِـع [1]

وتظهر لنا الحركة في (الإقدام / الكر / الخيل / المقارعة ..) الممزوجة بصهيل الخيل ووقع الضرب، ويظهر اللون بشكل متجانس لتكتمل لوحة البطولة التي أراد الشاعر التعبير عنها.

ونجد اللون يرتبط بالسلاح الذي هو أداة البطولة التي يسعى لها الصعاليك، وظهر لنا هذا التوظيف اللوني في قول صَخْر الغَي:

وصـارم أخْـلصـتْ خَشِيبتُـه ... أبيـض مهـو فِـى متْنِـهِ ربـد
وسمحـةٌ مِن قِسِى زارةَ صفْـ ... ـراء هتُـوفٌ عِـدادهـا عَـرد [2]

ونجد صورة لونية فيها طرف وابتكار عند تأبطَ شَراً الذي يصف ضوء الفجر الذي لاح له بالخطوط البيضاء المنتشرة فوق جواد أدهم، يقول:

جزى اللهُ فِتْياناً على العوص أمطرتْ ... سماؤُهـم تَحتَ العجاجـةِ بالـدمِ
وقَـد لاح ضـوء الفَجرِ عرضاً كأنه ... بِـلمحتِـهِ أقْـراب أبلَـق أدهـمِ [3]

ويستخدم السليك اللون ودلالاته ممزوجا بالصوت والحركة في مقطوعة شعرية يفاخر بها في بطولته عندما أغار على إبل، فقتل صاحبها ثم استاقها وصحبه في انتظاره، يقول:

وعـاشيـةٍ رج بِطـانٍ ذَعرتُهـا ... بِصـوتٍ قتيلٍ وسطَهـا يتَسيـفُ
كـأن عليـهِ لـون بـُردٍ محبـرٍ ... إذا مـا أتَـاه صـارخٌ متَلهـفُ
فَباتَ لـه أهـلٌ خـلاء فِناؤهـم ... ومـرتْ بِهـم طَير فَلَـم يتَعيفُـوا
وكانُوا يظُنون الظُنُون وصحبتـي ... إذا ما علوا نَشْزاً أهلوا وأوجفُـوا [4]

---

[1] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨١-١٨٢.

[2] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٢٥٧-٢٥٨.

[3] تأبط شرا، الديوان، ص٢٠٦-٢٠٨.(العجاجة: الغبار الذي يثيره المقاتلون، الأقراب: الخواصر).

[4] السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٢-٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد مثالا من الصور الشمية في قول عروَة بن الوَرد :

لياليَنَـا إذْ جيبـُها لك ناصـــح وإذْ ريحها مِسك زكي وعنْبـــر
أَلم تَعلمِي يا أم حسـان أننـــا خَليطا زيالٍ ليس عن ذاك مقْصر [١]

أو كما في قول الشّنْفَرَى :

قَبِيْنَا كـأن البيـتَ حجـر قَوقَنَا بِريحانَـةٍ ريحتْ عِـشَاء وطْلتِ
بِريحانَةٍ مِن بطْـن حلْيـةَ نَورتْ لهـا أَرج ما حولها غَير مسنِتِ [٢]

ونخلص في هذه الصور الفنية إلى أن الشاعر الصعلوك حاول بكل ما أوتي من قوة فنية أن يوظف مختلف الحواس لرسم صور بطولية قادرة على التعبير الصادق عن الحالة التي يعيشها .

متانة التراكيب وقوة الألفاظ

غابت في مقطعات شعر البطولة عند الصعاليك الألفاظ البسيطة، والتراكيب العذبة والرقيقة – نسبيا - وانعكس ذلك على الصور الفنية التي تخلو من التشبيهات الفنية ذات الدلالة الجمالية المادية أو الوصف الحسي العذب، وحلّ محلها التراكيب والعبارات القوية، ذات الفخامة والإغراب – أحيانا- والجرس الموسيقي القوي، ويمكن أن نلحظ ذلك في قول الشّنْفَرَى:

قَلما لـواه القُـوتُ مِن حيـثُ أَمـه دعـا فَأجابتْـه نَظَائِـر نُحـلُ
مهلهلَـةٌ شِيـب الوجـوهِ كـأنهـا قِـداح بأيـدي ياسِـرٍ تَتَقَلقَـلُ
أو الخَشْـرم المبعوثُ حثْحـثَ دبره محلِبِيض أَرداهن سـامٍ معسـلُ
مهـرتَـةٌ فُـوه كـأن شُـدوقَهـا شُقُـوقُ العِصِي كَالِحاتٌ وبسـلُ
فَضـج وضجـتْ بالبـراح كأنهـا وإيـاه نُـوح فَوقَ علْياء ثُكـلُ
وأغْضى وأغْضتْ وانّسى وانتستْ به مراميـلُ عزاها وعزتْه مرمِـلُ
شَكَا وشَكَتْ ثُم ارعوى بعد وارعوتْ وللصبر إن لم ينْفَع الشكْو أجملُ [٣]

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص١٦٠.

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٣٤.(الأرج: نفحة الرائحة الطيبة، مسنت: مجدب).

[٣] المصدر نفسه، ص٦٤-٦٥.(مهلهلة: رقيقة اللحم، تتقلقل: تتحرك، الخشرم: رئيس النحل، حثحث الدبر: حرك جماعة النحل، المهرتة الفوه: الواسعة الفم، كالحات، مكشرة في عبوس، البسل: الكريهة المنظر، أغضى: كف عن العواء، المرمل: من لا قوت له، ارعوى: كف ورجع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واختلف الدارسون حول هذه السمة، فذهب يوسف خليف إلى التأكيد على "كثرة الغريب في شعرهم، حتى ليشعر الناظر فيه أحيانا أنه أمام مجموعة من الطلاسم اللفظية، يضطر أمام كل لفظ منها إلى الرجوع إلى المعاجم المطولة، لأن المعاجم المختصرة لا تسعفه" [١]، ثم يورد طائفة من الصور والألفاظ الواردة في شعر الصعاليك مستدلا بها على ما ذهب إليه، كقول تأبطَ شَراً :

وحنْحنْتُ مشْعوفَ النجاءِ وراعني ... أُناس بِقَيقَانٍ فَمِـزتُ القَرائِنَـا
فَأدبـرتُ لا ينْجو نَجائِـي نِفْنِـقٌ ... يبـادِر فَرخَيـهِ شَمالاً وداجِنَا
مِن الحص هزروفٌ يطِير عِقَاؤُه ... إذَا استَدرج القَيقَا ومد المغَابِنَـا
أَزج زلُـوج هِـزرِفِـي زفَـازفٌ ... هِزف يبـذ النّاجِياتِ الصّوافِنَا [٢]

أو كتلك الأبيات التي يقول فيها الأعلم الهذَلي :

فشَـلِـع وسـطَ ذُودِك مستَفِنـا ... لِتُحسـب سيـداً ضبعـا تَنُـولُ
عشَنْـزرةٌ جـواءِ رهـا ثَمـانٍ ... فُويـقَ زماعِهـا خَـدم حجولُ
تَـراها الضبع أعظَمهـن رأسـاً ... جـراهِمـةٌ لهـا جِـرةٌ وثِيـلُ [٣]

ويرى عبد الحليم حفني أن "شعر صعاليك الجاهلية لم يكن في مستوى واحد من حيث الغرابة والإلف" [٤] وإن كان يرى أن شعرهم أميل للغرابة وأبعد عن الإلف، وهو ما نذهب إليه.

ومع ذلك نجد من النقاد من يرفض اعتبار ذلك سمة من سمات الشعر الجاهلي لأن "نعت بعض أبيات الشعر الجاهلي بقوة المتن وشدة الأسر ونعت بعضها الآخر باللين والإسفاف أمر لا يقره البحث العلمي الدقيق، ذلك أننا على بعد زمني لا يتيح لنا مع قصور الدراسات اللغوية للشعر الجاهلي ولغة الحياة العامة للجاهليين أن نتمثل نطاقا دقيقا يمكن الاستناد إليه، وجل ما يمكن قوله أن ما يبدو من الألفاظ الجاهلية صعبا لا يعدو أن يكون ألفاظا ماتت من الاستعمال اليومي أو الأدبي في عصرنا إما لأنها أسماء لمسميات اختفت من الحياة الجديدة التي ابتعدت عن البادية كالنباتات أو أجزاء الحيوانات أو لأنها اختفت نتيجة للتطور الحضاري للغة" [٥]، ومع

---

[١] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٣١١.

[٢] تأبط شرا، الديوان، ص٢١٦-٢١٧.(الدجن: المطر الخفيف، الحص: المنجرد الشعر، الهزروف: السريع العظيم، المغابن: الآباط، الأزج: طويل الساقين، الزفزاف: النعام لخفة حركته، يبذّ: يسبق، الناجيات الصوافن: الخيل السريعة).

[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٢٢.(عشنزرة: ضبع غليظة).

[٤] حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص٤١٧.

[٥] نبوي، عبد العزيز، (١٩٨٨). دراسات في الأدب الجاهلي، (ط٢)، القاهرة، الصدر لخدمات الطباعة، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن كل صاحب اتجاه يورد حججا لتأكيد رأيه، فإن هذا لا ينفي ما ذهبنا إليه من انتقاء الشعراء الصعاليك للألفاظ والتراكيب الدلالية التي تتناسب مع الصورة الفنية والمضمون الذي دار حول مقطعات وشعر البطولة عند الصعاليك، بل إن مثل هذه الألفاظ في مقام البطولة يعطي بعدا جماليا ودلاليا خاصا.

الإكثار من صيغ الأفعال المضارع والأمر

يظهر لدارس شعر البطولة عند الصعاليك أن هذا الشعر يحفل كثيرا بالأفعال المضارعة، ولعل هذا الإكثار يأتي متماشيا مع الصور الحركية التي سبق ذكرها، ذلك أن مثل هذه الصور تحتاج أكثر إلى الأفعال المضارعة للدلالة على الاستمرارية، والديمومة، ولتحقيق وقع أكبر في نفس المتلقي، وتكشف عن التفاعل الثوري في نفس الشاعر، يقول الشَّنْفَرَى:

ولكِـن نَفْسـاً مـرةً لا تُقِيـمُ بِـي علـى الـذامِ إلا رينَمـا أتَحـولُ
وأطْوِي على الخَمص الحوايا كَما انْطَوت خُيوطَـةُ مـاري تُغـَار وتُفتَـلُ [1]

استطاع الشاعر من خلال الأفعال (تقيم/أتحول/أطوي/تغار، تفتل) أن يضفي مقدارا أكبر من الحيوية والاستمرارية على المضمون.

ويتبين لنا التوظيف المكثف لزمن الفعل المضارع الذي حقق بعداً دلاليا عند الشاعر لتأكيد الفكرة التي تسيطر عليه، يقول عروَة بن الوَرد:

دعينـي للغِنَـى أسعـى فـإنّـي رأيـتُ النـاس شَرهـم الفقيـر
وأبعدهـم وأهـونُـهـم عليهـم وإن أمسـى لـه حسـب وخِيـر
ويقْـصِيـه النَـدِي و تَـزدريـهِ حليلتُـه وينْـهـره الصـغيـر
ويلقَـى ذو الغِنَـى ولـه جـلالٌ يكـاد فـؤاد صـاحِبِـهِ يطيـر [2]

لقد ظهر الفعل المضارع (أسعى/ يقصيه/ يزدريه/ ينهره/ يلقى/ يطير) ليرسم صورة واقعية لحال الفقير كما يرى الشاعر، فجاء اختيار الزمن المستمر لبيان أن هذه النظرة الاجتماعية للفقير لم تنته، بل إنها دائمة ومستمرة.

---

[1] الشنفرى، الديوان، ص٦٣.(الذام: العيب،

[2] عروة بن الورد، الديوان، ص١٧٤-١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما أفعال الأمر فكثيرا ما وردت لإشباع رغبات نفس الشاعر الصعلوك المتعالية، والحث على البطولة والإقدام وتشجيع الصعلكة، ولإثبات القوة والسطوة وتحقيق جانب من السيادة التي حرم الصعلوك منها في المجتمع الذي هجره، فيحاول تعويضه في شعره، وبطولاته، يقول عروَة ابن الوَرد:

فَسِر في بلادِ اللهِ والتَمِس الغِنَـى تَعِشْ ذا يسارٍ أو تموتَ فَتُعـذَرا [١]

ويستثمر السلّيك بن السلكة الأفعال المضارعة للتعبير عن استمرارية الحال التي يعاني منها، والألم الذي يحياه، يقول:

أَشـاب الـرأس أنّـي كُـل يـومٍ أَرى لِـي خالـةً وسـط الرجـال
يشُـق علـي أن يلقيـن ضيمـاً ويعجِـز عـن تَخَلصِهـن حالـي [٢]

ويكثر مَالِك بن حَريم من استعمال الأفعال المضارعة التي تدل على الاستمرارية في البطولة التي يفاخر الشاعر بها في قصائد عدة، يقول:

فَمـن يأتِنـا أو يعتَـرض بِسبيلنا يجِد أثَراً دعساً وسخْـلاً موضعـا
ويلْـقَ سفيطـاً مِن نِعـالٍ كثيرةٍ إذا خَـدم الأوساغ يومـاً تَقَطعـا [٣]

ويقول عروَة بن الورد :

تَقـولُ سليمى: لو أقمـتَ لسرنـا ولـم تَـدرِ أني لِلْمقـامِ أُطـوفُ! [٤]

ويبدو أن فكرة الإصرار على إثبات الذات، والرغبة في تحقيق الوجود هي التي دفعت الصعاليك للإكثار من صيغ الزمن المضارع والمستقبل، وكأن الطريق التي يسير فيها الصعلوك لا يمكن له أن يتوقف فيها أو يصبح فيها من الماضي لأن ذلك يعني انتهاءه .

تماسك المقطعات

غلب على شعر الصعاليك أن يكون مقطعات "ولسنا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه، وإنما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة" [٥]، واتصفت أبيات هذه المقطعات بشكل عام

---

[١] عروة بن الورد، الديوان، ص١٧٣.

[٢] السليك بن السلكة، الديوان، ص٨٩.

[٣] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص٦٤-٦٥.

[٤] عروة بن الورد، الديوان، ص١٩٥.(أطوف: أتنقل من مكان إلى آخر).

[٥] خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص٢٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالتماسك والتناسب المضموني مع الأبيات السابقة والأبيات اللاحقة، ودار خلاف كبير بين الدارسين حول هذه المقطعات وتبريرها، فمنهم من اعتبرها شكلا من أشكال التمرد الفني[١]، أو أنه "أمر معروف في الشعر الجاهلي وغيره من العصور اللاحقة، خلال الحروب التي تفرض طابع السرعة" [٢]، أو كما يقول عبد المنعم خفاجي: "ذلك أنهم ذوو خفة وسرعة واختلاس، لم يألفوا التمهل والتروي، فجاء شعرهم صوراً من حياتهم" [٣]، إلا أن ما يهمنا من شأن هذه المقطعات هو تماسكها ووحدتها العضوية، وانسجامها التام مع باقي المقطعات حتى "كان جمال الصور الفنية التي تحيل المقطعات والقصائد مشاهد تنبض فيها الحياة" [٤]، وقد غلب على هذه المقطعات "الاتكاء على البحرين الطويل والبسيط، وذلك لا يمنع من وجود قصائد ومقطعات على الوافر والكامل أو سواهما، أما القوافي فأكثرها الراء وتتلوها الدال، ..، وثمة عناية مقصودة أو غير مقصودة بالموسيقى الداخلية، فكأن إيقاعات شعر الصعاليك محاكاة لحياتهم، بل إن بعض الإيقاعات تسهم بشكل جزئي أو كلي في تصوير صليل السيوف وصرخات الموت"[٥].

ونجد عروَة بن الوَرد استطاع بأبيات معدودة أن يعبر عن الفكرة التي في داخله بشكل مترابط ومتماسك، حيث يبدو التناسق الشديد بين الأبيات مانعا لمحاولة الفصل بينها، يقول:

تَمنى غُربتي فيس وإنّي ... لأخشَى إن طَحا بِك ما تَقُولُ
وصارتْ دارنا شَحطاً عليكُم ... وجف السيفِ كُنتَ بهِ تَصولُ
عليك السلام فَاسلَمها إذا ما ... أَواك لَه مبيتٌ أو مقيلُ
بِأَن يعيا القليلُ عليك حتى ... تصير لَه ويأكلَك الذَليلُ
فَإن الحرب لو دارتْ رحاها ... وفاض العِز واتبع القَليلُ
فَكنتَ كليلةِ الشيباءِ همتْ ... بمنْع الشكْر أَثأمها القَبيلُ [٦]

ومن هذه المقطعات قول عَمرو بن بَراقَة:

تَعرض لي عمرو خِزايةُ ... تَعرض ضبع القَفر للأسد الوردِ

---

[١] أنظر: العزب، محمد أحمد، (١٩٧٨). ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، سلسلة اقرأ، (٤٤٢)، ص٧.

[٢] نبوي، دراسات في الأدب الجاهلي، ص٢٥٠.

[٣] خفاجي، عبد المنعم، (١٩٩٢). دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي، (ط١)، بيروت، دار الجيل، ص١٧٧.

[٤] الصائغ، الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، ص٣٩٧.

[٥] المصدر نفسه، ص٣٩٨.

[٦] عروة بن الورد، الديوان، ٢١٦-٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما هو لي غِـد فَأشتِـم عِرضَـه ولا هو لي عبد فَأبطِشَ بِالعبـدِ [١]

ومن المقطعات التي قيلت في البطولة مقطعة لأبي جنْدب الهذَلي يقول فيها:

لَقَـد أَمسَـتْ بنُـو لِحيـان مِنى بِحمـدِ اللّـهِ فِـى خِـزي مبيـن
جزيتُهـم بِمـا أَخَـذُوا بِـلادِي بِنِـى لِحيـان كَـلا فَاحـربونِـي
تَخِـذْتُ عُـران إِنْـرهـم دليـلاً وقَـروا فِى الحِجـاز لِيعجِزونِـي
وقَد عصبتُ أَهلَ العـرج مِنْهـم بِأَهـل صـولَـق إِذْ عـصبونِـي
تَركْتُهـم على الركْبـاتِ صعـراً يشِيبـون الـذوائِـبِ بِـالأَنِيـن [٢]

والملمح العام لهذه المقطعات هو جمال التصوير الذي ظهرت به، والتماسك الفني الذي انعكس على بناء هذه المقطعات.

بروز الأنا المتعالية

برزت "أنا" الشاعر بشكل واضح في شعر الصعاليك بشكل عام، وفي شعر البطولة لديهم بشكل خاص، وقد أكثر الشاعر الصعلوك من الحديث عن نفسه متفاخرا بمآثره، ومستعرضا قوته وقدرته، فتغنى بأفعال البطولة التي مارسها، وكثر لديهم استخدام الأفعال التي ترتبط دلاليا بالبطولة المسندة إلى ضمير المفرد المتكلم، "ولم يكتف الصعاليك برسم المشاهد الخارجية، بل التفتوا إلى مشاعرهم التي تعتمل في صدورهم، فصوروها أدق تصوير، فكأننا نسمع نبضات قلوبهم في الرهبة والرغبة" [٣].

وهنا نلمح الحاجة النفسية في داخل الشاعر المتمثلة في إثبات الذات، وتحقيق الوجود، وانتزاع اعتراف ضمني من القبيلة والمجتمع أن للصعلوك حضورا وشأنا، وهذه الأنا كانت في الغالب تتراوح بين حديثين، الأول: البطولات والقدرات التي يتمتع بها الصعلوك والتي يحاول أن يرفع بها من شأنه، والثاني: تحدي الموت والتأكيد على رفض الخوف والبحث عن التميز، ونجد تَأبطَ شَراً يجمع بين الأمرين حين يرى أن البطولة أقرب طريق للموت، ومن أراد أن يكون من الأبطال فلا بد أن ينتظر الموت ويستعد للقائه، يقول:

وكيفَ أظُن الموتَ في الحي أو أُرى أَلَـذ وأَكْـرى أو أَبِيـتُ مفَـنعـا

---

[١] الخالديان، كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، ج٢، ١٩٦٥، ص٢٧١.

[٢] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٣٥٤-٣٥٥.(غران والعرج: مواضع، صعرا: مائلين).

[٣] الصائغ، الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، ص٣٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولستُ أبيتُ – الدهر – إلا على قَتًى ... أسلبـه أو أذْعـر السـرب أجمعـا
وإنّـي – ولا عِـلْم – لأعلـَم أنني ... سأَلْقَى سِنَـان الموتِ يبرقُ أصلعـا
ومـن يغْـر بالأبطـال لا بـد أنـه ... سيلْقَى بِهم مِن مصرع الموتِ مصرعا [١]

ويكثر مَالِك بن حَريم من استخدام ضمير المفرد المتكلم في الحديث عن صفاته التي لا يتصف بها إلا الأبطال، يقول:

وإني لأستَحيـي مِن المشْي أبتَغِي ... إلى غَير ذي المجدِ المؤَثل مطْمعا
وأُكْرِم نَفْسي عن أُمـور كثيـرةٍ ... حِفاظاً وأنْهـى شُحها أن تَطَلعـا
وآخُـذُ للمولـى إذا ضيـم حقـه ... مِنَ الأعيـطِ الآبِي إذا ما تَمنعـا
فَإن يك شَاب الرأْس مِنـي فَإنني ... أبيتُ علـى نَفْسِي مناقِب أربعـا
فَـواحِـدةٌ: أن لا أبيـتَ بِغِـرةٍ ... إذا ما سوام الحي حولي تَضوعا
وثَانِيـةٌ : أن لا أُصمـتَ كَـلبنـا ... إذا نَـزلَ الأضيافُ حِرصاً لِنُودعا
وثَالِثَـةٌ : أن لا تُقَـذع جـارتِـي ... إذغ كَـان جار القَومِ فيهم مقَذعا
ورابِعـةٌ: أن لا أُحجـلَ قِـدرنـا ... على لحمِها حِين الشتاءِ لِنَشْبعـا
وإني لأعدي الخَيـْلَ تُقْدع بِالقَنـا ... حِفاظاً على المولى الحريدِ لِيمنَعا [٢]

وتظهر "الأنا" المتعالية عند الشَّنْفَرَى الذي نراه يوصي بألا يدفن كما يدفن الباقون، ويرفض أن يكون مهانا تحت التراب، فيختار أن يستقر في بطون الضباع والوحوش، يقول:

لا تَقْبـرونـي إن قَبـْري محـرم ... عليكُـم ولكِن أبشِـري أم عامِـر
إذا احتَملُوا رأْسِي وفي الرأس أكْثَري ... وغُـودِر عِنْد الملْتَقَى ثُم سائِـري
هنَـالِك لا أرجـو حيـاةً تَسـرنـي ... سجِيس الليالـي مبسلاً بالجرائِـر
لقلـتُ لهـا قَـد كَـان ذلـك مـرةً ... ولستُ على ما قَـد عهدتِ بقـادِر [٣]

وتظهر "الأنا" في معرض افتخاره بنفسه، يقول:

أنـا السمـع الأزل قَـلا أُبـَالِـي ... ولـو صعبتْ شَنَاخِيـب العِقَـابِ
ولا ظَـمـأٌ يـؤَخـرنـي وحـر ... ولا خَـمص يـُقَصر مِن طِـلابِ [٤]

---

[١] تأبط شرا، الديوان، ص١١٨-١١٩.(ألذ: من اللاذة، أكرى: من الكرى، المقنع: الذي قنعه الشيب).

[٢] الأصمعي، الأصمعيات، الأصمعية رقم (١٥)، ص ٦٣-٦٤.

[٣] الشنفرى، الديوان، ص٤٨-٤٩.(أم عامر: كنية الضبع، سجيس الليالي: طولها، مبسل: مسلم، الجرائر: الذنوب).

[٤] المصدر نفسه، ص٣٠.(شناخيب: جمع شنخوب، وهو أعلى الجبل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونرى "الأنا" تظهر مرتبطة عند الشاعر بحديث البطولة في قول تَأبطَ شَراً الذي يتفاخر فيه بسرعة عدوه، حتى لم يعد هناك شيء في الوجود أسرع منه، يقول:

لا شَيء أسرع مِني لَيس ذَا عـذَر وذَا جنَـاحٍ بِجنْبِ الريـدِ خَفـاق [١]

ويفاخر بسرعته في موضع آخر، يقول:

أُجاري ظِلالَ الطيرِ لو فَاتَ واحِـد ولو صدقُوا قَالُوا له : هو أسـرع [٢]

ويقول أبو خِرَاش الهذَلي:

أَقَاطِـم إِنى أَسبِقُ الحتْـفَ مقْبِـلاً وأَتْرك قِرنِى فِى المزاحِفِ يستَدمِي [٣]

ويقول عروَة بن الوَرد:

فَـلا أَنَا مِما جرتِ الحرب مشْتَـكٍ ولا أَنَا مِما أَحـدثَ الدهـر جـازع

ولا بصري عِند الهيـاج بِطامِـح كأني بعيـر فارقَ الشـولَ نَـازع [٤]

ويظهر حَاجِز بن عَوف استخفافا بأعدائه ويفاخر بقوته التي عجز أمامها جمع من الرجال الذين يدعون ويتوعدون، يقول:

وإنـي هِـن إرعـادِكُـم وبـروقِكُـم وإيعادِكُـم بِالقَتْـل صـم مسامِعـي

وإنـي دليـلٌ غَيـر مخْـفٍ دلالتـي على أَلفِ بيتٍ جدهـم غَير خَاشِـع

تَرى البِيض يركُضن المجاسِد بِالضحى كَذا كل مشْبـوح الذراعيـن نَـازع

علـى أي شَـيءٍ لا أبـا لأبِيـكُـم تُشِيرون نَحوي نَحوكُـم بالأصابِـع [٥]

ونجد المعنى السابق عند قَيس بن الحِدَادِية، يقول:

أنـا الـذي تَخْلَعـه مـوالِيـه وكُلهـم بعـد الصفـاءِ قـالِيـه

وكُـلهـم يفْسِـم لا يبـالِيـه أنـا إذا المـوت ينـوب غالِيـه

مـخْتَلِـطٌ أسقَـأُـه بعـالِيـه قد يعلَـم الفِتْيـان أنـي صالِيـه [٦]

---

[١] تأبط شرا، الديوان، ص١٣٣.

[٢] المصدر نفسه، ص١٠٧.

[٣] السكري، شرح أشعار الهذليين، ٣م، ص١٢٠٢.

[٤] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨٤.

[٥] الأصفهاني، الأغاني، ج١٣، ص٢٣٦.(الإيعاد: التهديد، المجاسد: الثياب المعصفرة بالزعفران).

[٦] المصدر نفسه، ج١٤، ص١٥٨.(قاليه: مبغضه، لا يباليه: لا يهتم به).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويضيق المقام عن إيراد "الأنا" التي برزت في قصائد البطولة عند الشعراء الصعاليك ومقطعاتها، في مقابل غياب تام لأنا القوم التي يحاول الشاعر في بعض الأحيان أن ينتقص منها بتحديه للقوم مجتمعين.

الغرابة في التصوير

جنح بعض الشعراء الصعاليك لابتكار صور وأخبار فيها نوع من الإغراب والتهويل، وإن كنا نشك في صحة المزاعم والصور التي استحدثوها، فإنا نرى أنها نوع من جذب الأنظار والأسماع، ورسالة إلى المجتمع أو القبيلة توضح مقدار القوة والجرأة والبطولة التي وصل إليها الصعاليك .

ولعل من أكثر الذين أغربوا في أخبار بطولاتهم وصورها تَأبطَ شَراً، والذي كان يحلو له الإكثار من ذكر الغول ومغامراته معها، و"كان يزعم أنه يصادق نساء الغول أو يتزوجهن" [١]، يقول:

فَأصبحـتُ والغـُولُ لِـي جـارةٌ ... فَيـا جارتَـا أنْـتِ مـا أهـولا
وطَـالبتُهـا بضعهـا فَـالتَـوتْ ... بِـوجـهٍ تَهـولَ فَـاستَغْـولا
فقُلْتُ لها يا انْطُـري كَـي تَـري ... فَـولـتْ فكُنْـتُ لهـا أغْـولا
فَطَـار بِفحـفِ ابنَـةِ الجِـن ذُو ... سفَاسِقَ قـد أخْلَـقَ المِحمـلا
إذَا كَـل أمهيتُـه بـالصفَـا ... فَحـد ولَـم أُرِهِ صيـقَـلا
عطَـاءةَ قَـفْـرٍ لهـا حلقَـان ... مِـن ورق الطلْـحِ لَـم تُغْـزلا
وكُنْـتُ إذَا ما هممـتُ اعتَزمـتُ ... وأحـر إذَا قُلْـتُ أن أفْعـلا [٢]

ويتمادى في تهويله، ويدعي أنه قد نكح الغيلان، ليرسم صورة لقوة قلبه وشجاعته التي بلغت غاية لا تدرك، يقول:

أنَا الذي نَكَـح الغِيـلان في بلَـدٍ ... مـَا طَـل فِيه سِماكِـي ولاجـادا
في حيثُ لا يعِوتُ الغَادِي عمايتَـه ... ولا الظلِيـم بِـهِ يبـْغِي بِـهـبادا
وَقَد لهوتُ بِمصقُـولٍ عوارضهـا ... بِكْـرٍ تُنَازعنِـي كَأسـاً وعِنْقَـادا

---

[١] الصائغ، الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب، ص٣٩٨.

[٢] تأبط شرا، الديوان، ص١٦٤-١٦٦.(استغول: تلون وتغير، الفحف: عظم الجمجمة، ابنة الجن: الغول، ذو سفاسق: يعني السيف، الكلال: التعب وافتقاد القدرة، الصيقل: شحاذ السيوف وجلاؤها).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثُم انْقَضى عـصرها عنّي وأعقبه عصر المشِـيبِ فَقُلْ في صالِحٍ بادا [١]

ونجده في قصيدة أخرى يتباهى بالبطولة ويفخر بفعاله عبر حكاية يدرجها عن صراع بينه وبين أنثى الغول، ويظهر تصويرا غريبا لها، مؤكدا للغول أنه قوي شجاع وثابت الجنان، ثم يهوي عليها بسيفه الصارم فيرديها قتيلة، يقول:

أَلا هـن مبلِـغٌ فِتْيـان قَهـمٍ بِمـا لا قيـتُ عِنْد رحـى بِطـان
بأنّي قَد لَقيـتُ الغُـولَ تَهـوي بسهـبٍ كالصّحِيفَـةِ صحصحـان
فَقُلْـتُ لها: كِلانَـا بِغضـو أيـن أَخُـو سفَـرٍ فَخَلِّـي لِـي مكانِـي
فَشَـدتْ شَـدةً نَحـوي فَأهـوى لها كَفّـي بِمصقُـولٍ يمـانِـي
فَأضربهـا بـلا دهـش فَخَـرتْ صـريعـاً لليـديـن وللجِـران
فَقالَـتْ: عد فقُلْـتُ لها: رويـداً مكـانَـكِ إنّنِـي ثَبـتُ الجنَـان
فَلَـم أَنْفَـك متكِئـاً لـديـهـا لأَنْـظُـر مصبِحـاً مـاذَا أتَـانِـي
إذَا عينَـان فـي رأسٍ قبيـح كـرأس الهـر مشْقُـوق اللسـان
وساقَـا مخْـدجٍ وشَـواةُ كلْـبٍ وذَنَـوب مِـن عبـاءٍ أو شنَـان [٢]

إن كان العقل يرفض أخبار تأبطَ شَراً في مجملها إلا أن هذا المنحى الذي ينتحيه الشاعر يكشف عن سعة الخيال الذي لديه، ونشوة البطولة التي كانت تسيطر على تفكيره، ولورود مثل هذه الأخبار في أكثر من مقطعة دلالة على أن مثل هذا الخيالات البطولية لم تكن عرضا ألم به في لحظة اغترار، وإنما هاجس استقر في تفكيره في مرحلة معينة.

الإكثار من صيغ المبالغة والتفضيل

لعل هذه السمة الفنية مطلب استدعته طبيعة الغرض الذي تناوله الصعاليك في مقطعاتهم – وهو هنا البطولة – وجانب آخر مرتبط بالسمة السابقة المتمثلة في إظهار الأنا المتعالية، فاندفع الشاعر الصعلوك للإكثار من صيغ المبالغة، وأسماء التفضيل، للتوافق مع ما سبق، ولتحقيق تأثير أكبر في نفس السامع، وإشباع الحاجة النفسية الداخلية للصعلوك، ولعل لنا في هذا المثال من شعر تأبطَ شَراً ما يوضح الفكرة السابقة، يقول:

سباق غَاياتٍ مجدٍ في عشِيرتِـهِ مرجع الصوتِ هـداً بين أرفَـاق

---

[١] تأبط شرا، الديوان، ص٧٧.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٢٢-٢٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاري الظنَابِيب ممتَـد نَواشِـره ... مِدلاج أدهم واهِي الماءِ عَسـاق
حمـال ألـويـةٍ شَهـادِ أنْدِيـةٍ ... فَـوال محكَمـةٍ جـوابِ آفّـاق
فَذَاك همي وغَزوي أستَغِيثُ بِـهِ ... إذّا استَغَثْتُ بِضافِي الرأْس نَغـاق [١]

لا يحتاج الكشف عن التوظيف المكثف لصيغة المبالغة (فعال) أو صيغة (مفعال) إلى طول نظر، لنتبين حرص الشاعر الحثيث على الإعلاء من ذاته، واستعراض بطولاته، والتغني بعظيم فعاله.

ونلمح كثرة صيغ المبالغة في تلك المقطوعة التي قالها الشّنْفَرَى من اللامية، والتي يقول فيها:

ولستُ بِمِهيـافٍ يعشي سوامـه ... مجدعـةً سقْبانُهـا وهـي بهـلُ
ولا جبإٍ أكْهـى مـرب بِعِرسِـهِ ... يطَالِعهـا في شأْنِـهِ كَيفَ يفْعَـلُ
ولا خَـرِقٍ هيـقٍ كـأن فـؤاده ... يظَـل به المكـاء يعلُـو ويسفُـلُ
ولا خَالِـفٍ داريـــةٍ متَغَـــزلٍ ... يـروح ويغْـدو داهنـاً يتَكحـــلُ
ولستُ بِعـل شَـره دون خَيـرِهِ ... ألف إذا ما رعتَه اهتَـاج أعـزلُ
ولستُ بِمِحيارِ الظلامِ إذا انْتَحتْ ... هدى الهوجلِ العِسيفِ يهماء هوجلُ [٢]

ويقول عروَة بن الوَرد :

صبوراً على رزءِ الموالي وحافِظاً ... لِعِرضِي حتى يؤكَـلَ النبتُ أَخْضرا [٣]

ويبدو أمرا طبيعيا على من اتخذ البطولة حديثا له أن يكثر من صيغ المبالغة، ويتفنن في توظيف أسماء التفضيل التي تحقق له بعدا بطوليا لا يشاركه فيه أحد، وهذه السمة تغلب على جل مقطعات شعر البطولة عند الصعاليك.

ظهور أسلوب الخطاب الحواري

لجأ الصعاليك في بعض القصائد والمقطعات لاستخدام هذا النمط الذي من شأنه أن يعطي النص مقدارا أكبر من الحيوية، ويبعد عن القارئ الملل الذي قد يسببه أسلوب السرد والوصف،

---

[١] تأبط شرا، الديوان، ص١٣٦-١٣٧.
[٢] الشنفرى، الديوان، ص٦١-٦٢.
[٣] عروة بن الورد، الديوان، ص١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أن هذا الحوار "قد يكون في بعض الأحيان بسيطا لا يخرج عن نطاق المساجلة الآنية والفكرة المغلقة والتأثر الذاتي" [١]، وأكثر الصعاليك من الوقوف أمام المرأة وتخصيصها بحواراتهم، ولعل بعض الحوارات تكون بينهم، "ومن المعروف أن المعطى التراثي للأداء الحواري يأخذ أنماطا أحادية البعد، تتكرر أشكالها وتتعدد صورها حيث يظل مكتفيا بقص خارجي (يحكي) الموقف الحواري الحقيقي أوالمتخيل والمتمثل في قال وقلت أو مخاطبة الرفيقين" [٢]، ولأن كثيرا من هذه الحوارات كانت المرأة طرفها الثاني فإن "الغالب في هذا الحوار أن يكون متخيلا، لا وجود للنسوة اللاتي تخيلهن الشعراء، ويمكننا أن نعد هذا من المحاولات الأولى في الحوار الشعري بالنسبة للأدب العربي" [٣]، ويلجأ الشنفرى للاستعانة بالحوار في بعض قصائده التي يتحدث فيها عن بطولاته بأسلوب سلس وموجز استطاع أن يحقق عبره بعدا فنيا وجماليا، يسهم في تكوين خصوصية للنص الجاهلي عنده، يقول الشَّنْفَرَى:

وأصبح عنّي بالغُميصـاءِ جالسـاً ... فَريقـان: مسؤُولٌ وآخَر يسـأَلُ

فَقَالُـوا:لقَد هـرتْ بِليـلٍ كِلابَنَـا ... فَقُلْنَا: أَذِئْب عس أم عس فُرعـلُ

فَلَـم يـك إلا نَبـأةٌ ثُـم هومـتْ ... فَقُلْنَا : قَطَـاةُ ربع أم ربع أجـدلُ [٤]

ونلمح أسلوب الحوار لكن في غرض بعيد بعض الشيء عن البطولة، في قصيدة قَيس بن الحِدَادِية التي تعبر عن قصة عشق بين الشاعر وابنة عمه نُعم، فينظم حوارا دار بينه وبينها يقول في بعضه:

فَقُلْتُ لها : يا نُعـم حلـي محلنـا ... فَإن الهوى يا نُعم والعيشُ جامِـع

فَقَالتْ وعيناهـا تَفيضان عبـرةً: ... بِأهلِـي بين لي متَى أنْتَ راجِـع

فقُلْتُ لهـا : تَاللهِ يـدري مسافِـر ... إذا أضمرتْه الأرض ما اللهُ صانِـع

فَشَدَتْ على فِيها اللثام وأعرضـتْ ... وأمعن بِالكُحـل السحيق المداوِـع

وإنـي لِعهـدِ الـود راعٍ وإنـي ... بِوصلِكِ ما لم يطْوني الموتُ طامِع [٥]

ونجد صَخْر الغَي يرثي ابنه "تَلِيدا" ويتخيل أنه لقي في مكان يسمى "سَبَل" حمامة هي الأخرى فقدت ولدها الذي يدعى "ساق حر" ، ويجري بينهما هذا الحوار:

---

[١] القيسي، نوري حمودي والبياتي، عادل وعبداللطيف، مصطفى، (١٩٧٩). تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، دار الحرية، ص١٥٧.

[٢] عيد، رجاء، (٢٠٠٣). لغة الشعر:قراءة في الشعر العربي المعاصر، (ط١)، الإسكندرية، منشأة المعارف، ص١١٢.

[٣] القيسي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص١٥٨.

[٤] الشنفرى، الديوان، ص٧٠.

[٥] الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما إن صوتُ نائحةٍ بليلٍ بسبْلَلَ لا تنام مع الهجودِ
تَجهنا غاديين فسايلتْني بواحدةٍ وأسألُ عن تليدِ
فقلْتُ لها فأما ساقُ حر فبان مع الأوائل من ثمودِ
وقالتْ لن ترى أبداً تليداً بعينك آخِر الدهر الجديدِ
كلانا رد صاحبه بيأس وتأنيبٍ ووجدانٍ بعيدِ [(١)]

ويكثر استخدام أسلوب قال وقلت في مقطعات شعر البطولة عند الشعراء الصعاليك، إلا أن هذا الاستخدام لم يكن للشعراء جميعهم فيه نفس طويل إذا كان بسيطا وأقرب إلى حوار داخلي على شكل سؤال وجواب في البيت الواحد كما نرى في قول عروَة بن الوَرد:

وقالوا: ما تشاء؟ فقلت: ألهو إلى الإصباح آثِر ذي أثير [(٢)]

ولهذا النمط أمثلة عديدة عند الشعراء الصعاليك .

نخلص مما سبق إلى أن شعر البطولة عند الصعاليك قد اتصف بمجموعة من الخصائص الفنية والأسلوبية التي جعلته يحمل شيئا من الخصوصية تميزه عن عامة شعر البطولة الجاهلي، حتى لنكاد نجرؤ على القول إنه من الصعب على المرء الوقوف على سمات فنية تميز شعر واحد من الصعاليك عن البقية، فالبيت أو المقطعة التي يقولها عروة بن الورد في البطولة لا تختلف بشكل كبير عن تلك التي نجدها عند الشنفرى أو تأبط شرا أو غيرهما من الصعاليك.

ونظن أن الأخذ بتطبيق بعض الأنظار النقدية الحديثة على شعر البطولة عند الصعاليك يمكن أن يجد له طريقا كتلك الأنظار التي تقول "بموت المؤلف"، فنحن يمكننا أن ندرس بعض نصوص شعر البطولة عند الصعاليك الجاهليين ولا بد أن يصل بنا التحليل والنظر إلى الرجوع بتلك النصوص إلى الطابع الفني والأسلوبي الذي اشتهر عن شعر الصعاليك.

وبعيدا عن الأخذ بنظرية "موت المؤلف"، نجد نظرية أخرى هي نظرية التناص تبرز لدى دارس شعر البطولة عند الصعاليك، ونلمح التناص المضموني، والتناص اللفظي يحضر في كثير من شعر البطولة عند الصعاليك، كما في عدد من الأبيات التي يكاد الدارس يشكك في صحة نسبتها لبعض الصعاليك، ولننظر على سبيل المثال في صورة السيف –أحد أهم أدوات

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٢٩٣-٢٩٤.(الهجود: النيام، ساق حر: ولد الحمامة).

(٢) عروة بن الورد، الديوان، ص١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البطولة التي سبق بيانها- فسنجدها في بعد واحد هو: " سيف حاد صارم أبيض كلون الملح " وهذه الصورة نجدها عند جملة من الصعاليك نذكر منهم:

عَمرو بن بَراقة الذي يقول:

وكيف ينـام الليلَ من جـل مالِـهِ حسام كلون الملـح أبيض صـارم [١]

والشَّنْفَرَى الذي يقول:

إذا فَزعوا طـارتْ بأبيض صـارمٍ وراماتْ بما في جفْـرها ثم سلـتِ

حسام كلـون الملح صافٍ حديـده جرازٍ كـأفْـطاع الغـديرِ الـمنَعتِ [٢]

ويقول :

وأبيض من مـاءِ الحديـدِ مهنـد مجد لأطْـرافِ السواعِـدِ مِقْطَـفُ [٣]

وعروة بن الورد الذي يقول :

يكفي من المأثـور كالملـج لونُـه حديثٌ بإخـلاص الذُكـورةِ فاطِـع [٤]

ويقول:

وما لِـي مـالٌ غير دِرعٍ ومِغْفَـرٍ وأبيض من مـاءِ الحديـدِ صقيـلُ [٥]

وصَخْر الغَي الذي يقول :

وصـارم أخْـلصـتْ خَشِـيبتُـه أبيـض مهـو فِـى متْنِـهِ ربـد [٦]

ويبدو لنا كأن الأبيات السابقة كلها بيت واحد، ومن هنا دار خلاف كبير بين القدماء وامتد للمحدثين في نسبة بعض الأبيات والمقطعات لبعض الصعاليك [٧]، ويتجاوز هذا الشكل من التناص، نجد أن الأمر يتعدى إلى الاشتراك في المضامين والأغراض الفنية إلى مستوى نشعر معه أن المضمون واحد ينتقل من شاعر لآخر ونذكر على سبيل المثال من هذه المضامين التي

---

[١] ابن ميمون، منتهى الطلب من أشعار العرب، ٤م، ص٢٠٠.

[٢] الشنفرى، الديوان، ص٣٦.

[٣] المصدر نفسه، ص٥٣.

[٤] عروة بن الورد، الديوان، ص١٨٢.

[٥] المصدر نفسه، ص٢٢٧.

[٦] السكري، شرح أشعار الهذليين، ١م، ص٢٥٧.

[٧] حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبق بيان بعضها فكرة استبدال الوحوش والضواري بالأهل والقبيلة واتخاذها أصحابا ومستودعا للأسرار.

ونلمح مضمونا آخر يتطابق لديهم يتمثل في الحديث عن الذات، والإكثار من الفخر بالبطولة، والصفات الخُلقية، ويصل الأمر حداً يمكن أن نرى فيه أن "أنا الصعلوك" هي ذاتها تتكرر في قصائدهم ومقطعاتهم، وبتوظيف ذات الألفاظ والصور والأساليب.

ومن المضامين التي نجدهم قد انفردوا بها – إلى حد كبير– وتكرر استخدامها في شعرهم، ظاهرة الحديث عن الجوع ونظرة الشاعر له، وكذلك الحديث عن سرعة العدو والافتخار بها، والإكثار من ذكر الأماكن، والوحوش والضواري، وبروز المرقبة التي استخدمها الصعاليك للرصد، وظهور فلسفات وجدليات الحياة المادية.

ولعل هذا وأكثر يجعلنا نفكر في تصورات قد تصلح أن تكون تساؤلات عن شعر البطولة عند الصعاليك، هل يمكن أن نتصور – نسبيا - أن هذا الشعر بمجموعه يصلح لتكوين قصيدة واحدة في البطولة، اشترك في كتابتها مجموعة من الصعاليك، بتأثير مجموعة من العوامل الاقتصادية، والاجتماعية، والبيئية، وحتى تلك الصفات الجسمانية، والحالة النفسية، وغيرها من العوامل.

هل يمكن أن نأخذ جميع شعر الصعاليك في البطولة، ونركب منه قصيدة واحدة متناسقة، نستثني منها ما شذّ من عوامل الخصوصية، وندرج فيها مختلف الأبعاد التي ظهرت في شعرهم كتلك الاجتماعية، وما فيها من علاقات بالقبيلة والمرأة، وغيرها، وتلك الاقتصادية بما فيها من أبعاد مادية يبرز فيها الغنى والفقر، والجوع، والكرم، والإيثار، .. ، ونرسم لوحة بطولية متجانسة تظهر عبرها أنماط البطولة بأدواتها ونتائجها، ونرصد الجانب النفسي الذي برز في سلوك الصعاليك، ونبني من كل هذا الشعر لوحات بطولية فنية ينتج عنها ما يمكن أن نسميه "**ملحمة الصعاليك**" ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

وصلت الدراسة في نهايتها إلى مجموعة من النتائج، منها:

أولا: البطولة مجموعة من القيم العالية الرفيعة، لا تُدعى وإنما تُترجم في سلوك الإنسان، وتدعو لأهداف إنسانية نبيلة، وتقف دائما بجانب الحق وتحقق مظاهره، وتحارب الباطل وتنبذه.

ثانياً: تعني البطولة التفوق والتميز في كل القيم والاتجاهات، لذا اعتبر البطل إنسانا مثاليا كاملا، يتميز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية وخلقية وجسدية يظهر بها بينهم.

ثالثاً: لابد من توافر بعض العناصر في شخص البطل لتتحقق بطولته على أكمل وجه، أن يكون قوي الشخصية، يدافع عن هدف سامٍ وعقيدة قوية، ويكون مصدر خير لجماعته، ولا يأتي من الأعمال ما يضيع هيبته ومكانته بين أفراد جماعته، ولا بد له أن يتمتع بعزيمة قوية تغرس فيه الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالبطولة.

رابعاً: ينبع البطل دائما من الواقع المحيط، ومن إحساس الجماعة، فهو إنسان سوي لا يعلو على الحدود البشرية، يعمل جاهدا على تحقيق آمال الجماعة وأحلامها، فيستمد تقديره واحترامه منها بمقدار ما يحقق لها من رغبات، لذا يعد البطل عاجزا عن إكمال بطولته إذا انقطعت صلته بجماعته.

خامساً: تنوعت الصور البطولية في العصر الجاهلي، فاحتلت البطولة الحربية المنزلة العالية بحكم الصراعات والتنازعات السائدة في العصر، لكنها لم تكن بطولة منفردة في الجاهلية فقد ارتبطت ببطولات أخرى متعلقة بحاجة الجماعة والواقع، كالكرم، والإباء، والحزم، والحلم، والصبر، والعفة، والوفاء.

سادساً: المجتمع الجاهلي مجتمع متماسك، يتفهم الأمور ويزنها، ويعطي كل ذي حق حقه، وقد قدر البطل أشد تقدير لأنه المنقذ والمخلص من الأزمات، ففي حياة البطل أوكلت له القيادة والسيادة، ووظّف الشعر لمدحه والفخر به، أما بعد وفاته فقد أُقيمت له بعض الطقوس التي تليق بمقامه، كالبكاء والندب والرثاء، وتزيين القبور بالنصب والذبح، وتخليد الذّكر بضرب الأمثلة والألقاب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابعاً: تعد البطولة الجاهلية استجابة لعوامل عدة: طبيعية (البيئة)، واقتصادية (الفقر)، واجتماعية (النسب)، وفكرية (الاعتقاد) يعيشها الإنسان الجاهلي، فقد استجاب الصعاليك في الجاهلية إلى مثل هذه العوامل لترسيخ بطولاتهم.

ثامناً: إن البيئة الصحراوية القاسية التي كان يعيشها الصعاليك في الجاهلية، لها فضل كبير في بطولتهم، فاتسموا بسماتها وخصائصها، وتطبعوا بطبائعها، فقسوتها خلقت منهم رجالاً أقوياء شجعاناً، يحذرون المخاطر ويصبرون عليها، أما مساحاتها الواسعة فغرست في نفوسهم الحرية ورفض القيود، لأنهم تنقلوا فيها بكل حرية وطلاقة، لا يحدهم حد، ولا يردعهم حاجز.

تاسعاً: عانى صعاليك الجاهلية من حياة الضيم والذل التي يعاملهم بها المجتمع بسبب شبح الفقر الذي يطاردهم، والنسب الرديء الذي ينتمي إليه بعضهم، فحاولوا جاهدين تغيير هذه الحياة، فلم يجدوا أمامهم سوى لفت الأنظار والانتباه نحوهم بشيء يعجب به هذا المجتمع، ويغير النظرة لهم، فاتخذوا من البطولة والقيم المثالية وسيلة يتشبثون بها ليثبتوا وجودهم وكيانهم.

عاشراً: لعبت المرأة دورا بارزا في بطولة الصعاليك الجاهليين، وقد كمن هذا الدور في محورين أساسيين، الأول: غير مباشر يتمثل في موقفها العام من الصعاليك، وكان موقفا سلبيا، حيث احتقرتهم لسلوكهم وفقرهم ونسبهم ومظهرهم الخارجي، فاتخذوا من البطولة المثلى وسيلة لإعجابها وتغيير موقفها، أما المحور الثاني فكان مباشرا تعمل المرأة من خلاله على تنمية القيم البطولية في نفوس الصعاليك، فتحرضهم على الأخذ بالثأر والإقدام في المعارك، وتعيرهم على الفرار منها.

حادي عشر: اعتقد الصعلوك بفكرة القدر من واقع تجربته في الحياة، فآمن بتقلب الدهر وتغير الحال، وآمن بحتمية الموت، وأحس بهوان الدنيا ومتاعها، فأقبل على البطولة بكل شجاعة وقوة، واستعان بها ليبني لنفسه رصيدا من السمعة الطيبة التي تفيده إن وقع في مكروه، أو تخلد ذكراه بعد مماته.

ثاني عشر: تميز الصعلوك في الجاهلية ببطولته الحربية، وتمتع بجسد صلب وقلب قوي وشجاعة عالية ونصرة لأصحابه وأقربائه، فتمكن من خوض الحروب والمعارك لتحقيق ثأره أو الدفاع عن حماه، وحرص في هذه الحروب على اختيار أشد الخصوم للتنكيل بهم،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسعى لتحقيق أكبرقدر من الغنائم والسبايا ليشعر بقيمة بطولته ونصره، كما امتهن الغارة فأصبحت جزءا من حياته وميدانا لبطولته ومصدرا لرزقه.

ثالث عشر: استعان الصعلوك الجاهلي بعدد من الأدوات المعنوية والمادية في بطولته الحربية، فمن أدواته المادية السلاح بأنواعه كالسيف، والرمح، والقوس، والسهم، والدرع، والترس، والخيل، والتي احتلت في نفسه منزلة عالية، فحرص على ملازمتها معه في كل وقت تحسبا للخطر، أما أدواته المعنوية فمنها سرعته الفائقة التي ضرب المثل بها، ورفاقه الأشداء الذين حرص على اختيارهم، والمراقب العالية التي يستخدمها للمراقبة أو الاختباء أو الهجوم.

رابع عشر: أيقن الصعاليك الجاهليون أن البطولة لا تقتصر على البطولة الحربية والمهارة في القتال، فالتفتوا إلى القيم النبيلة والأخلاق العليا كالكرم والإباء والحزم والحلم والصبر والعفة والوفاء، والتي بدورها تسهم في تكوين الصورة المثلى للبطل.

خامس عشر: يعتبر الصعاليك الجاهليون أحق الناس ببعض البطولات المثلى كالكرم والإباء، فقد قاسوا من حرقة الجوع والعطش، وعانوا من شدة الضيم والذل، فتجدهم لا يرضون لأحد أن يصاب بما أصيبوا به، وانعكس هذا على سلوكهم فكانوا كرماء، يكرمون الضيف ويستقبلونه أطيب استقبال بالبشاشة والسرور، ويقدمون له أطيب ما تجود به أنفسهم خاصة إذا اشتدت السنون وعم القحط، ويطعمون الفقراء الضعفاء، فيأوونهم ويدافعون عنهم، ويشاركونهم في همومهم ويشركونهم بكل ما يملكون، وكانوا يسعون لفك العاني ويسخرون أموالهم لعظائم الأمور، أما بالنسبة لإبائهم وعزتهم فأنفسهم كانت تأبى سؤال الآخر مهما أصابهم الفقر، فيفضلون الموت واستفاف تراب الأرض على سؤال الآخر.

سادس عشر: امتاز صعاليك الجاهلية ببطولة الحزم، ولعل هذا ما اقتضته طبيعة حياتهم، فهم لا يخلطون بين الجد والهزل في حياتهم، يظهرون وعيهم وحكمتهم ويستعينون بتجاربهم في المواقف الصعبة ليحسنوا التصرف فيها، يتمتعون بقوة إرادة فإذا ما عزموا على أمر أنجزوه بإصرار حتى لو كلفهم ذلك عناء كثيرا، ويتحملون عواقب الأمور لأنهم يحسنون التخلص منها ودليل ذلك كثرة ورود الحيلة في مغامراتهم.

سابع عشر: كانت بطولة الصبر عند الصعاليك الجاهليين زادهم الذي يعيشون عليه ليستمروا في حياتهم، فهم أحوج الجاهليين للصبر وذلك لقساوة حياتهم، فقد صبروا على

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجوع والعطش، والحر والقر، وصبروا على المخاطر والمشاكل، وصبروا على فراق الأهل والأحبة، وقد نتج عن بطولة الصبر بطولة أخرى هي الحلم، فهي تعتبر جزءا منه، حيث تمثلت بصبر الصعلوك على تطاول السفهاء والجهال، والعفو عنهم عند المقدرة خاصة إذا كانوا من الأقارب.

ثامن عشر: استطاع الصعاليك في الجاهلية أن يعاقبوا أنفسهم، ويقضوا على طمعها وشحها، فعفّوا وترفّعوا عن شهوات النفس، فلم يكثروا الكلام الفاحش، ولم يعجلوا إلى الطعام حتى وهم جياع، ولم يسترقوا النظر لجاراتهم، فواضح من شعرهم أنهم يعجبون بالنساء العفيفات اللواتي يحفظن شرفهن.

تاسع عشر: أدرك صعاليك الجاهلية قيمة الوفاء فحرصوا عليه ونبذوا الغدر والخيانة، فكانوا يجيرون المستجير أيا كان، ويدفعون عنه الضيم والخطر، فيكرمونه ويثأرون له إن أصابه مكروه، وحفظوا أيضا العهد مع جاراتهم فكانوا لهن عونا في غياب أزواجهن، وامتازوا بالوفاء للصديق والمحبوبة فهم يحفظون الود بينهم وبينها، وقد تعدى وفاؤهم أقصى حدوده فالواضح من بعض أشعارهم أنهم كانوا يجيرون الحيوان.

العشرون: يتسم شعر الصعاليك الجاهليين بكثرة الأفعال البطولية، وحرارة صورها، ويمتاز بجزالة أسلوبه، وصدق تجاربه، لذلك يمكن لنا أن نطلق عليه اسم (الشعر البطولي)، فهو شعر يحمل في طياته بعض الصفات الفنية التي ترتبط بالبطولة، فتصويره للأحداث البطولية واقعي، وتنويعه لصورها يبدو كثيرا، وتراكيبه متينة وألفاظه قوية، وأفعاله تدل على استمرارية البطولة في حياة الصعاليك، وموضوعاته واحدة متماسكة، تكثر فيها الأنا المتعالية التي تتناسب والبطولة، ويكثر أصحابه من الحوار وصيغ المبالغة والتفضيل التي بدورها تعطي تعظيما للبطولة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

ابن الأبرص، عبيد (ت٢٥ق.هـ)، **ديوان عبيد بن الأبرص**، ط١، (تحقيق حسين نـصار)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧.

الأسد، ناصر الدين (١٩٥٩)، البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي، **مجلـة الآداب**، العـدد (١).

الأسد، ناصر الدين (١٩٨٨)، **القيان والغناء في العـصر الجـاهلي**، (ط٣). بيـروت: دار الجيل.

الأصفهاني، أبو الفرج (ت٣٥٦هـ)، **الأغاني**، ط٤، ١٥مجلد، (شرحه :يوسف علي طويل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.

الأصمعي، عبدالملك بن قريب (ت٢١٦هـ)، **الأصمعيات**، ط٥، (تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون)، بيروت، (د.ت).

الأعشى، أبو بصير ميمون بن قيس (ت٧هـ)، **ديـوان الاعـشى**، دار صـادر، بيـروت، (د.ت).

الألوسي، محمود شكري (ت١٣٤٣هـ)، **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، ٣ أجزاء، (شرحه وصححه محمد بهجة الأثري)، دارالكتب العلمية، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، (د.ت).

أمين، أحمد (١٩٥٢)، الصعلكة والفتوة في الإسلام، **سلسلة اقرأ**، العدد (١١١).

أمين، أحمد (د.ت)، **فجر الإسلام**، بيروت: دار الكتاب العربي.

أمين، أحمد (د.ت)، **فيض الخاطر**، (ط١)، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الأندلسي، ابن سعيد (ت ١٨٥هـ)، **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العـرب**، ط١، جـزآن، (تحقيق نصرت عبدالرحمن)، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنيس، إبراهيم ومنتصر، عبدالحليم والصوالحي، عطية وخلف الله، محمد (١٩٧٢)، **المعجم الوسيط**، (ط٢)، القاهرة: مجمع اللغة العربية.

إبراهيم، نبيلة (١٩٩٣)، **من نماذج البطولة الشعبية**، (ط١)، الإمارات العربيـة المتحـدة: مكتبة بن دسمال.

إدريس، سهيل (١٩٥٩)، البطولة في الرواية العربية الحديثة، **مجلة الآداب**، العدد (١).

البحتري، أبو عبادة (ت٢٨٤هـ)، **الحماسة**، ط١، (وضع حواشيه محمود رضوان ديوب)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩.

بسبح، أحمد حسين (١٩٩٥)، **وصاف الخيل في الجاهليـة**، (ط١)، بيـروت: دار الكتـب العلمية.

البستاني، بطرس (٢٠٠٠)، **الشعراء الفرسان**، (ط٣)، بيروت: دار نظير عبود.

البصري، صدر الدين علي بن الحسن (ت٦٥٩هـ)، **الحماسـة البـصرية**، ط٣، جـزآن، (تحقيق مختار الدين أحمد)، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.

البصير، عبدالرزاق (١٩٥٩)، البطولة في الشعر الحديث، **مجلة الآداب**، العدد(١).

البطليوسي، عاصم بن أيوب (ت٤٩٤هـ)، **شرح الأشعار الستة الجاهلية**، جزآن، (تحقيـق ناصيف سليمان عواد)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠.

البغدادي، عبدالقادر بن عمر (ت١٠٩٣هـ)، **خزانة الأدب ولب لباب لـسان العـرب**، ط٢، ١٣جزء، (تحقيق:عبد السلام هارون)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩.

بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن (١٩٧٠)، **قيم جديدة للأدب العربي القـديم والمعاصـر**، (ط٢)، القاهرة: دار المعارف.

البياتي، عادل جاسم (١٩٨٢)، رثاء الأبطال في الأدب العربي قبل الإسـلام، **مجلـة آداب المستنصرية**، العدد(٦).

البيهيقي، إبراهيم بن محمد، **المحاسن والمساوئ**، دار صادر، بيروت، (د.ت).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تأبط شراً، ثابت بن جابر (ت٨٠ ق.هـ)، **ديوان تأبط شرا وأخباره**، ط٢، (جمع وتحقيـق علي ذو الفقار شاكر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩.

التيمي، أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢٠٩هـ)، **كتاب الديباج**، ط١، (تحقيق عبـدالله بـن سليمان الجربوع وعبدالرحمن بن سليمان العثيمين)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩١.

ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت٢٩١هـ)، **قواعد الشعر**، ط١، (شرحه وعلـق عليـه محمد عبدالمنعم خفاجى)، الدار المصرية البنانية، القاهرة، ١٩٩٦.

جابر، عصفور (١٩٩٥)، حكمة اللاذة، **مجلة العربي**، العدد (٤٤٣).

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، **البيـان والتبيـين**، ٤ أجـزاء، (تحقيـق عبدالسلام هارون)، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، **الحيـوان**، ط٢، (تحقيـق عبدالـسلام هارون)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، **المحاسن والأضداد**، ط١، (شرح يوسـف فرحات)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٧.

الجبوري، يحيى وهيب (١٩٦٨)، **الجاهلية مقدمة فـي الحيـاة العربيـة لدراسـة الأدب الجاهلي**، (ط١)، بغداد: مطبعة المعارف.

ابن جعفر، أبو الفرج قدامة بن زياد البغدادي (ت٣٣٧هـ)، **نقد الشعر**، ط٣، (تحقيق كمـال مصطفى)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨.

الجندي، علي (١٩٨٩)، **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، القاهرة: دار الفكر العربي.

الجندي، علي (١٩٩١)، **في تاريخ الأدب الجاهلي**، (ط١)، المدينـة المنـورة: مكتبـة دار التراث.

جوزي، بندلي (١٩٨٣)، **تاريخ الحياة الفكرية في الإسلام**، (ط١)، بيروت: دار الجيل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ط١، (تحقيق: إميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩.

الطائي، حاتم بن عبدالله، **ديوان شعر حاتم الطائي وأخباره**، (تحقيق عادل سليمان جمـال)، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٥.

حفني، عبدالحليم (١٩٨٧)، **شعر الصعاليك منهجه وخصائصه**، القاهرة: الهيئـة المـصرية العامة للكتاب.

الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥.

الحوفي، أحمد محمد (١٩٦٧)، **البطولة والأبطال**، القاهرة: يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الحوفي، أحمد محمد (١٩٥٢)، **الحياة العربية من الشعر الجـاهلي**، (ط٣)، القـاهرة: دار النهضة المصرية.

الحوفي، أحمد (١٩٨٠)، **المرأة في الشعر الجاهلي**، (ط٣)، القاهرة: دار النهضة المصرية.

الخالديان، أبو بكر محمد بن هاشم (ت٣٨٠هـ) وأبو عثمان سعيد بن هاشم (ت٣٩١هـ)، **كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين**، جزآن، (تحقيق محمد يوسف)، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨.

خالص، صلاح (١٩٥٩)، حول البطولة في الأدب العربي بعد ظهور الأسلام، **مجلة الآداب**، العدد (١).

خريوش، صادق الشيخ صالح (١٩٩١)، **صورة البطل في كتب الحماسة**، أطروحة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

ابن الخطيم، قيس، **ديوان قيس بن الخطيم**، ط٣، (تحقيق ناصر الدين الأسد)، دار صـادر، بيروت، ١٩٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خفاجي، عبد المنعم (١٩٩٢)، **دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي**، (ط١)، بيروت: دار الجيل.

خفاجي، عبدالمنعم (١٩٨٦)، **الشعر الجاهلي**، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ)، **المقدمة**، دار الشعب، القاهرة، (د.ت).

خلف، عبدالله (د.ت)، **الشعر ديوان العرب: الشعراء الصعاليك دراسة تحليلية نقدية**، (ط١)، الإسكندرية: المكتب العربي للطباعة.

خليف، يوسف (١٩٨٦)، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، (ط٤)، القاهرة: دار المعارف.

خليل، أحمد محمود (١٩٩٦)، **في النقد الجمالي: رؤية في الشعر الجاهلي**، دمشق: دار الفكر.

الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الحارث الشريد (ت٢٤هـ)، **ديوان الخنساء**، ط١، (شرحه وقدم له إبراهيم شمس الدين)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠١.

الخواجا، زهدي صبري (١٩٨٤)، **الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي**، (ط١)، الرياض: دار الناصر للنشر والتوزيع.

خوري، رئيف (١٩٥٩)، حول البطولة وأدب الأطفال، **مجلة الآداب**، العدد(١).

دراوشة، صلاح الدين أحمد (٢٠٠١)، **القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديواني المفضليات والأصمعيات**، (ط١)، إربد : مكتبة الفجر.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ)، **كتاب الاشتقاق**، ط٢، جزآن، (تحقيق عبدالسلام هارون)، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٩.

الدهان، سامي (١٩٦٨)، **المديح** (سلسلة فنون الأدب العربي) ، (ط٢)، القاهرة: دار المعارف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الربَعي، عيسى بن إبراهيم بن محمد (ت٤٨٠هـ)، **نظام الغريب**، ط١، (استخرجه وصححه بولس برونله)، المطبعة الهندية، القاهرة، (د.ت).

ربيع، عقل سليمان (١٩٩٨)، **المرأة عند الشعراء الصعاليك في العصر الجـاهلي**، رسـالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

ابن رشيق، أبو علي الحسن (ت٤٥٦هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابـه ونقـده**، ط٣، جزآن، (تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٤.

الزبيدي ، محمد مرتضى (ت١٢٠٥هـ)، **تاج العروس من جواهر القـاموس**، دار ليبيـا، بنغازي، ١٩٦٦.

الزعبي، منذر محمد إبراهيم (١٩٨٩)، **الإنسان عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

الزعبي، منذر محمد إبراهيم (١٩٩٧)، **البطولة في الشعر الجاهلي**، أطروحة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

زلط، عبدالرحيم محمود (١٩٨٤)، البطولة النفسية والشمائل الإنسانية في الشعر الجـاهلي، **مجلة الدارة**، العدد (٣).

الزمخشري، أبوالقاسم جارالله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ)، **أساس البلاغة**، ط١، (تحقيق عبد الرحيم محمود)، مطبعة أولاد أورفاند، القاهرة، ١٩٥٣.

الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ)، **المستقصى من أمثال العرب**، ط٢، جزآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧.

سركيس، إحسان (١٩٧٩)، **مدخل إلى الأدب الجاهلي**، (ط١)، بيروت: دار الطليعة.

ابن سعد، محمد (ت٢٣٠هـ)، **كتاب الطبقات الكبير**، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، القـاهرة، ١٩٥٨.

السعدي، السليك بن عمرو (ت١٧ق.هـ)، **ديوان الـسليك بـن الـسلكة**، ط١، (قـدم لـه وشرحه:سعدي الضناوي)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو السعود، فخري (١٩٣٧)، البطولة بين الأدبين العربي والإنجليزي، **مجلة الرسالة**، السنة الخامسة، ١ (١٨٩).

السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين (ت٢٧٥هـ)، **شرح أشعار الهذليين**، ط٢، ٣مجلدات، (تحقيق عبدالستار أحمد فراج)، دار التراث، القاهرة، ٢٠٠٤.

سلامة، محمد أحمد (١٩٨٥)، **موضوعات ونصوص وقضايا حول الشعر الجـاهلي**، (ط١)، القاهرة: دار الطباعة المحمدية.

بن أبي سلمى، زهير (ت١٣ق.هـ)، **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، (قـدم لـه وعلـق حواشيه سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٦.

سليمان، علي (٢٠٠٠)، **الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع**، دمشق: وزارة الثقافة.

السندوبي، حسن (١٩٥٤)، **أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام**، (ط٢)، بيروت: المكتبة الثقافية.

السندوبي، حسن (١٩٨٢)، **شرح ديوان امرئ القيس**، (ط٧)، بيروت: المكتبة الثقافية.

أبو سويلم، أنور (١٩٨٧)، **دراسات في الشعر الجاهلي**، (ط١)، بيروت: دار الجيل.

الشايب، أحمد (١٩٧٦)، **تاريخ الشعر السياسي** ، (ط٥)، بيروت: دار القلم.

ابن شداد، عنترة (ت٢٢ق.هـ)، **ديوان عنترة بن شداد**، ط٣، (تحقيق فوزي عطوي)، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠.

الشلبي، حسن مرعي حسن (٢٠٠٠)، **البطولة في الشعر العربي الإسلامي زمـن الرسـول صلى الله عليه وسلم**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، الأردن.

شلبي، سعد اسماعيل (١٩٧٧)، **الأصول الفنية للشعر الجاهلي**، الفجالة: مكتبة غريب.

الشمشاطي، أبو الحسن علي بن محمد (ت٣٧٧هـ)، **الأنـوار ومحاسـن الأشـعار**، ط٢، (تحقيق صالح مهدي العزاوي)، دار الشؤون والثقافة العامة، بغداد، ١٩٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشنفرى، عمرو بن مالك (ت٧٠ ق.هـ)، **ديوان الشنفرى**، ط٢، (جمع وتحقيق إميل بـديع يعقوب)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦.

الشنقيطي، محمد بن محمود بن أحمد (ت١٣٢٣هـ)، **ديوان الهذليين**، ط٣، جزآن، (قدمـه أحمد الزين)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣.

شيخو، لويس (١٩٩١)، **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، (ط٤)، بيروت: دار المشرق.

الصائغ، عبدالإله (١٩٩٩)، **الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب**، (ط١)، صـنعاء: دار الفكـر المعاصر.

الصفدي، مطاع و حاوي، ايليا (١٩٧٤)، **موسوعة الـشعر العربـي**، (ط١)، ٥مجلـدات، بيروت: شركة خياط للكتاب والنشر.

الضبي، المفضل (ت١٧٨هـ)، **المفضليات**، ط٦، (تحقيق أحمد محمد شـاكر وعبدالـسلام هارون)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.

ضناوي، سعدي (١٩٩٣)، **أثر الصحراء في الشعر الجاهلي**، (ط١)، بيـروت: دار الفكـر اللبناني.

الضناوي، محمد أمين (١٩٩٧)، **الصعاليك في الجاهلية لصوص أم رواد ثورة اجتماعيـة**، (ط١)، بيروت: دار الشرق الأوسط.

ضيف، شوقي (١٩٧٠)، البطولة في الشعر العربي، **سلسلة اقرأ**، العدد(٣٣١).

ضيف، شوقي (١٩٧٧)، **تاريخ الأدب العربـي: العـصر الجـاهلي**، (ط٨)، القـاهرة: دار المعارف.

الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس (ت٢٣١هـ)، **كتاب الوحـشيات**، ط٣، (محمـود محمـد شاكر)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

الطائي، أبو عدي حاتم بن عبدالله القحطاني (ت٤٦ق.هـ)، **شرح ديوان حاتم الطائي**، ط١، (شرحه إبراهيم الجزيني)، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن الطفيل، عامر (ت١١هـ)، **ديوان عامر بن الطفيل**، ط١، (تحقيق هدى جنهويتشي)، دار البشير، عمان، ١٩٩٧.

طليمات، غازي والأشقر، عرفان (٢٠٠٢)، **الأدب الجاهلي**، (ط١)، دمشق: دار الفكر.

ابن عاديا، السموأل بن عريض (ت٦٥ق.هـ)، **ديوان السموأل**، (تحقيق عيسى سـابا)، دار صادر ، بيروت، (د.ت).

العامري، لبيد بن ربيعة (ت٦٦١م)، **شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، (تحقيق إبـراهيم جزيني)، مكتبة النهضة، بغداد، (د.ت).

عبدالرحمن، عفيف (١٩٨١)، المثل والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي، **مجلة مجمع اللغـة العربية الأردني**، ٤(١١-١٢).

ابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت٣٢٧هـ)، **العقد الفريد**، ط٣، (أحمد أمين وأحمـد الزين وإبراهيم الأبياري)، لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

ابن العبد، طرفة (ت٦٠ق.هـ)، **ديوان طرفة بن العبـد**، (تحقيـق فـوزي عطـوي)، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠.

العبسي، عروة بن الورد (ت٣٠ق.هـ)، **ديوان عروة بن الـورد**، ط١، (شـرحه: سـعدي ضناوي)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦.

العتوم، علي (١٩٨٢)، **قضايا الشعر الجاهلي**، (ط١)، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة.

عرفه، محمود (١٩٩٥)، **العرب قبل الإسلام**، (ط١)، الكويت: مكتبة ابن كثير.

العزب، محمد أحمد (١٩٧٨)، ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، **سلسلة اقرأ**، العدد (٤٤٢).

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت٣٩٥هـ)، **ديوان المعاني**، جـزآن، دار الجيـل، بيروت، (د.ت).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت٣٩٥هـ)، **كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر**، (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢.

عطوان، حسين (١٩٩٣)، **بيئات الشعر الجاهلي**، (ط١)، بيروت: دار الجيل.

عفيفي، عبدالله (١٩٣٢)، **المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها**، (ط٢)، ٣أجزاء، المدينة المنورة: مكتبة الثقافة.

ابن علس، المسيب بن مالك بن عمرو، **شعر المسيب بن علس**، ط١، (تحقيق أنور أبوسويلم)، منشورات جامعة مؤته، الكرك، ١٩٩٤.

علي، جواد (د.ت)، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ١٠ أجزاء ، ساعدت على نشره جامعة بغداد.

العماري، فضل بن عمار (١٩٩٦)، الصعلكة لدى الشنفرى ودلالتها الاجتماعية والنفسية، **مجلة جامعة الملك سعود**، ٨ (٢) .

عويضات، نايف حمدان أحمد (٢٠٠٠)، **صورة البطل في شعر عنترة بن شداد العبسي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس، القدس، فلسطين.

عيد، رجاء (٢٠٠٣)، **لغة الشعر: قراءة في الشعر العربي المعاصر**، (ط١)، الإسكندرية: منشأة المعارف.

الغنوي، طفيل بن عوف (ت١٣ق.هـ)، **ديوان الطفيل الغنوي**، ط١، (تحقيق محمد عبدالقادر أحمد)، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨.

فالح، جليل (١٩٨٠)، البطل في شعر الحماسة، **مجلة آداب الرافدين**، العدد(١٤).

فرحات، يوسف شكري (٢٠٠٤)، **ديوان الصعاليك**، بيروت: دار الجيل.

فروخ، عمر (١٩٨١)، **العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي**، (ط٢)، بيروت: دار العلم للملايين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفيروزاباذي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب (ت٨٢٣هـ)، **القـاموس المحـيط** ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (د.ت).

القالي، أبو علي اسماعيل القاسم (٣٥٦هـ)، **الأمالي**، جزآن، (مراجعة لجنة إحيـاء التـراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

القالي، أبو علي اسماعيل القاسم (ت٣٥٦هـ)، **ذيل الأمالي والنوادر**، (مراجعة لجنة إحيـاء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، **الشعر والـشعراء**، جزآن، دار الثقافـة، بيروت، ١٩٦٤.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، **عيون الأخبار**، نسخة مصورة بالأوفست عن دار الكتب المصرية، ٤مجلدات، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، **كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني**، ط١، ٣أجزاء ، (عبدالرحمن بن يحيى اليماني)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤.

القرشي، عباس بن محمد النجفي (ت١٢٩٩هـ)، **حماسة القرشي**، (تحقيق خيرالدين محمود قبلاوي)، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥.

القرشي، محمد بن أبي الخطاب (ت١٧٠هـ)، **جمهرة أشعار العرب**، دار صادر، بيـروت، (د.ت).

القيسي، نوري حمودي (١٩٨٢)، **البطل في التراث**، بغداد: المجمع العلمي العراقي.

القيسي، نوري حمودي (١٩٦٤)، **الفروسية في الشعر الجـاهلي**، (ط١)، بغـداد: مكتبـة النهضة.

القيسي، نوري حمودي والبياتي، عادل وعبداللطيف، مصطفى (١٩٧٩)، **تاريخ العرب قبـل الإسلام**، بغداد: دار الحرية.

كارليل، توماس (د.ت)، **الأبطال وعبادة الأبطال**، ترجمة عبدالرحمن البرقـوقي، القـاهرة: (د.ن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كفاني، منذر ذيب (١٩٩٨)، **صورة المرأة في شعر الصعاليك واللـصوص حتـى نهايـة العصر الأموي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

ابن الكلبي، أبو المنذر هشام، **أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها**، ط٤، (تحقيـق أحمد زكي)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣.

كنعان، عاطف محمد مصطفى (١٩٩٧)، **الإنسان في الشعر الجاهلي في ضوء الدراسـات الحديثة**، أطروحة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان.

ماجد، عبدالمنعم (١٩٨٢)، **التاريخ السياسي للدولة العربية**، (ط٧)، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

المجذوب، محمد مهدي (١٩٥٨)، البطولة كما يصورها الأدب الجـاهلي، **مـؤتمر الأدبـاء العرب**، الدورة الرابعة، الكويت ٢٠-٢٨ ديسمبر.

المرزوقي، أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ)، **شرح ديوان الحماسة لأبي تمام**، ط١، ٤ أجزاء، (تحقيق غريد الشيخ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

المرعي، فؤاد واسكندر، فايز (١٩٨٨)، المفهوم البطولي عند العرب قبل الإسـلام، **مجلـة بحوث جامعة حلب**، العدد (١٢).

مزالي، محمد (١٩٥٩)، البطولة في أدب الأندلس وشمال أفريقيا، **مجلة الآداب**، العدد(١).

ابن المقفع، عبدالله (ت١٤٢هـ)، **الأدب الـصغير والأدب الكبيـر**، دار صـادر، بيـروت، (د.ت).

بو ملحم، علي (١٩٧٠)، **في الأدب وفنونه**، صيدا: المطبعة العصرية.

الملوحي، عبدالمعين (١٩٩٣)، **أشعار اللـصوص وأخبـارهم**، ٣مجلـدات، بيـروت: دار الحضارة الجديدة.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، **لسان العرب**، ط١، ١٥جزء، (تحقيق عامر أحمد حيدر)، دارالكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن منقذ، أسامة (ت٥٨٤هـ)، **لباب الآداب**، ط٢، (أحمد محمد شاكر)، دار الكتب الـسلفية، القاهرة، ١٩٨٧.

المهلهل، أبو ليلى عدي بن ربيعة التغلبي (ت١٠٠ق.هـ)، **شـرح ديـوان المهلهـل**، ط١، (تحقيق محمد علي أسعد)، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠٠.

ابن ميمون، محمد بن المبارك بن محمد (ت٥٩٧هـ)، **منتهى الطلب من أشـعار العـرب**، ط١، ٩مجلدات، (تحقيق محمد نبيل طريفي)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩.

نبوي، عبد العزيز (١٩٨٨)، **دراسات في الأدب الجاهلي**، (ط٢)، القاهرة: الصدر لخـدمات الطباعة.

نصير، أمل طاهر (١٩٩٥)، **المرأة في الحياة العربية عند أعلام الشعر الأموي**، أطروحـة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

النعيمي، أحمد إسماعيل (١٩٩٥)، **الأسطورة في الـشعر العربـي قبـل الأسـلام**، (ط١)، القاهرة: سينا للنشر.

نوادر المخطوطات، ط٢، مجلدان، (تحقيق عبدالسلام هارون)، مطبعة الحلبـي، القـاهرة، ١٩٧٣.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ)، **نهاية الأرب فـي فنـون الأدب**، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، ٢٠مجلد، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، (د.ت).

هارون، عبدالسلام (١٩٩٢)، **مجموعة المعاني**، (ط١)، جزآن، بيروت: دار الجيل.

هدارة، محمد (١٩٨٥)، **الأدب العربي في العـصر الجـاهلي**، الإسـكندرية: دار المعرفـة الجامعية.

الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت٣٤٤هـ)، **صفة جزيرة العرب**، ط١، (محمد بـن علي الأكوع)، دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هوك، سيدني (١٩٥٩)، **البطل في التاريخ**، ترجمة مروان الجـابري، بيـروت: المؤسـسة الأهلية.

اليازجي، كمال (١٩٧٣)، **في الشعر العربي القديم**، (ط١)، ٣ أجزاء، بيروت: دار الكتـاب اللبناني.

يوسف، حسني عبدالجليل (١٩٨٩)، **العذل في الشعر الجاهلي**، القاهرة: مكتبة الآداب.

يونس، عبدالحميد (١٩٥٩)، البطولة في الأدب الشعبي، **مجلة الآداب**، العدد(١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

THE IMAGE OF THE HERO AT TRAMPS POETS IN PRE- ISLAM AGE

by
Khaled Mohamed Rashed Allzair All Ajamee

Supervisor
Dr. Hamdi Mahmoud Mansor

ABSTRACT

This study looked for the details of the hero's image at tramps poet in pre-Islam age. This image formed a distinguish example whereas it's competent rises from their deep humanity and strongly connected with the meaning of their existence .Also, it was an important competent of their characteristic that there is no doubt in its reliability or saying that it is fabricated or artificial.

The exploration of the verse and poems which were adopted by the study showed that this heroism gained its existence , special characteristics and multiple aspects from the social reality that the tramps lived in that time . Also, many of its aspect were affected by the environment across many impacts such as physical and moral.

Also, the study showed that realism was the main characteristics of heroism at pagan in general, and at tramps in particular, this is extremely different from the common heroic image of the popular legacy of other civilizations where heroism based

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

on mythical and epical side, and realism reflects the amount of human interaction that existed between tramps and life.

Military heroism appeared as an essential aspect of heroism at tramps poets. The features, forms, and motivation of heroism were varied by the differentiation of facts, events, and personalities. Yet, this military aspect was not only the main competent of the image of heroism at tramps. However the image of heroism only completed after its combination with high qualities and ideal heroic ethics, this was presented by the study in the research of optimum heroism.

Aspects and manifestations of the real relationship between tramps and their weapons appeared in the image of heroism at tramps. These weapon and what resemble it of mounts and places were not merely for killing and destruction, but they tried to breathe life and feeling into these weapons. So, they had a warm feeling towards horse, sword, spear and other. They were speaking to these weapons, listening and responding to, and it was responding to them. They were giving it care and attention equal to their care of life.

Some parts of heroism's aspects and tools formed a true reflection to express the psychological state of the tramps and often come to compensate for the lost of social ties between them and to overcome the aspects of loneliness and individuality in their life.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit